الحوارات الإلهية
هؤلاء كلمهم الله

د/ خالد الزواوى

مؤسسة حورس الدولية

الزواوى، خالد محمد أحمد

الحوارات الإلهية هؤلاء كلمهم الله/ خالد محمد أحمد الزواوى. ــ الإسكندرية :

مؤسسة حورس الدولية، ٢٠١٠.

٣٧٤ص ؛ ٢٤ سم

تدمك ٦ ـ ٣٢٣ ـ ٣٦٨ ـ ٩٧٧ – ٩٧٨

١ـ اللغة العربية

أ ـ العنوان

٤١٢

طبعة أولى
٢٠١٠ـ٢٠١١

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٠/٨٠١١
الترقيم الدولى I.S.B.N
٦ ـ ٣٢٣ ـ ٣٦٨ ـ ٩٧٧ – ٩٧٨

الإخراج وفصل الألوان
وحدة التجهيزات الفنية

مدير النشر
مصطفي غنيم

مؤسسة حورس الدولية
١٤٤شارع طيبة – سبورتنج ـ الإسكندرية
ت ٠٣/٥٩٣٠٥٩٨ ف ٠٣/٥٩٢٢١٧١

الحوارات الإلهية هؤلاء كلمهم الله

إهــداء

إلى زوجي . . .

لون من الوحي لا أعرف كيف كان يتـم

لكني عرفت بها قدري عند الله . . . . .

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ
يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ٥١﴾

[الشورى: ٥١]

المقدمة:

كان القرآن الكريم نورا لى منذ صباى، وعلمتنى الفطرة أن أقرأ ما تيسر منه كل يوم قدر استطاعتى، وكنت اقرأوه مُجَوَدًا فأجد فيه حلاوة الترتيل، وجعلت أقف على تفسيره شيئا فشيئًا، وحرصت على الاستماع للعلماء والدعاة، وتابعت الندوات الدينية، واللقاءات الفكرية التى كانت تدور حول الدين، وتابعت أيضا البرامج الدينية والثقافية فى الإذاعة والتلفزيون، وتأثرت بكثير من المشاهير الأجلاء فى تلك الأزمان أمثال محمود شلتوت، والشرباصى، وعبد الحليم محمود، وإبراهيم سلامة، والتفتازانى، والإمام الغزالى، ومحمد بن فتح الله بدران، والشيخ الباقورى، والشعراوى، والبهى الخولى، ومصطفى محمود، وعبد العزيز كامل...، وغيرهم وكنا نسمع القرآن الكريم من الشيخ محمد رفعت منذ بداية الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ ومصطفى إسماعيل، وعبد الباسط عبد الصمد، وأبو العنين شيعيشع، ومحمود خليل الحصرى وطه الفشنى، وعبد العظيم زاهر، والشعشاعى، وراغب، مصطفى غلوش، والمنشاوى، والبهتيمى، والبنا والصيفى وعلى محمود، وغيرهم منذ ذلك الوقت. فاتخذنا طريقنا إلى معرفة الله فى كل ما نقوم به من تلقى العلم والمذاكرة وصنع المستقبل والزواج والذرية. حتى أننا لم ننس يوما مادعا إليه الدين من صلاة وزكاة وصيام وحج، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر. إلى أن انتقلنا من دور الحياة العملية إلى دور التأمل والتفكر فى كل الأمور، وأخذنا ذلك المنهج ونحن نعاود قراءة

القرآن مرة بعد الأخرى، فاستوقفتنا فيه آيات كثيرة، بل أحرف كثيرة. توقفت عندها، وحارد العقل فى تفسيرها رغم الرجوع إلى المراجع والمعاجم وكتب التفسير والإيضاح. لكن العقل لا يقنع إلا بالواقع الذى نعرفه، وما كان فوق الإدراك، فهو غيب.. علينا أن نؤمن به على أنه غيب وكفى. من ذلك ما كان من آيات تكشف عن حوارات إلهية.. حوارات بين الله وبين أنبيائه ورسله الذين اختارهم واصطفاهم، وجعلهم من المقربين ومن عباده المؤمنين. وكان الحوار حول العقيدة، وما هية الحياة والموت، والخوارق التى ساقها الله حول هذه القضايا، حتى يخلص الحوار وينتهى إلى تقرير عملية التوحيد، وقضية عبادة الله الواحد القهار وحده لا شريك له، وإثبات طلاقة القدرة فى كل ما جاء به الله ليؤمن الناس بعد أن شهدوا من قبل أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده مقاليد الأمور، يُحيى ويميت وهو على كل شيء قدير.

لكن الأمر الذى كان يشغل الفكر حول آيات الحوارات الإلهية.. كيف كان كلام الله لأولئك الرسل، وهؤلاء الأنبياء، وإلى الملائكة السابقين على الرسل والأنبياء. هل هو كلام كـكلامنا...؟ ما طبيعته وما طريقته وما لغته؟ رغم تباين العصور واختلاف الأزمنة، وغرابة الألسنة والوجوه والأيدى؟ ذلك من أنباء الغيب يوحيه الله إلى الرسل، وتبلغه الرسل إلى أقوامهم، وليس لنا إلا أن نقف أمام ذلك الغيب مؤمنين مصدقين لكل ما نسمع، ولكل ما نقرأ، ولا يفيدنا عدم معرفة كيفية ما كان من حوار، ولا يفيد أكان كما نكون، أم على أمر قد قدر. وليس لنا أن نغوص فيه أو

نتبحر حتى لا يأخذنا الشطط، وتزلف أقدامنا، والله لا يريد لنا إلا الرحمة، وأن نؤمن بغيبه وأن أفعاله ليست كأفعال من خلق، فهو ليس كمثله شيء. فإن كانت لنا ألسنة نتكلم بها، حيث لا يكون كلام بدون لسان – وإن كانت لنا آذان نسمع بها – حيث لا يكون سمع بلا أذن– وهكذا فعند الله غير ذلك عما لا يدركه العقل، أو تقف عليه النفس. فهو سبحانه وتعالى يرى ويسمع ويتكلم، وينزل ويصعد.. إلى غير ذلك ولكن ليس كمثله شيء.

والله لا يكلم بشرا إلا وحيًا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا، ويستطيع أى بشر أن يكلم الله، وأن يكلمه الله، إذا توافرت فيه خصائص التفضيل والمفاضلة والاختيار والاصطفاء، وكان من المحسنين، ومن عباد الله المؤمنين، من أجل ذلك جاءت كلمة "بشر" فى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى:٥١]، لتدل على أن الصالحين والمقربين والأخيار والمصطفين، يقدرون على حوار مع الله، وأن الله لا يعجزه ذلك، فهو ليس مستحيلا، وإن كنا نحن نكلم الله كل يوم فى صلاتنا، ويكلمنا الله ونحن نقرأ القرآن، والصالحون يشعرون أنهم فى معية الله.

أما إن كان عصر الخوارق قد انتهى وقته، ونحن فى عصر لا حاجة له بهذه الآيات وتلك الخوارق، فلربما تلت هذه العصور أزمنة تتكرر فيها الخوارق، وتأتى بالآيات – ربما – لست أدرى. إن الله تعالى يصطفى من عباده الصالحين من يبلغ هدايته إلى الناس، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ ٱللَّهُ

﴿يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥]

ولهذا الاصطفاء الإلهى ضوابطه من سلامة الجسد ورجاحة العقل، وطهارة القلب، وسلامة الفطرة...

هل يمكن أن نكلم الله، وأن يكلمنا الله؟ نعم، فنحن نكلم الله كل يوم فى صلاتنا، وفى دعائنا آناء الليل وأطراف النهار، فى تقلبنا وفى قيامنا وسجودنا وركوعنا، وعلى جنوبنا فى كل زمان ومكان...

كذلك الله يكلمنا ونحن نقرأ القرآن العظيم، والذكر الحكيم. فأنت تشعر وأنت تقرأ كلام الله أنه يكلمك بما يصلح شأنك، ويصلح دينك وسلوكك فى الحياة.. ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [النمل:٩٢]

كم كنا نتساءل ونحن أطفال عن مثل هذه الأفكار، هل يمكن أن نكلم الله وأن يكلمنا الله؟ وماكنه هذه القوة العجيبة صانعة هذا الكون الذى جئنا فيه؟

أين الله؟ ومتى كان، وكيف؟ هل يمكن أن نرى الله؟ أسئلة كانت تشغل عقولنا، ونحن نسمع ونقرأ عن الله، ونسأل آباءنا وأمهاتنا ومعلمينا عن أشياء غيبية، وكانوا يضحكون فماذا عساهم يجيبون؟ وتأتى الإجابات، نقتنع بها أحيانا، وأحيانا نزال فى شك منها.. أين الله؟ هو فى كل مكان... متى كان وكيف؟ هو الأول ليس قبله شيء، والآخر ليس بعده شيء...

وإذا أردت أن ترى الله فأنظر حولك من مخلوقات، أو عد مريضا فسوف تجد الله عنده، وسوف ترى الله.

وهكذا كانت تدور الأسئلة فى رءوسنا ونحن صغار، حتى بلغنا أشدنا وعكفنا على البحث والدراسة حول هذه الموضوعات التى ظلت عالقة فى أذهاننا منذ صبانا.. وخرجت كتبنا ومؤلفاتنا نتيجة هذه الأفكار، ولا تزال الأبحاث والدراسات جزءا من حقيقة يبحث عنها كل دارس.

وقد أقدمت على هذه الدراسة رغم أنى لست من أهل الذكر فى هذا الميدان، إلا أن طبيعة دراساتى فى اللغة العربية ساعدتنى فى فهم معانى القرآن الكريم، ومن ثم فى التأمل والتدبر فى آياته، وأمدتنى الدراسات بمفاتيح ألج بها فى دروب علم الأديان، وقراءة ما كتب فيها. غير أنى لست بملهم فى هداية البشر، يوحى إليه من الملائكة الأطهار، أو الرسل الأبرار كما يوحى الله للمحسنين من عباده وللمؤمنين والمختارين ممن اصطفاهم وقربهم إليه..

ولعل من العجيب فى هذا الكون الذى أبدع الله صنعه أنه اختار من بين البشر رسلا مبشرين ومنذرين، وأوحى إليهم ما أوحى. واختار ملائكة أوحى إليهم، واختار من يكلمه من وراء حجاب. واختار من بين البشر إنسانا يصعد إلى السماء حيا يرزق، وأسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وأعرج به إلى سدرة المنتهى... إلى غير ذلك من اختيارات الذات الإلهية، ولا مرد لاختياره.

ولأسباب لا نعرفها كان الاتصال بالله، بطريقة ما وبكيفية ما لا نسأل

عنه إلا أنه غيب، ولا يعلم الغيب إلا هو، ونؤمن بكل ما كان منه...

ولكنى أرى أنى أقبلت على الله، فأقبل الله على، وفتح لى أبواب الهداية، فاهتديت إلى بعض الأفكار من خلال التدبر والتأمل، ولا أكاد أملك من أمرى شيئا.

وها أنا ذا أمام قرآن تيلى، وآيات تمر على، فإذا كانت فى ذكر الباقيات الصالحات اشتقت إليها. وإذا كانت فى ذكر الحياة الدنيا، فكأن زفير جهنم فى أذنى..

من أكون وسط هذه الكوكبة ممن اختارهم الله، واصطفاهم، وتناولتهم الأقلام من زوايا مختلفة، فأوجدوا عندنا مددا نستطيع أن نستلهم منه ما يشفينا حول ما نتناوله من أفكار فى نفس المجال.

لسوف أكتب خواطرى حول ما نزلت به آيات الله فى أعظم ما خلق الله من ملائكته وأنبيائه ورسله وأحبائه، وممن اصطفاهم وفضلهم على غيرهم بكل معانى الإيمان الخالص.

لقد جاءت آيات الله فى كل كتبه.. التوراة، والإنجيل، والقرآن، وصحف إبراهيم وموسى، ومزامير دواد، وغير ذلك مما جاء فى كتب الله المنزهة.

د. خالد الزواوى

تهيئة:

يدور هذا البحث حول حقيقة الوحى والرسالة ليكشف عن طبيعة الاتصال، والكلام بين الله والمختارين من عباده، وفى أية صورة يكون، وهو الذى وقع فعلا إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم –، لغاية يريدها الله سبحانه ليهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم.

ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة، إنما يتم كلام الله للبشر إما وحيا يلقى فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله، أو من وراء حجاب- كما كلم الله موسى عليه السلام – وحين طلب الرؤية لم يجب إليها. فالله لا يرى لأنه نور، ونور لا يستطيع لبشر أن يقوى على رؤيته: . حتى الجبل لم يطق تجلى الله عليه. أو يرسل رسولا، وهو الملك – فيوحى بإذنه ما يشاء- بالطرق التى وردت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم-.

الأولى : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال – صلى الله عليه وسلم – : "إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب".

والثانية: أنه كان صلى الله عليه وسلم – يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول.

والثالثة: أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى

الأرض إن كان راكبها، وقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

والرابعة: أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه.

هذه صور الوحى، وطرق الاتصال: "إنه على حكيم" يوحى من علو، ويوحى بحكمة إلى من يختار..

وإنك لتشعر برجفة معى إذا ما وقفت أمام آية تذكر الوحى، أو حديث، لتتأمل هذا الاتصال، وهذا الكلام.. كيف يكون بين الذات الأزلية الأبدية التى ليس لها حيز فى المكان، ولا حيز فى الزمان، المحيطة بكل شيء، والتى ليس كمثلها شيء.. كيف يكون هذا الاتصال، وهذا الكلام بين هذه الذات العلية، وذات إنسان متحيزة فى المكان والزمان، محدودة بحدود المخلوقات، من أبناء الفناء. ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معانى وكلمات وعبارات، وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلى الأبدى الذى لا حيز له، ولا حدود، ولا شكل له معهود.

إن النبوة هذه شيء عظيم حقًا. وإن لحظة التلقى هذه لعظيمة حقا، تلقى الذات الإنسانية لوحى من الذات العلوية. هذا الوحى الصادر من هناك، كلا ليس هناك، الصادر من غير مكان ولا زمان، ولا حيز ولا حد، ولا جهة ولا ظرف. الصادر من المطلق النهائى، الأزلى الأبدى. الصادر من الله ذى الجلال. إلى إنسان، إنسان مهما يكن نبيا رسولا، فإنه هو الإنسان

ذو الحدود والقيود.

هذا الوحى، هذا الاتصال العجيب.. المعجز.. الذى لا يملك إلا الله أن يجعله واقعة تتحقق، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق.

أية طبيعة. طبيعة هذه النفس التى تتلقى ذلك الاتصال العلوى الكريم. أى جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذى يتصل بهذا الوحى، ويختلط بذلك العنصر، ويتسق مع طبيعته وفحواه؟

روح النبى – صلى الله عليه وسلم – روح هذا الإنسان، كيف كانت تحس بهذه الصلة وهذا التلقى؟ كيف كانت تتفتح؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض؟ كيف كانت تجد الوجود فى هذه اللحظات العجيبة التى يتجلى فيها الله على الوجود، والتى تتجاوب جنباته كلها بكلمات الله.. أية رعاية، وأية مكرمة، والله العلى الكبير يتلطف فيعنى بهذه الخليقة الضئيلة المسماة بالإنسان، فيوحى إليها لإصلاح أمرها، وإنارة طريقها، ورد شاردها، وهى أهون عليه من البعوضة فما فوقها على الإنسان، حين تقاس إلى ملكه الواسع العريض: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]

"وكذلك" بمثل هذه الطريقة، وبمثل هذا الاتصال ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فالوحى تم بالطريقة المعهودة، ولم يكن أمرك بدعا،﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ

أَمْرِنَا﴾ فيه حياة يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها فى القلوب، وفى الواقع العملى المشهود: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزُّخرُف:٤٣]

ولقد حدث لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن جاءه الوحى مرات ومرات، وأحس بحدوثه ناس رأوا مظاهره رأى العين على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذه عائشة – رضى الله عنها – تشهد من هذه اللحظات العجيبة فى تاريخ البشرية، فتروى عن واحدة منها تقول: "قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام" قلت: وعليه السلام ورحمة الله ، قالت وهو يرى ما لا نرى" (أخرجه البخارى).

وهذا زيد بن ثابت– رضى الله عنه – يشهد مثل هذه اللحظة، وفخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على فخذه، وقد جاءه الوحى فثقلت حتى كادت ترض فخذه. وهؤلاء هم الصحابة– رضوان الله عليهم– فى مرات كثيرة يشهدون هذا الحادث، ويعرفونه فى وجه الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيدعونه للوحى حتى يسرى عنه، فيعود إليهم ويعودون إليه...

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فُصِّلَت:١٦]

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الشورى:٣]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى:٧]

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى:١٣]

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ [النجم:١٥]

مع قلب محمد – صلى الله عليه وسلم – يتلقى من الملأ الأعلى، يسمع ويرى، ويحفظ ما وعى.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:٤] يبلغ ما يوحى إليه صادقا أمينا، هذا الوحي معروف حامله مستيقن طريقه، مشهودة رحلته، رآه الرسول – صلى الله عليه وسلم – رأى العين والقلب.

وجبريل عليه السلام – هو الذى علم النبى ما بلغه إلى الناس، وقد رآه محمد – صلى الله عليه وسلم – وكان ذلك فى مبدأ الوحى، حين رآه على صورته التى خلقه الله عليها، يسد الأفق بخلقه الهائل. ثم دنا منه فتولى نازلا مقتربا إليه، فكان أقرب ما يكون منه، فأوحى إلى عبد الله ما أوحى، وهى حال لا يتأتى معها كذب فى الرؤية. وليست هذه هى المرة الوحيدة التى رآه فيها على صورته، فقد تكررت مرة أخرى، فكان ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج، فقد دنا منه، وهو على هيئته التى خلقه الله بها مرة أخرى" عند سدرة المنتهى، حيث وقف هو، وصعد محمد – صلى الله عليه وسلم – درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى، وكله غيب من غيب الله، أطلع عليه عبده المصطفى..

وكله أمر فوق طاقة البشر أن يدرك كيفيته، فلا يدركها الإنسان إلا بمشيئة من خالقه، وخالق الملائكة، العليم بخصائص الإنسان، وخصائص الملائكة، وكان ذلك كله حقا يقينا.

فالأمر إذن – أمر الوحى – أمر عيان مشهود، ورؤية محققة، ويقين جازم، واتصال مباشر، ومعرفة مؤكدة، وصحبة محسوسة، ورحلة واقعة بكل تفصيلاتها.

وعلى هذا اليقين تقوم دعوة محمد – صلى الله عليه وسلم – الذى تنكر عليه الكافرون وكذبوه، وتشككوا فى صدق الوحى إليه، وهو الذى كانوا يعرفونه، وخابروه، وما هو بغريب عن قومه حتى يجهلوه، وربه يصدقه

ويقسم على صدقه، ويقص على الناس كيف أوحى إليه، وفى أى الظروف، وعلى يد من، وكيف لاقاه، وأين رآه.

إنه وحى من الله، وتبليغه للناس أمر من الله كذلك، ولو شاء الله ألا يتلوه على الناس ما تلاه، ولم يحدثهم بشئ من هذا القرآن من قبل لأنه لم يكن قد أوحى إليه...

وليس الرسول موكلا بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقا، إنما هو مبلغ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم، وإلى تبعاتهم وإلى قدر الله بهم فى النهاية..

والله يبلغ رسوله – صلى الله عليه وسلم – باتباع ما أمر به، والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بها قدره وقضاه: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾ [يونس:١٠٩]

ولا يضيق صدرك يا محمد – بالرسالة – فهم لا يعرفون طبيعتها ووظيفتها، ولا يحملك هذا الضيق على أن تترك بعض ما أنزل إليك فلا تبلغه لهم.

كلا.. لن تترك بعض ما يوحى إليك، ولن يضيق به صدرك من قولهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ

عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ [هود:١٢]

فهو الموكل بهم، يصرفهم كيف يشاء وفق سنته، ويحاسبهم بعد ذلك على ما يكسبون، ولست أنت موكلا بكفرهم أو إيمانهم، إنما أنت نذير.

لقد استنكر الناس حقيقة الوحى منذ كانت الرسل. لقد كان السؤال الدائم الذى قوبل به كل رسول: أبعث الله بشرا رسولا. فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله، وأن يتصل الله به عن طريق الوحى. فيكلفه هداية الناس.

ومن تكريم الله للبشر أن يكون أهلا لحمل رسالته، وأن يختار من بين أفراده من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ [يونس:٢]

إنذار الناس بعاقبة المخالفة، وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة، خلاصة الوحى، فهذا هو الإنذار والتبشير.

والإنذار للناس جميعا، والبشرى للذين آمنوا. وحكمة الله واضحة فى الإيحاء إلى رجل منهم، رجل يعرفهم ويعرفونه، يطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه، أما حكمته فى إرسال الرسل فهى أوضح، والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر، وعقله هو أداته للتمييز.

لقد كان يختلط عندهم الوحى بالسحر، لاختلاط الدين بالسحر فى الوثنيات كلها، ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله، فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس:٢]، وأولى لهم لو كانوا يتدبرون أن يقولوا نبى يوحى إليه لأن ما ينطق به معجز. فالسحر لا يتضمن من الحقائق الكونية الكبرى، ومن منهج الحياة والحركة ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راق.

وقد طلب الكفار تبديل القرآن: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ [يونس:١٥]

وكان المشركون لا يكفون عن طلب الخوارق من الرسل. وهنا يطلبون من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شيئا مما يحكى بعض أقوالهم الدالة على جهلهم بحقيقة الرسالة، وطبيعة الرسول ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ ﴾ [الأعراف:٢٠٣]

فلولا ألححت على ربك حتى ينزلها، أو هلا فعلتها أنت من نفسك – ألست نبيا؟

إنهم لم يكونوا يدركون طبيعة الرسول ووظيفته. كذلك لم يكونوا يعرفون أدبه مع ربه، وأنه يتلقى منه ما يعطيه – شأنه شأن بقية الرسل السابقين ولا يقدم بين يدى ربه ولا يقترح عليه– ولا يأتى كذلك الشيء من عند نفسه.. والله يأمره أن يبين لهم: "قل إنما اتبع ما يوحى إلى من ربى" فلا أقترح ولا أبتدع، ولا أملك إلا ما يوحيه إلى ربى، ولا آتى إلا ما يأمرنى به: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٣]

إن هذا القرآن بصائر تهدى، ورحمة تفيض لمن يؤمن به، ويغنم هذا الخير العميم، وصدق الله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٣]

هذا هو الوحى الذى نزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – وبلغه ما أمره به الله ليبلغ الناس، ويهديهم بما أوحى إليه... وتلك حقيقة راسخة أثبتها القرآن الكريم، وهى دليل على ما أوحى به النبيون السابقون، وما تلقوه من الملأ الأعلى ليبشروا أقوامهم بالصراط المستقيم، ويخرجوهم من الضلال إلى النور..

هكذا قضت سنة الله تعالى أن يختار من اصطفاهم ليكونوا رسله إلى الأقوام فيوحى إليهم بما يكفل للبشرية صلاح أمورها، وكان خطاب الله لهم مكرمة وفضلا اختص به هؤلاء الصفوة من الرسل والأنبياء الذين

تتحدث عنهم الدراسة فيما بعد، والذين تناولهم البحث حول مخاطبة الله والتقرب منه، وكذلك حب الله لهم وتفضيلهم على غيرهم من الخلق، فكان فى الدراسة ما يكشف عن هذه الحوارات الإلهية، والكلام بين الله وبين الذين اصطفى.

ميكانيكية الزمن

إن عمر الكون – كما تقول الإحصاءات- أربعة ونصف مليار سنة، وعمر الخليقة على الأرض مليار سنة، وأن الله استخلف آدم على الأرض ليقوم بإعمارها، ووجوده عليه السلام طارئ على الكون، وأن الكون موجود قبل آدم عليه السلام، فليس هو الذى خلق الكون، ومن ثم لا يمكن لإنسان أن يدعى أنه خلق، وهو طارئ على الأرض، والإنسان كذلك لا يدعى أنه خلق نفسه أو خلق غيره، فالخالق هو الله، أعد الكون وخلق فيه النجوم والكواكب والشمس والقمر.. وأرسل رسله للأقوام يدعونهم إلى التوحيد، فمنهم من كلم ، ومنهم من اصطفى واختار وفضل وجعله من المقربين.

إنها قضية الخلق الأول التى لم يدع أحد بها، وقد آمن بها الإنسان بوسائله التى خلقها الله له: وسائل إدراك كالسمع والبصر والفؤاد، ووسائل أخرى لا يعلمها إلا الله الذى يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨]

وإذا كان فى الفؤاد شيء من الإيمان لا يأتى فيه شيء من الكفر، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾[الأحزاب:٤]

لأن من يؤمن لا يطع من لا يؤمن، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٨]

وقد أكدت الأبحاث العلمية الحديثة أن سرعة دوران الأرض حول نفسها قد انخفضت إلى سدس سرعتها عند نشأتها منذ ٤٦٠٠ مليون سنة تقريبا- كما يقول الدكتور عبد الجليل هويدى، رئيس قسم الجيولوجيا بكلية العلوم جامعة الأزهر من خلال دراسة حلقات النمو الدقيقة لنوع من الأصداف.

هذه الدراسة تفيد فى التساؤل الذى يدور حول تقارب الزمن فى هذا العصر، كما أنها تجيب على أعمار السابقين فى العصور السالفة، فقد لاحظ العلماء أن عدد أيام السنة قد يتناقص من ٤١٢ يوما قبل ٥٠٠ مليون سنة إلى ٣٨٥ يوما قبل ٢٢٥ مليون سنة، ثم ٣٧١ يوما قبل ٦٥ مليون سنة.. وهذا يرجع إلى زيادة عدد الساعات فى اليوم من ١١ ساعة قبل ١٥٠٠ مليون سنة، ثم أصبح عشرين ساعة قبل ٤٠٠ مليون سنة، حتى أصبح حوالى ٢٤ ساعة.

كما نقص عدد أيام الشهر القمرى من أكثر من واحد وثلاثين يوما قبل ٥٠٠ مليون سنة إلى حوالى ٢٩ يوما الآن، ويعتقد العلماء أن تباطؤ سرعة الارض قد يستمر حتى تتوقف الأرض تماما عن الدروان فى لحظة ما. وحينها يظل النهار دون غروب، والليل دون شروق. وطبقا لنظرية

حركة الكتلة الحرة للبندول فإن الأرض قد تعكس اتجاه دورانها إلى الاتجاه الآخر لتشرق الشمس من المغرب، ويحاول العلماء معرفة الميكانيكية التى تكونت بها الأرض قبل أكثر من ٤٦٠٠ مليون سنة. ويوضح الدكتور هويدى، أنه وضعت عدة احتمالات من أهمها النظرية السديمية التى تفترض أن جرما سماويا وراء انفصال الأرض عن الشمس واندفاعها فى المجموعة الشمسية، والأرض هى أحد كواكب المجموعة الشمسية، التى تشكل مدارا بيضاويا يبعد ١٥٠ مليون كيلو متر عن الشمس، وكانت الأرض كتلة ملتهبة أخذت تبرد تدريجيا حتى تكون لها غلاف صخرى قبل حوالى ٤٠٠٠ مليون سنة مضت، ثم نشأت عليها حياة أولية تتكون من خلية واحدة دون نواة قبل حوالى ٣٨٠٠ مليون سنة، ثم استمرت تلك الحياة وحيدة الخلية لثلاثة مليارات سنة لتتطور خلال الـ ٦٠٠ مليون سنة الأخيرة من عمر الأرض وتنشأ كائنات عديدة الخلايا لا فقارية وفقارية من الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات المتنوعة.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة – كما يقول الدكتور مسلم شلتوت، أستاذ أبحاث الفضاء والشمس بمركز الأرصاد الجيوفيزيائية – أن الأرض تبطئ من سرعة دورانها بنحو جزء من الثانية كل ١٠٠ سنة وكنتيجة طبيعية لهذا التباطؤ سيأتى يوم يصل فيه طول الليل والنهار أكثر من ١٠٠ ساعة.

ويرى الدكتور زين العابدين متولى، رئيس قسم الفضاء والفلك بكلية العلوم جامعة القاهرة: أن تأثير القوة التثاقلية للقمر يختلف من مكان لآخر

حسب طبوغرافية سطح الأرض، وكذلك ظاهرة المد والجذر، وهذان العاملان من أهم الكوابح التى تواجه حركة الأرض، واستدل العلماء على ذلك من خلال عدد حلقات النمو فى خشب الأشجار، ويتوقع اقتراب القمر من الأرض عندما يبلغ طول اليوم ٤٣ ساعة، وحينها يتعرض القمر لقوة شد مضادة على قطبيه، مما يعرضه للانشقاق.

ويرى العلماء أن الأرض حين تتوقف سيعقب ذلك فترة اضطراب فى حركتها قبل أن تبدأ بالدوران عكسيا. ومن ناحية أخرى يرى الدكتور شلتوت أن القمر يحقق انضباطا لحركة الأرض، ولولا وجوده لزادت سرعة دوران الأرض وبالتالى تزيد سرعة دوران الكرة السائلة الموجودة فى مركز الأرض، وتتغير بنية الغلاف الجوى، وقوة المجال المغناطيسى له، وهذا يؤدى إلى نتائج سلبية للعديد من المخلوقات التى تستخدم هذا المجال المغناطيسى مثل بعض البكتريا والطيور وسلاحف البحر والأسماك المهاجرة مثل السلمون.

ولعلنا من خلال هذه الدراسات والأبحاث ندرك أحوال العصور السابقة فى معيشة الخلق، وأعمارهم التى تجاوز منها الألف عام، والذى يرجع بلا جدال إلى اختلاف الزمن وميكانيكيته من عصر لآخر، وعن تقارب الزمن: عن سعد بن سعيد الأنصارى، عن أنس بن مالك، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة. وتكون الساعة كالضرمة بالنار"

وفى حديث آخر أخرجه الشيخان عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله قال : "يتقارب الزمان ويقبض العلم وتظهر الفتن ويكثر الهرج.. قالوا وما الهرج؟ قال : القتل". والدلالة العلمية لهذين الحديثين يوضحهما الدكتور أحمد شوقى إبراهيم، عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- فى موسوعته الصادرة عن نهضة مصر – قائلا: توصل العلماء لحقائق كونية مدهشة منها: أن الشمس ستمر بعد ملايين السنين بحالة من التكدس الذرى لتتحول فى النهاية إلى شمس قزمية، وتزداد كثافتها جدا ليزداد انجذاب الأرض نحوها، وتتسارع فى دورانها حول الشمس، وتصير السنة على الأرض كالشهر ويصير الشهر كالأسبوع، والأسبوع كاليوم، وهكذا أحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هى الحق والصدق قالها بوحى من الله تبارك وتعالى لم يدرك الناس معناها العلمى إلا فى عصرنا الحاضر.

وأما الزمن فى العالم الآخر الذي توضحه الآية الكريمة: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج:٤]

فقال الصحابة للرسول – عليه الصلاة والسلام – ما أطول فلك اليوم، فقال : "والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة فى الدنيا".

وفى العالم الآخر يتوقف الزمن، ونكون هناك فى حالة اللا زمن، وذلك كما قال رسول الله عندما سأله الناس عن الساعة فأشار إلى أصغرهم، وقال أن يعبش هذا لا يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم، وأشار إلى تلك

الحقيقة – أن الآخرة لا زمن فيها– الحديث الشريف: من يدخل الجنة ينعم لا ييأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.

إضافة إلى أن أى إنسان عندما يبعث لن يشعر بكل الآلاف من السنين التى مرت عليه فى قبره، لأنه دخل فى اللا زمن، لذلك عندما يبعث حيا يقول: (إنما غفوت غفوة) ويصعب على الإنسان الذى تتركب كل خلاياه فى الزمن أن يتخيل حياة بلا زمن.

عندما يتحدث القرآن عن وحدة الزمن فى كثير من الآيات، نجد سبحانه يذكر أحيانا أن السماوات والأرض قد خلقت فى ستة أيام، ولكنه لم يقل مما تعدون، مثلما قال عن يوم الحساب مقارنا بالزمن الأرضى وهو خمسون ألف سنة، فالمدة التى يقضيها المؤمن والكافر فى هذا اليوم العصيب هى نفس المدة ، ولكن الإحساس بها، وتقدير طولها وقصرها يختلف بينهما اختلافا شديدا، فالمؤمن يراه يوما قريبا قصير المدة، أما الكافر فيثقل عليه ثقلا شديدا، ويستطيل ذلك اليوم لشدته وهوله.

فاليوم الذى مقداره ألف سنة، أو خمسين ألف سنة، وكل ما جاء بخصوص أعمار السابقين كآدم ونوح وغيرهما مما يعد بالمئات أو الآلاف، إنما هو تصوير للأمر كما نرصده نحن البشر كمخلوقين نخضعم لمفاهيم الزمن، الزمن الذى يمر كسيال ممتد، أو نهر جار يتغير ماؤه كل لحظة ، أما الوجود الإلهى الأزلى الأبدى الذى لا يحيط به المكان، ولا يحده الزمان، فوجود آخر لا يخضع فيه الخالق للقوانين التى خلقها، تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا...

العروبة:

العروبة قومية مفتوحة تقبل الانتماء إليها فى كل وقت، فكل من يشاء يمكنه أن يستعرب وذلك بأن يتخذ العربية لسان أى لغة وثقافة.

الإنسان العربى، ليس كالحصان العربى له شكل مميز وصفات وراثية محددة، بل نجد بين العرب الأسود والأسمر والأصفر والأبيض، والطويل والقصير... وهكذا.

وقد روى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، حينما سمع بأن أحدهم يعير صاحبه بأنه ليس عربيا غضب غضبا شديدا، وقال: ليس العربية من أحدكم بأب أو أم.. إلا إنما العربية لسان.. إلا إنما العربية لسان.. واللسان هنا بمعنى اللغة والثقافة التى تشمل الفكر والخلق والسلوك.

ومعروف منذ القدم أن الإنسان يرث صفاته من والديه، فمن غير المعقول أن يزعم أحد بأنه فى الوقت الذى ساد فيه نظام الرق، وكانت الإيماء بألوانهم وأجناسهم المختلفة تملأ البيوت، وتنجب الأبناء أن يزعم بنقاء الدم فى أى مجتمع.

والذين يقولون بأن العروبة دم يجهلون أنهم بذلك يخرجون رسول الله صلى الله وسلم، وجل صحابته، والخلفاء الراشدين من العروبة لأنهم كانوا من قريش، وقريش هى من نسل سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليهما السلام الذى جاء من شرق نهر الفرات، ولم يقل أحد بأن إبراهيم عليه

السلام كان عربيا، وإلا فبنوا إسرائيل عرب. وكانت العرب تسمى قريشا بالعرب المستعربة، ولكن لم ينكر أحد على قريش عروبتها، بل كانت هى فخر العرب حتى شاع فى ذهن الأجيال الأولى أن الخلافة الإسلامية هى حكر على قريش تعظيما لها. وقريش هى من نسل إسماعيل الذى أتى أبوه من شرق الفرات ومن نسل هاجر التى جاءت من مصر. ولكن إسماعيل عليه السلام اتخذ العربية لسانا وثقافة فأصبح هو نسله قلب العروبة. وقد ذكر القرطبى بأن أهل التبت فى الصين هم من نسل جيش عربى استقر هناك، واستدل على ذلك باختلاف هيئتهم عن أهل الصين؛ كما أكدت الأبحاث التاريخية أن كثيرا من القبائل الإفريقية هى من أصول عربية ارتحلت قديما إلى أفريقيا. وليس من المعقول اليوم أن نقول بأن سيبويه أو الإمام أبا حنيفة أو الإمام البخارى أو صلاح الدين الأيوبى ليسوا عربا. فصلاح الدين الأيوبى به صد الله عن المسلمين كارثة الحروب الصليبية. وسيبويه أشهر واضع القواعد للغة العربية، والبخارى أكبر محقق لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو حنيفة، من أكبر أئمة الفقه الإسلامى، بل إن من صد هجمة المغول التى كادت تقضى على الأمة هم من المماليك الذين حكموا مصر والشام، وهذا لا يمنع من أنه كانت هناك دائما دعوات عصبية جاهلية يرفعها أناس لا عقل لهم ولا دين ليميزوا أنفسهم عن الآخرين. ولكن هذه النزعات حاربها الإسلام منذ مجيئه. ولو كانت العروبة مسألة عرقية، فإن شمال أفريقيا ليسوا عربا، ولكن لم يقل أحد بذلك لأن هذه الشعوب كلها قد استعربت، أى اتخذت العربية لسانا وثقافة،

فصارت عربا. وكما أضبحت لقريش المستعربة أكثر عروبة من العرب العاربة، أصبحت كل هذه الشعوب المستعربة عربا أقحاحا، ولو اتخذت إيران أو تركيا أو أى بلد آخر من العربية لسانا وثقافة لكانوا عربا مثل المصريين أو الليبيين أو المغاربة أو غيرهم.

ونحن نتكلم عن العروبة والقومية العربية يجب أن نعى أن الذي حفظ العروبة لسانا أى لغة وثقافة هو الإسلام، فلو لم ينزل القرآن بلسان عربى مبين لكانت العربية اليوم لغة تاريخية، كالآرامية أو القبطية أو العبرية، فالإسلام هو الذى أسس الثقافة العربية، وحفظ لغة العرب.

والقرآن الذى يتلى صباح مساء هو الذى حفظ للأمة العربية وحدتها الثقافية، فلولاه لرأينا الجزائر، بل والمغرب كله اليوم يتحدث الفرنسية، ولولاه لتباعدت اللهجات العربية حتى عجز من فى المغرب عن فهم من فى المشرق.

وكما حفظ الإسلام اللغة العربية، فإنه قام ببناء ثقافة عربية شاملة تتمثل فى التاريخ الإسلامى، والفقه الإسلامى، وكافة العلوم الإسلامية من فلسفة إلى تصوف، ومن علوم القرآن إلى علوم الحديث، والآداب العربية شعرا ونثرا، والعلوم المستحدثة إلى غير ذلك مما يشكل التراث الإسلامى، حيث أصبحت الثقافة العربية هى الثقافة الإسلامية.

وحينما نتحدث عن الثقافة فإننا نعنى بها الثقافة بمعناها الأشمل الذى يشمل الفكر والسلوك، بمعنى أنها ليست كتبا تقرأ، وعلما يدرس، بل

هى قيم وتنشئة وتربية وسلوك. فمن ثقافة العرب إكرام الضيف. ومن ثقافة العرب الوفاء بالعهد، والصدق فى القول، والسخاء فى العطاء، والترفع عن الصغائر والشجاعة والكرم وحفظ العهود، ولو كانت الثقافة تعنى مجرد لغة تدرس أو كتبا تقرأ لأصبح المستشرقون عربا، ولكن الثقافة العربية هى مجموعة قيم وعادات وتقاليد وأخلاق تميز وتحدد سلوك المجتمع، وسلوك الفرد طوال لحظات حياته، أى منذ أن يستيقظ حتى منامه، وحتى طريقة نومه واستيقاظه. فالثقافة تشمل كل سلوك الفرد والمجتمع، لذلك فالعرب اليوم مشكلتهم الأولى هى مشكلة ثقافية، أى كيف يستعيد العرب ثقافتهم الأصلية التى أهلتهم فى الماضى لأن يسودوا، فهم فى حاجة ماسة أن يقوموا بتصفية تراثهم وثقافتهم من كثير من الأفكار الموروثة والدخيلة التى تعتبر أفكارا معيقة لانطلاقهم..

وحيث إن الإسلام هو الوعاء الثقافى للعرب، لذلك لابد أن يتجه المفكرون العرب إلى تجديد الفكر الإسلامى، وتنشيطه وتنقيته، ليعود كما كان ثقافة عالمية مبدعة، ولابد للمفكرين العرب أن يعوا ذلك، وأن يدركوا أن الإسلام ليس حكرا على جماعات إسلامية، ربما يكون بعضها قد وجد فيه ملجأ لأزمات نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية، بل الإسلام هو قضية مستقبل هذه الأمة العربية لأنه هو ثقافتهم وتاريخهم وحصاد فكر الآباء والأجداد، وأن الابتعاد عنه هو قطع لجذورنا التاريخية، وضياع لمستقبلنا، وأن المهمة العظمى للعقل العربى اليوم هى التجديد الثقافى، أى تجديد الفكر الإسلامى، فالدعوة للمفكرين العرب بأن ينشطوا لتجديد الفكر

الإسلامى. فالإسلام ليس حكرا على أحد، بل هو تراثنا وثقافة الآباء الذين ازدهرت أيامهم به..

الإسلام الحقيقى هو عدل وحق وحرية وسلام، سلام بين المرء ونفسه، وبينه وبين جاره وأهله، وكل من حوله، ويجب ألا يهمل الإسلام ممارسات التطبيق بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابتداء من حكم أبى بكر الصديق – رضى الله عنه– وحتى اليوم يأخذ منهم ويرد، ويظل الحق والعدل هما الهدف الأسمى لكل مفكر يتصدى للإصلاح اليوم. بذلك ينشط العقل العربى، ويستعيد قدرته على الإبداع.

إن العروبة هى لسان أى لغة وثقافة، وأن من أراد للعروبة خيرا فعليه أن يعيد للغة العربية حضورها، وأن يعيد للثقافة الإسلامية نقاءها وصفاءها. وأن تجديد العقل العربى لا يتم إلا بتجديد ثقافتنا الإسلامية. فالإسلام بالنسبة للعرب ليس دينا للغالبية العظمى فحسب. بل هو هوية للأمة العربية كلها..

الحوار

الحوار فى اللغة: يعنى المراجعة فى الكلام والأفكار.

حار: راجع من حار يحور، حوارا، محاورة.

وعبر القرآن عن الحوار بالجدل أيضا، ومما يلحق بالحوار المناقشة والمراجعة والمفاوضة.

يقول الزمخشرى فى أساس البلاغة: "حاورته راجعته الكلام وهو حسن الحوار، فما رد على محوره، وما أحار جوابا، أى ما رجع، وكلمته فما رد على محوره" (ط دار المعرفة ص١٧٤).

وفى لسان العرب: حور بمعنى الرجوع عن الشيء، أو إلى الشيء، والحور النقصان بعد الزيادة لأنه رجوع.

من حال إلى حال- والمحاورة المجاوبة (ابن منظور ط دار صادر ص ٢١٧ -٢١٨) والجدل يستعمل بخاصة فى مباحث يقصد بها إيجاب الحجة على الخصم من حيث ألا يقوى، ومن حيث لا يقدر أن يدفع.

ومن آداب الحوار عدم الغضب والانفعال المبعدان عن الحق والصواب الذى يظهره الله سبحانه، فإن الحق أجل من أن يبحث عنه بوسائل الباطل، وأن يُنتصر له بالتحدى.

فما من نبى من الأنبياء إلا أمره الله تعالى أن يقول للناس حسنا، وأن يظهر له الحق.

فأنبياء الله ورسله مبلغون عن الله لعباد الله، اختارهم الله تعالى واصطفاهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

والحوار يدور بين طرفين على الأقل، ولابد أن يكون الحوار حول موضوع معين، والحوار ضرورة شرعية لأن به يمكن أن تبلغ الدعوة إلى الغير، ومن خلاله يمكن أن يتعرف الآخر على دينه.

وبالحوار ينشط الذهن، ويتفتق العقل، وتترقى الملكات والأذواق، ويتسع مدى التفكير، ويكون الإبداع والترقى العقلى والوجدانى والروحى.

وبالحوار نبنى الثقة، ونسد فجوات من العداء والجفاء والشحناء.

والحوار بين اثنين يسمى جدلا، والجدل يريد أن يثبت الحق، مأخوذ من الجدل وهو الفتل.

والجدل المراد منه تقوية الحقيقة، الجدل فى الله وجودا، فيمكن يبلغ عن الله تشريعا. جدل يعلم – كتاب – قضية مجزوم بها، وواثقة عليها دليل..

من الثابت أن الحركة العلمية المزدهرة قد بلغت ذورتها فى المجتمع العلمى الإسلامى، إبان العصر العباسى الثانى، وقد اتخذت هذه الحركة عدة صور مميزة لها من نقل، وترجمة، وتنقيح وتعليم وتأليف وابتكار، وكان من أبرز صورها أيضا انتشار مجالس التعليم فى معظم أرجاء العالم الإسلامى آنذاك.

وقد كثرت الكتابات العربية والغربية التى تناولت هذه الفترة من

تاريخ العالم، فقلما تجد أى علم من علوم الحضارة العربية الإسلامية، لم يتم تناوله، سواء من الجانب العربى، أو الغربى، فهناك كتابات فى تاريخ الطب، والكيمياء، والفيزياء، والرياضيات والفلك، والفلسفة والمنطق، وعلم الكلام، وعلوم اللغة، والفقه، والحديث، والقراءات والتاريخ، والجغرافيا والاجتماع، وفنون القتال والفلاحة والرحلات... وغير ذلك.

وإذا كنا حاليا- على المستوى العربى- نحاول إعادة صياغة تاريخ العلم العربى فى عصور ازدهاره كثروة معرفية قومية يمكن أن تدفع بالأمة إلى الأمام، فإن جعبة العلوم العربية مازالت تحوى علوما "منسية" تنتظر من يكشف عنها من الباحثين الجادين المدققين.

الجدل هو معرفة بالقواعد من الحدود والآداب فى الاستدلال التى يتوصل بها إلى حفظ رأى أو هدمه سواء كان ذلك الرأى من الفقه أو غيره، وهو طريقان: الأول، خاص بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال. والثانى عام فى كل دليل يستدل به من أى علم كان. ويربط ابن خلدون معنى الجدل بالمناظرة بما لها من آداب يجب معرفتها والالتزام بها من قبل المتجادلين.

فيذهب إلى أن الجدال هو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ويرجع سبب وضع شروط ومبادئ معينة للمناظرة إلى أنه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج، ومنه ما يكون

صوابا، ومنه ما يكون خطأ. فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظرون عند حدودها فى الرد والقبول.

وهذا المعنى يرتبط بمعنى "علم الكلام" طبقا للفارابى، فالكلام يتضمن الجدل والمناظرة، وإن كان فى دائرة المسائل الاعتقادية، فهو "ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحددة التى صرح بها واضح الملة " وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل.

وفى عهد المأمون أصبح لفظ الكلام اصطلاحا فنيا يعنى "ناظر" أو "جادل". ويرجع علم الكلام برمته إلى أصول منطقية وجدلية استخدمها المتكلمون فى الدفاع عن الاعتقادات الإيمانية وتفسيرها أيضا. وبذلك كان ظهور علم الكلام سببا قويا ومباشرا فى انتشار مجالس الحوار والجدل والمناظرات فى المجتمع الإسلامى.

أما عن البدايات الأولى لعلم "الحوار" أو "الجدل" فإنها ترجع إلى العصر الأول للإسلام عندما أثار أعداء الدين الجديد خاصة اليهود بعض المشكلات مثل مشكلة القضاء والقدر، والجبر والاختيار، وحرية الإرادة الإنسانية. وكان اليهود – وهم على خلاف مع المسلمين- على دراية بالمنطق الأرسطى، الأمر الذى مكنهم من اتقان فن الجدل والحوار. وأمام هذا الوضع لم يجد المفكرون المسلمون إلا أن يتعلموا المنطق الأرسطى للرد على الخصوم بنفس منطقهم.

إذن تأثر فن (علم) الحوار والجدل الإسلامى بالمنطق اليونانى،

وانتشرت على أثر ذلك المناظرات فى العالم الإسلامى، بصورتها التى عرفت بها، وهى أن تعقد بين متناظرين، يعرض كل منهما آراءه وحججه على الطرف الآخر، وتنتهى بترجيح آراء أحدهما فى مجلس خاص أو عام.

وقد انتشرت المناظرات بصورة كبيرة مع بداية القرن الثالث الهجرى الذى يعد بمثابة البداية الحقيقية للنهضة العلمية التى عاشتها الأمة الإسلامية، فكانت مجالس المناظرات إحدى صور الحركة العلمية المزدهرة، والتى تمثلت فى نوعين من الدراسة، وما يتلعق بهما من علوم فرعية، نوع دينى يرتبط بالقرآن والحديث، ونوع دنيوى يرتبط بدراسة الطب وما يتعلق به، ولكل نوع منهج خاص فى البحث، فاعتمدت العلوم النقلية على الرواية وصحة السند، فى مقابل اعتماد العلوم العقلية كالطب والطبيعة والرياضيات على معقولية الحقائق واختبارها عن طريق المنطق أو التجربة، ومن الأسباب الأخرى التى ساعدت على إشعال جذوة المناظرات فى ذلك الوقت، تشجيع خلفاء بنى العباس، خاصة المأمون، الذى اشتهر بشغفه وحبه للعلوم ورعايته لأهله، هذا إلى جانب تشجيع معظم الوزراء والأمراء والولاة، وإغداقهم الأموال والهبات على العلماء، فانتشرت مجالس الحوار والمناظرات والجدل تبعا للشغف العلمى، وطمعا فى عطايا الخلفاء والأمراء، وإذا كان الخلفاء والأمراء يسهمون فى المناقشات ويشتركون فى الرأى، فإن العلماء قد استعدوا للمناظرة وتسلحوا لها رغبة فى الشهرة والحظوة.

ومع انتشار وازدهار مجالس المناظرات فى العالم الإسلامى، فإن من أهم آثارها الإيجابية أنها كانت سببا رئيسيا من أسباب الرقى العلمى، إذ أنها قد حفزت العلماء للبحث الطويل والدقيق، الأمر الذى انعكس على الحركة العلمية إجمالا، وهذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فمن المرجح أن معظم الاختلافات والنزاعات- والتى اتخذ بعضها صورا دموية- بين المذاهب والفرق الدينية قد ابتدأت بالجدل والنقاش حتى وإن كان بطريق غير مباشر..

الأصل فى الحضارة المتميزة أن تكون إنسانية تنأى عن التعصب والانغلاق، وتبحث عن منطقة الجدل والتلاقى مع الآخر قبولا أو حوارا، سعيا إلى الوصول إلى النموذج والمثال فى حركة الفكر أخذا وعطاء.

والأصل فى الحضارة العربية بشهادة أهلها وغيرهم من المستشرقين المعتدلين أنها أخذت وأعطت، وتجادلت وتفاعلت منذ قبلت الترجمة منها أو إليها، حتى كثر فيها دخيل اللغة، وتعددت فيها مشاركات علماء الدنيا من بخارى وسمرقند وخراسان وغيرها من شرق العالم الإسلامى وغربه على السواء- رفضت التعصب العرقى، فكان المعيار عروبة الثقافة لا عروبة المولد، وإلا فأين نضع الجاحظ وسيبويه والبخارى والفارابى والرازى والخوارزمى والإدريسى وغيرهم من شوامخ الفكر العلمى الإسلامى، ورواده الذين ملأوا الأرض علما وفكرا تحت مظلة الحضارة العربية. بصرف النظر عن أصولهم غير العربية. رفضت التعصب الدينى، فلم تعرف

حجرا على نصرانى أو يهودى، بل كثرت المرويات حول استعانة خلفاء الدولة الإسلامية برجال من كل الديانات دون تفريق أو طرد أو تمييز أو تحقير أو امتهان كرامة إذا تجاوزنا معاملة الموالى فى عصر بنى أمية بحكم تغليب المصالح السياسية العليا التى دفعت الأمويين إلى التعصب لأمويتهم ضد بقية العناصر العربية، فكان للتعصب أن يمتد وقتئذ ليشمل غير العرب.

قبلت الحضارة الإسلامية الآخر برحابة وعمق وسماحة جعلتها إنسانية بالمعنى المعمق لهذا الوصف حيث فتح فيها باب الاجتهاد والتفكير، فلم تحجر على عقل، ولم تعطل فكرا بقدر ما استوعبت وتقبلت من صيغ التعددية الفكرية التى جعلتها تعيش فى تصالح وسلام مع عطاء الثقافات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية القديمة.

يشهد التاريخ لهذه الحضارة بقدرتها على التعايش مع حضارات الأمم المفتوحة بما تميزت به من مرونة وعمق وتعددية، مما جعلها قابلة للذيوع والانتشار، ولعل هذا ما جعل لغتها قادرة على البقاء والاستمرار زمنا طويلا على عكس غيرها من اللغات القديمة التى ماتت وتركت امتدادها ماثلا فى صورة لغات حية (لا فى لغة واحدة).

هل كان الحوار بين الله وبين من كلمهم باللغة العربية؟ أم بلغة كل منهم فى عصره، أم للوحى لغة أخرى مشتركة يفهمها من يحاوره الله؟ وهل إجابة هذا السؤال توضح لنا اللغة التى سيحاسبنا الله بها يوم القيامة؟ أم

سيحاسب كل قوم بلغتهم ؟ أم أن هناك لغة مشتركة ستكون بين السائل والمسئول؟ تلك أمور لا تشغلنا ولا نفكر فيها، بل نؤمن بها لأنها غيب، وكل غيب لا تعارض فى الإيمان عليه.. وأن الكل سيعامل بلسانه، واللسان هنا المفروض أن يكون العربية.. لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين، وعلى الناس جميعا أن يقرأوا هذا القرآن بهذا اللسان العربى، وإن كانت بعض المدارس قد لجأت إلى ترجمة القرآن بحيث يستطيعون قراءته، إلا أن معناه يغيب عن الذين يترجمونه.. وهكذا يبقى السؤال مطروحا حول محاسبة الإنسان؟

لقد كان على بن أبى طالب آية من آيات الأدب فى الحوار، وكذلك عمر بن الخطاب – رضى الله عنهما – وسار على دربهم العلماء والأئمة، وقد كان الحوار عند أئمة المسلمين وعلمائهم معلما أصليا، وكانوا يناظرون وكأن على رءوسهم الطير، وللإمام الشافعى محاورات كثيرة فى مواقف عديدة.

ويدل أدب الحوار على رحابة الأفق، وسعة الصدر، وكان لكبار العلماء مجالس يحضرها العامة والخاصة، وتقام ندوات العلم والأدب فى البيوت والقصور (الصاحب بن عباد، وكافور الأخشيدى)، ومجالس العلماء (مجلس الأصمعى، وحماد الراوية.. والخليل بن أحمد مع سيبويه).

آداب الحوار:

يمثل الحوار شعاع الضوء نحو طريق التفاهم المشترك، كما أن الحوار يمثل أداة مهمة لتحقيق السلام الداخلى والاجتماعى، ويخفف من حدة الصراعات الإدارية والسياسية والاقتصادية.

وغنى عن الذكر أن الحوار بمهاراته وآدابه كان القناة الشرعية التى استخدمها الأنبياء والرسل فى تبليغ رسالتهم فلم يستخدموا قوة ولا عنفا لفرض آرائهم ومعتقداتهم، كما أن حضارات المجتمعات وتقدمها قد ارتبطت بالمساحة التى سمحت للحوار أن يسود فيها، وبالنظر لدوائر المجتمع المختلفة فإن الكثير منها تفتقد مهارات وآداب الحوار، بل ومفاهيمه الصحيحة مما يؤكد ضرورة التصدى لايضاحات وطرحها على مائدة البحث. وتبدو أهمية معرفة مهارات الحوار وآدابه فى أن بغيابه تختلف الرؤى ويظل كل فريق عبدا لرؤيته فلا يرى غيرها، ويسعى جاهدا لأن تسود دون أن يتعرف على ما لدى الآخرين، وتتركز أهمية تعلم مهارات الحوار وآدابه للأفراد فى فرق العمل المختلفة.

وللحوار أبعاد :

الإمداد بالمعارف.

الابتكار الدائم لأساليب وأفكار جديدة.

سيادة الفكر الجماعى وروح التواصل، ونبذ الاعتقادات الخاطئة.

ويسمى الحوار بالديالوج وهى كلمة إغريقية قديمة تعنى (من خلال الكلمة) والتى من خلالها يمكن الوصول إلى المعانى التى لا يمكن الوصول إليها بشكل فردى، حيث تظهر الآراء القائمة على الفهم والمعانى المشتركة فى صورة كشف إبداعى لها. فالحوار لا يهدف إلى تحقيق مكسب شخصى لأن الكل سوف يكسب إذا سار الحوار فى مساره الصحيح، حيث يكتسب الجميع الرؤية الثاقبة التى لا يمكن تحقيقها بشكل فردى. كما أن الحوار يساعد الجماعات المختلفة على اكتشاف الموضوعات الصعبة والمعقدة من خلال تعدد وجهات نظرهم، كما يقوم الأفراد بتوصيل افتراضاتهم بحرية بما يؤدى إلى اكتشاف حر يبرز خبرات وأفكار الأشخاص بدرجة تتعدى وجهات النظر الفردية.

وهناك فرق بين التفكير الذى هو نتاج عملية مستمرة والأفكار التى هى نتاج عملية الحوار والتى وإن كان ظاهرها فرديا، إلا أن جوهرها هو خلاصة الفكر الجماعى.

وقد يتنشأ صراع أثناء الحوار، ولكن علينا أن ندرك أنه صراع بين الأفكار وليس بين الأشخاص- فبمجرد أن يرى أطراف الحوار أن المشاركة بين أفكارهم عملية طبيعية فإنهم يفصلون أنفسهم عن أفكارهم، ويتخذون مواقف أقل سلبية نحو أفكارهم الفردية.

وأيضا له شروط:

تفصيل الفرضيات الخاصة بالمحاور.

ينظر للحوار على أنه بين محبين وليسوا متضادين، فى روح ودية تفسح صدرها للآخر، وتتقبل الأخذ والعطاء من أجل الاتفاق على الرأى، أو توافق الاتجاهات.. وجود عنصر رئيسى فى الحوار.

ولابد من أن ندرك الفرق بين الحوار والمناقشة، ففى المناقشة يتم تقديم عدة وجهات نظر والدفاع عنها لتحليل الموقف ككل ليتم إصدار القرارات عندما تكون هناك حاجة إلى ذلك، بل واتخاذ قرارات عملية بشأنها. أما فى الحوار فيتم كشف الموضوعات المعقدة والصعبة، لأن الحوار يبحث عن التنوع، ولا يهم فى الاتفاق إلا بقدر ما يهم كشف الجوانب الخفية للموضوع، ويكون نتاج الحوار الكشف عن خطوات جديدة تكون موضوعا للمناقشة بعد ذلك.

كما أن على الشخص المشارك أن يفصل نفسه عن منصبه، وأن يطرح أفكاره بلين ورفق، وأن يدافع عن وجهة نظره دون تعسف، ولكن بطريقة ودية، وتكون الصلاحية فى النهاية لوجهة النظر الأجدر بالأخذ.

وقد نجد إلى حد كبير أن المهارات التى تسمح بالحوار هى نفسها التى تجعل المناقشة مثمرة وهى مهارات الاستفسار والتفكير والتأمل. فإذا كان الحوار يقوم بصياغة رؤية فريدة عن تعلم المجموع، فإن مهارات التأمل والاستفسار قد تثبت أهميتها فى تحقيق هذه الرؤية، حيث إن الرؤى الشخصية هى أساس بناء الرؤية المشتركة، كذلك فإن مهارات التأمل والاستفسار هى أساس الحوار والمناقشة، فالحوار الذى يقوم على التأمل

والاستفسار يقوم بذاته ككيان مستقل ولتحدد توجهاته الظروف مهما تغيرت.

ويمثل الحوار الفعال إحدى الأدوات الرئيسية والمهمة للإدارة فى سعيها من أجل تطوير الاستراتيجية وتشكيل الرؤى التى فى حالة تغير دائم. فالحوار الفعال هو الذى يرتفع إلى مستوى الحدث أو المشكلة، ولا يبقى طويلا عن الفرضيات الثابتة وهذا يعنى عرض المشكلة المعقدة بطريقة واقعية لنراها بشكل مبسط، ونبحث لها عن حلول بسيطة، وذلك بأن يسعى كل فرد فى المجموعة المتحاورة إلى النظر إلى جزئية واحدة من المشكلة ، والحوار الفعال يعنى الحفاظ على طاقة الأفراد من الضياع، حيث يعمل الأفراد من خلاله بشكل جدى، وتتوجه جهودهم فى الحوار إلى تقدم نحو الهدف بتوافق الطاقات، وتوحد الاتجاهات.

ولتحقيق الحوار الناجح لابد من:

الأشخاص المتحاورة.

توضيح القواعد الأساسية للحوار عند بدء الحوار.

احترام قواعد الحوار وإجراءاته

طرح الموضوع الأساسى للحوار.

مع مراعاة ما يلى:

- جمع المعلومات قبل بدء الحوار.

- استخدام مرحلة التقديم أو التهيئة الأولية لتوضيح الرغبات بصورة علنية.
- الإجراءات الضرورية لضمان جودة الحوار:
- التهيئة والتمهيد للحوار.
- عرض وتحليل المشكلة أو الموضوع.
- رسم حدود الحوار والمناقشة.
- تسهيل الوصول إلى القرار أو الحل.
- البحث عن الآثار الناتجة عن القرار.
- **قواعد عامة:**
- الوصول إلى القرار دون استخدام أى مؤثر.
- عدم الاستسلام بسهولة.
- عدم المجادلة لمجرد فرض رأى، والإقناع بالمنطق والحجة والعقل.
- يمكن حل الخلافات بالحقائق.

إن الحوار الجاد والفعال قد أصبح بحق لغة العصر التي يجب أن نعتبرها منهاجا فى مجتمعاتنا فى جميع مناحى الحياة بداية من حوار الحضارات، وانتهاء بالحوارات الخاصة بين الأفراد من أجل تحقيق التقدم والرخاء، مع الأخذ فى الاعتبار اتباع مهارات وآداب الحوار والمناقشة بما

يوصلنا إلى توفير الجهد والطاقة، والوصول إلى توحيد الرؤى والغايات..

كان الحوار بين الله وبين من كلمهم هادئا هادفا، وكانت أدواته قوية، ولم تسيطر الرؤية الأحادية المغلقة عليه، على عكس ما يدور بيننا من حوار فى عالمنا الذى نعيشه، فنحن نفتقد أدنى قواعد الحوار، ولا نقبل النقد الموضوعى البناء.

وما أن يبدأ الحوار بيننا حتى يتحول إلى صراخ ومهاترة ورفض للرأى الآخر ومعاداته بالنفى حينا، وبالعدوان اللفظى أو المادى فى غالب الأحيان، ونشعر بجرح غائر عندما نتعرض للنقد، وتتسارع ثورة الغضب والانفعال.

إن السلوك الذى يقوم على الحوار، وينظر إلى من يحاوره على أنه شيء قائم بذاته، ينمى الشخصية، وينشط التطوير المرتبط بالقدرات المعرفية واللغوية والانفعالية وتفتح آفاقا رحبة للنمو من مختلف الجوانب.

والحوار يجعل من يحاوره معنيا بما يدور حوله، فاعلا ومؤثرا فيه، ومن ثم تنقل نتائج الحوار لمن يهمهم الأمر، وهنا يكون التحمل التدريجى للمسئولية، وتنمو الثقة بالنفس لدى المتلقى، فيتعود ضبط السلوك، وتبادل الأدوار، وينمى عنده قدرات التواصل ومهارات التبادل مع الآخرين، مما يمكنه من دخول أبواب الحياة من بابها الواسع، واثقا من نفسه متفائلا، نشطا فى دوره، وباحثا عن تحديد مكانته.. "فالحوار يولد العقول" هذه المقولة اليونانية القديمة تصبح أساسا مهما من أسس السلوك السوى..

الخطاب:

تشير دلالة (الخطاب) فى مختلف المعجمات العربية إلى الكلام، حيث استمدت هذه الدلالة من السياق الذى وردت فيه لفظة الخطاب فى القرآن الكريم، يقول تعالى :﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:٢٠]

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [النبأ:٣٧]

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان:٣٦]

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود:٣٧]

ويتبين فى ضوء التفاسير التى وضعها المفسرون القدامى والمحدثون للآيات القرآنية، أن المفهوم القرآنى للخطاب يحيل ذكره على الكلام. فبالكلام المؤثر المقنع، باعتباره خطابا تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم – من مجادلة الكفار، ونشر الدعوة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية، لتعم بعد ذلك أصقاع العالم.

ويورد الزمخشرى تفسيرا لفصل الخطاب بقوله: "إنه الكلام المبين

الدال على المقصود بلا التباس" وقيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل، أى أن يحكم بالبينة.

وهو يتجنب الإبهام والغموض واللبس، ويوسم بالبيان، وقد خص الآمدى الكلام بمعنى الخطاب، باعتبار الكلام كما عرفه ابن جنى، بأنه لفظ مستقل بنفسه لمعناه.

ويشمل الخطاب اللفظ والفحوى، إذ له وجهان، شكله الخارجى، ويمثله اللفظ، وداخلى وهو المفهوم، ويشمل مختلف التخصصات العلمية، منها الأدب..

ويتشكل نوع الخطاب، فالشعر ينجب الخطاب الشعرى، والسرد ينجب الخطاب السردى، والسياسة ينجب الخطاب السياسى، والإعلام ينجب الخطاب الإعلامى، والدين ينجب الخطاب الدينى، وهكذا..

ولا أشك فى أنه كثيرين من الناس يفهمون كلمة الخطاب بمعناها القديم الشائع الذى يدل على ما نوجهه للآخرين من حديث حتى يفهموا عنا، ويتجاوبوا معنا ويتعاطفوا، فلابد أن نختار لغة تستميلهم، وأفكارا تتناسب مع الذين نتجه إليهم بالكلام.

الخطاب بهذا المعنى هو مناسبة الكلام لمقتضى الحال، كما كان يقول البلاغيون، فالفكرة التى أشرحها لك أشرحها لغيرك، لكن اللغة تختلف باختلاف المقام، وتتغير بتغير المتلقين.

هذا العصر الذى نعيش فيه هو عصر العلم الذى نرجع إليه فى كل أمر من أمور حياتنا، أو أن هذا ما ينبغى أن نفعله، فنقرأ ونفهم ونناقش ونجرب ونحلل، ونقارن لنعرف الأسباب، ونتوقع النتائج، ونفسر ما يحدث فى الطبيعة والنفس، والجسم والمجتمع.

الخطاب مجرد شكل أو حامل، ثوب خارجى، آنية تتلون بلون العصر، دون أن يتغير شيء مما تحتويه ، وهذا هو الخطاب بمعناه الذى ورد فى المعاجم العربية القديمة. فالخطاب هو الكلام والحديث والمقال والخطبة.

وليس بعيدا عن هذه المعانى ما تدل عليه الكلمة فى اللغات الأوربية، فالخطاب فى اللغة الفرنسية يعنى الحديث، والمقال، والخطبة، والكلام المنطقى، والكلمة مشتقة من الفعل الذى يعنى الوعظ والمحاضرة والإطناب، والثرثرة، وهى كلها معان بلاغية تعتبر الخطاب مجرد كلام ناقل، أو حامل للفكرة التى يمكننا أن نعبر عنها بطرق مختلفة، أو نصوغها فى لغات متعددة، وهكذا يفهم التقليديون معنى التجديد، فالعلم القديم بالنسبة لهم هو العلم الجديد، والأفكار الموروثة هى الأفكار الصحيحة، يجب ألا تراجع، أو يعاد النظر فيها لنميز بين الحقيقة والوهم، أو بين الصواب والخطأ، وكل ما يمكن أن نصنعه هو أن نضعها فى لغة عصرية حتى يفهمها أهل هذا الزمن الأخير.

لم يكن القدماء يعتقدون أن العلم يتجدد، أو أن العالم يتقدم، اللهم إلا القلة النادرة المنسية، بل كانوا يعتقدون على العكس أن كل شيء يتقهقر،

وأن العصور القديمة هى العصور الذهبية، وأن التقدم إلى الأمام إيغال فى الخطأ، والبعد عن الخير والحق والجمال.

ألا ترى كيف كان الشعراء العرب يعتقدون أن الأوائل لم يتركوا للأواخر سبقا أو فضيلة، وأن هؤلاء الأواخر لا يملكون إلا تقليد أسلافهم الذين جاءوا فى أول الزمان فقطفوا زهرته، ونالوا حظوته، أما الأواخر فلم يدركوه إلا وهو شيخ فان.

وأنت ترى أن الزمن كان بالفعل يمر قرونا بعد قرون لا يجد فيها جديد، ولا تسقط عادة، ولا يتغير تقليد، اللهم إلا شيئا واحدا هو الذى كان يتغير، أو قل ينحط، وهو اللغة التى كان عليها فى كل الأحوال أن تنقل للأحفاد ميراث الأجداد، ومن هنا استقر فى الأذهان أن الخطاب كلام فحسب، وأن التجديد الذى يطرأ عليه لا يمس الفكرة ولا يغير إلا الألفاظ، وتلك هى العقيدة الراسخة التى توارثناها فأورثتنا هذا التخلف، وربما أغرتنا بأن نكون أكثر تخلفا من أنفسنا، وأن نمعن فى التراجع، ونطوى القرون القهقرى بظهورنا لنعيش مع أجدادنا كما يعيشون، ونلبس كما يلبسون، مخدوعين كما كانوا مخدوعين، ومقهورين كما كانوا مقهورين.

لكننا نفاجأ مع هذا بأن كل شيء فى العالم يتغير: العلم، والعمل، واللغة، والأفكار، والدول والأحزاب، والمصالح وموازين القوى. كل شيء يتغير لا بين قرن وقرن، ولا بين جيل وجيل كما كان يحدث من قبل، بل بين عشية وضحاها.

العالم الآن ليس هو العالم قبل ثلاث سنوات فقط، والقوانين التى تسرى على الآخرين تسرى علينا، فيتغير كل شيء حولنا، ويتغير كل شيء فينا، ولا يبقى إلا أن ندرك ذلك، فنعترف بأننا نتغير، وأننا يجب أن نتغير، فليس الجمود بطولة، وليس التحجر فضيلة، ونحن لا نخسر شيئا حين نتغير إذا تغيرنا بإرادتنا، وإذا اخترنا الصورة التى يجب أنه ننتقل إليها لنكون أكثر وعيا، وأكثر قوة، وأكثر فضيلة، لن نخسر إلا ضعفنا وعجزنا عن حل مشكلاتنا، وسد حاجاتنا واللحاق بالآخرين المتقدمين الذين سبقونا منذ قرون طويلة، ومازالوا يواصلون تقدمهم حتى لم نعد قادرين على أن نحسب المسافة الفاصلة بيننا وبينهم لأنها ليست مجرد زمن يمكن ضبطه وتقييده، وإنما هى شطحة هائلة خرجنا بها من المدار الذى يمضى فيه العالم حين انحبسنا فى أفكارنا ومسلماتنا وتحجرنا فيها، فلا بد من إعادة النظر من هذه الأفكار، وهذه المسلمات. لابد من تجديد الخطاب، أى لابد من تجديد الوعى.

فالخطاب هو الكلام الذى يحمل هدفا معينا، أو ينقل غرضا ما إلى الآخر ليقنعه به، ومن ثم يطلب منه أن يكون واسطة بين من يلقنه هذا الكلام إلى غيره من نفس جنسه، أو من جنس آخر، حتى تتم الفائدة المرجوة من هذا النقل، وتحصل الغاية التى يبتغيها المتحدث إلى من اختاره فى التحدث معه، ومن ثم يكلمه فيما يريد.

وقد جاء ذكر الكلام فى القرآن الكريم فى كثير من الآيات منها:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [الشورى: ٥١]

﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء: ١٦٤]

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١١٨]

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٤]

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ٧٧]

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٤]

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [النمل: ٨٢]

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٣٧]

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ [البقرة: ١٢٤]

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ﴾ [النساء: ١٧١]

إن الحديث عن الكلام والحوارات التى دارت بين الله سبحانه وتعالى وبين من اختار من مخلوقاته غيب لا نبحث فى طريقة الكلام أو لغته أو كيفيته فهذا مما استأثر الله بعلمه، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر فى معرفة كنه هذا الكلام وطبيعته، وليس لنا أن نطلع على هذا الغيب، وبقدر ما سخر الله للإنسان من النواميس الكونية وعرفه بأسرارها، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب، فيما لا جدوى له فى معرفته. وما يزال الإنسان مثلا على الرغم من كل ما فتح له من الأسرار الكونية يجهل ما وراء اللحظة الحاضرة جهلا مطلقا، ولا يملك بأى أداة من أدوات المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظة ..

يقول الحسيون إن الذى يتكلم لابد أن يكون له لسان، فلا يستطيع أحد أن يتكلم إلا إذا كان له لسان، وبدون لسان لا يستطيع الكلام.. فهل لله لسان؟..

ولا يستطيع أحد أن يتحرك إلا إذا كان له أرجل يتحرك بها، فكيف إذا كان الله ينزل إلى السماء الدنيا؟ وهل يرى ويسمع إلا إذا كانت له عين يرى بها وأذن يسمع بها.. وهكذا كل الجوارح التى يعرفها الإنسان وخلقها الله له ليرى ويسمع ويتحرك إلى غير ذلك..

هكذا يقول الحسيون لله كل هكذا ولكن ليس كمثله شيء، ونحن نقول إن الله نور السماوات والأرض، وليس لنا أن نخوض فى مثل هذه التصورات، فالعقل البشرى لا يملك الوسيلة للوصول إلى شيء من هذا.. وكل جهد يبذل فى هذه التصورات هو جهد ضائع، ذاهب سدا، بلا ثمرة ولا جدوى..

وإذا كان العقل البشرى لم يوهب الوسيلة للإطلاع على هذا الغيب، فليس سبيله أن يتصور أو أن يمثل، فالمعرفة هنا ليست من طبيعة العقل، وليست فى طوق وسائله، ولا هى ضرورية فى شيء.. فلندع الغيب لصاحبه، وحسبنا ما يقص علينا بالقدر الذى يمكن لنا أن ندركه أو نفسره أو ندور حوله.

الوحى:

الوحى إعلام المتلكم السامع ولكن بطريقة خفية، فكل إعلام بطريقة خفية يسمى وحيا، وهو يقتضى موحيا وموحيا إليه وموحيا به. الحق يوحى لمن يشاء للملائكة، للرسل ، للحواريين، لأم موسى، للنمل... لمن يشاء من خلقه بطريقة خفية.

فالوحى لغة إعلام بخفاء من الله لغيره.. حيوان وطيور وجماد مثل الأرض، والشياطين يوحون، يوحى بعضهم إلى بعض، ولكن الوحى الشرعى هو من الله لنبى أرسله، وباقى الوحى إعلام لغوى- وحى لغوى- وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب.

وللحوار مقاصد وغايات، وهو قائم على قاعدة البيان والحجة، وعدم تحميل الكلام أكثر من طاقته، والإجابات تنهى الحوار، ويعنى ذلك الخروج من حال تساؤلات الحيرة إلى حال إجابات الوعى، حوار ناجح نافع يتحقق به ومنه المقصود، الأمور التى تجدد الحوار هى التى تتجدد، والشئون التى تتنوع وتتعدد وحادثات تحدث..

فى الإجابات الإلهية حقيقة مطلقة، وصواب دائم.. لا مقارنة بين الإجابة والسؤال، ولكن الأمر يكون بين ضرورات القيام بالسؤال الصحيح، وتقديم الإجابات البصيرة، فلا إجابة بلا سؤال، والسؤال يستدعى البحث عن الحقيقة، والحقيقة عند الله لا تحتاج لبحث، فتقدم

الإجابة فورا، لأنه يعلم السؤال والإجابة عنه سلفا.

قديكون السؤال الصحيح نصف الإجابة، فإن الإجابة الصائبة يمكن أن تكون مدخلا لسؤال جديد، لا اجترارالسؤال أو استهلاك القضايا.

الحوار هندسة قائمة على أساس متين، ورؤية بصيرة، وإجابات تحدد عناصر الوعى، ومداخل السعى.. خطاب إلى عالم الإنسان على وجه العموم فى إطار قيامه بالاستخلاف وعمران الحياة.

إن صفة إسلامى كانت ملحقة بشكل دائم بصفة إنسانى لتؤكد للعالمين أن هذا الرسول- صلى الله عليه وسلم – بما حمل من رسالة، أرسل رحمة للعالمين.

وهنا نقول: إن الكلام حينما يطلق نبحث فيه عن كل معنى يحفز، وكل لفظة تدفع، وكل قيمة ترفع، وكل أصول يجمع، ومن غير ذلك سنظل أسرى، فإن للغة عقلا ومنطقا يقوم على قاعدة من الاشتقاق، وأن الاشتقاق هو الذى حقق ثراء اللغة العربية- لغة القرآن الكريم – التى حفظها الله.

أوحى الله لرسوله- صلى الله عليه وسلم – لفظا ومعنى فى القرآن الكريم.. وأوحى إليه معنى فى الحديث الشريف..

الأحاديث النبوية اللفظ من الرسول، والمعانى من الحق..

التوراة والإنجيل مثل الأحاديث.

أوحى الله لموسى بمعانى الكتاب، ويبلغ لبنى إسرائيل لهدايتهم.

أوحى الله إلى السماء فقال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فُصِّلَت:١٢]

أوحى سبحانه وتعالى إلى الأرض فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة:١-٥]

كما أوحى تعالى إلى النحل فقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٩]

والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التى أودعها إياها الخالق، فهو لون من الوحى تعمل بمقتضاه. وهى تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر، سواء فى بناء خلاياها، أو فى تقسيم العمل بينها، أو فى طريقة إفرازها للعسل المصفى..

وهى تتخذ بيوتها حسب فطرتها فى الجبال والشجر ومما يعرشون، وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع فى فطرتها.

فكما أوحى الله إلى الرسل والأنبياء والصالحين ممن اختارهم، ها هو

سبحانه يوحى إلى النحل.. وللنحل لغة، كما للنمل لغة، ولكننا لا نعرفها وإن كان العلماء يحاولون أن يجدوا تفسيرا للغتهم، وأيا ما يكون من شأن هذه اللغة، فقد أوحى الله إلى النحل، وفهم النحل هذا الإعلام الذى فيه إخفاء.

فهم النحل ما أوحى الله به إليهم ففعلوا واتخذوا بكل ما أعلمهم به الله، وبما أوحى به إليهم حتى كان هذا الإبداع فى حياة النحل وفى بيوتهم، وتنقلهم هنا وهناك، وإخراجهم هذا الشراب الذى فيه شفاء للناس على اختلاف ألوانه.

وهذا من نعم الله على خلقه، حيث لم يترك شيئا إلا سخره فى خدمة الإنسان، وفى تحقيق أسعد حياة له فى الدنيا ما دام على طريق الحق..

إنزال الماء من السماء، وإخراج اللبن من بين فرث ودم، واستخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب. والعسل من بطون النحل.. إنها كلها أشربة تخرج من أجسام مخالفة لها فى شكلها.. كل شيء فى الكون مسخر لخدمة الإنسان.

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم- هى لغاتها ومنطقها- فيما بينها. والله سبحانه خالق هذه العوالم، ويعرف بأى لغة هى تتفاهم، وإنه لأيسر شيء وأهون شيء على الله أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات، هبة لدنية منه بلا محاولة ولا اجتهاد، ومن ثم فالله يعلم لغة من خلق من بشر أو طير أو حيوان أو جماد، وإن هى إلا إزاحة

الحواجز للنوع التى أقامها الله بين الأنواع، وهو خالق هذه الأنواع. من أجل ذلك أذاع سليمان- عليه السلام – فى الناس تحدثا بنعمة الله، وإظهارا لفضله بأنه تعلم منطق الطير، وما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله، وكذلك لا يؤتى أحدا من كل شيء بهذا التعميم- إلا الله.

وهكذا فالله عليم بمن يوحى إليهم، وحكمته بالغة فى هذا الإيحاء، وهذا الإعلام.

الوحى والشريعة:

تتكون كل ديانة فى جوهرها من "وحى" وتفسير لذلك الوحى. والوحى ثابت لا يتغير، لأنه يمثل التعبير الفعلى عن الإرادة الإلهية، ويتضمن الحقائق الخالدة. أما التفسير فهو ما يثيره الوحى من رد فعل فى العقل الإنسانى. ونظرا لأن هذا العقل داخل فى الزمان فهو مقيد به. فالوحى يبقى على مر القرون دون أن يخضع لأى تغيير، فى حين أن التفسير يتعرض على مر العصور لضغوط القوى الداخلية والخارجية، تلك الضغوط التى تعطى الجماعة شخصيتها فى كل فترة من فترات التاريخ.. وقد بدأ الفكر الإسلامى من الوحى الدينى، وتأثر بعوامل شتى، ثم أخذ يشق طريقه بقواه الخاصة.

وقد خلق الإنسان ليسبح بحمد الله وحده، ويعبد خالقه ويعظمه ويطيعه. ووضع الله الإنسان فى مركز الكون حتى يكون له عليه سلطان، ولكى يكون سيده أو بالأحرى المتصرف به. والإنسان المسلم فى حقيقته مسلم لإرادة الله، والذى يميزه هو على التحديد هيمنة الله الكاملة على جميع سلوكه، وهذا يستلزم أن تكون كل حياته حتى أدق ما فيها مرتبطة بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦]، فالمسلم إنسان يعيش تحت نظر الله، والجماعة الإسلامية تشكل مجتمعا تحتل فيه فكرة الله مكانة مركزية.

إن الشريعة الإسلامية هى أبرز مظهر يميز أسلوب الحياة الإسلامية، وهى لب الإسلام ولبابه، وهى جملة الأوامر الإلهية التى تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها، وهى تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية، كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية (بالمعنى المحدود) وعلى تفاصيل آداب الطهارة وصور التحية وآداب الأكل وعيادة المرضى.

ظهر التشريع الإسلامى إلى الوجود ونما فى ضوء خلفية سياسية وإدارية متنوعة الصور، فقد كان عصر النبى عصرا فريدا فى بابه من هذا الوجه، وتلاه عصر حافل بالحركة والتفاعل، هو عصر الخلفاء الراشدين فى المدينة، ثم جاء حكم بنى أمية الذين كانوا أول أسرة حاكمة فى الإسلام، فكان يمثل من وجوه كثيرة ذروة ما انتهت إليه النزعات الملازمة لطبيعة تكوين الجماعة الإسلامية فى عهد الرسول. وتم أيام حكم بنى أمية إنشاء الإطار العام لمجتمع عربى إسلامى جديد..

وبالرغم من أن التشريع الإسلامى قانون دينى فإنه من حيث الجوهر لا يعارض العقل بأى وجه من الوجوه. فهو لم ينشأ من عملية وحى متواصل فوق العقل، وإنما نشأ التشريع الإسلامى من منهج عقلانى فى فهم النصوص وتفسيرها، ومن هنا اكتسب مظهرا عقليا مدرسيا، ولكن على حين أن القانون الإسلامى يبدو كنظام عقلانى على أساس اعتبارات خاصة بالمضمون، فإن صبغته القانونية الشكلية لم تتطور إلا قليلا.

والتشريع الإسلامى ذو منهج منظم، وهو يؤلف مذهبا متماسكا،

ونظمه المتعددة مترابطة بعضها مع بعض..

الإسلام دين الوسطية والاعتدال وحسن السريرة، والنقاء، والتنزه عن الحقد والحسد، وتقديس القيم، وكلها أسباب قبول العمل الصالح عند الله.

المؤمن سهل يألف ويؤلف ويسامح ويعطى ويحب ويتعفف، ويصدق ولا ينافق، دستوره العمل واتقانه، إلى جانب فضيلة الصدق والبعد عن الكذب، فبدون الصدق لا يكون الإنسان سويا، وقد فتشت عن هذه الفضيلة، وطرقت كل باب ، وصادفت كل إنسان حيث تكون الحاجة، فلم أرها فى أحد، ولم أجدها إلا فيما ندر.

ويدعو المنهج الإسلامى إلى العلم، وهو يطلب ولو فى الصين، فالبحث عنه وطلبه فريضة من المهد إلى اللحد، وليس العلم هو العلم الدينى فقط بل العلوم كلها بفروعها وأنواعها كل فيما يخصه حتى يتكون لدينا متخصصون فى كل العلوم بشتى أنواعها فكلها منظومة واحدة، كما يدعو المنهج إلى الحج والعمرة لمن استطاع على أن يعمل بفضائلهما، وإلا فقد خسر الخسران المبين.

إننا لو نظرنا إلى خطابنا الدينى وما يدعو إليه، نجده فى حاجة ماسة إلى نظرة عميقة كى نقدمه بها، وأن نعلم أن نبذ الدنيا وكراهيتها وهجرها، والاكتفاء بالعمل للآخرة بأداء المناسك والشعائر، والتفرغ لها، لا يتفق مع الغرض من خلق الإنسان. فالمؤمن يعمل للدنيا كأنه يعيش أبدا، ويعمل للآخرة كأنه يموت غدا، فطريق الوصول إلى الله يمر عن طريق إعمار الأرض، ومجاهدة النفس، حتى يحقق للمجتمع الإسلامى الحياة

الكريمة، ويتساوى مع المجتمعات الأخرى غير المسلمة التى كرست كل الجهد لتعمير الأرض، وتطوير الحياة.

لابد أن يفهم المسلم الهدف من خلقه، وأن الإسلام دين يسر لا عسر فلنوغل فيه برفق، والحلال بين والحرام بين، ويجب أن يكون كل مسلم ملما بالسياسات الشرعية، مطلوبا منه أركان الإسلام الخمسة، قواعد الصلاة والصيام والحج والعمرة، والمثل العليا، ومقاصد الشريعة.

إن الشريعة وحى السماء ضمانة أساسية لاستقرار المجتمع الإنسانى وانتظام أحواله وضبط علاقاته، فبدونها تسود الفوضى، ويعم الاضطراب وتنتهك الأعراض والحرمات، وتغتال الحقوق، وتتعرض الأنفس والأموال لأخطار جسيمة.

لفظ الشريعة فى الاصطلاح الإسلامى العام يطلق على أحكام الإسلام نفسه، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى:١٣]

وقد جاءت الشريعة الإسلامية لتنظيم العلاقات فى المجتمع الإنسانى كله، علاقة الإنسان مع ربه، علاقة الإنسان مع نفسه، مع غيره على المستوى الفردى والجماعى.

وتنقسم أحكام الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام: عقيدة، عملية فقهية، خلقية تهذيبية.. أما الاجتهاد فى الإسلام برهان المرونة، ووسيلة الصلاحية للتشريع الإسلامى لكل زمان ومكان.

ومن واجب الفقهاء تقريب الشرع إلى الناس، وتيسير حياتهم فى ظلاله، وهو دعوة لكسر قيود التقليد، والتخلص من أسر الجمود، والعودة بالفقه إلى سابق عهده هاديا للناس إلى ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة معا.

يقول تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء:٧٣]

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء:٥٢]

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء:٦٣]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص:٧]

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [فاطر:٣١]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا﴾ [الشورى:٧]

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ﴾ [الشورى:١٣]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى:٥٢]

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل:٦٨]

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم:١٠]

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الزلزلة:٥]

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ [المائدة:١١١]

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [النساء:١٦٣]

﴿ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [النساء:١٦٣]

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء:١٦٣]

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ [الأعراف:١١٧]

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ [الأعراف:١٦٠]

﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس:٢]

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ ﴾ [يونس:٨٧]

﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف:٣]

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:١٥]

﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الرعد:٣٠]

﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ [النحل:١٢٣]

﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ [الإسراء:٧٣]

﴿بِٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ [الإسراء:٨٦]

﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ [طه:٣٨]

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ [طه:٧٧]

ويأتى الوحى على هيئة بشر أو ملك.. وكان الإلهام من الوحى.. ويوحى المصطفى من الملائكة إلى المصطفى من الرسل.. ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران:٧٩]

قيل لجابر بن عبد الله بن الزبير: "ما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحا".

لقد خلق الله الخلق ليدركوا قدرته ويؤمنوا به ويطيعوه، وأوحى إلى من شاء ليبلغوا عنه مقاصده وغاياته، واصطفى من خلقه من يشاء، وبعث رسلا، وبعث ملائكة، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَىۡءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأنعام:٩٣]

ويقول الله لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وكذلك أوحينا إليك روحا (جبريل) ينزل بالوحى، فبلغ عنه كل ما جاء به الله من تعاليم وأخلاق ومبادئ وقيم، وما أمر به وما نهى عنه.. وما لأحد قدرة على أن ينزل شيئا، أو يمنع شيئا إلا الله..

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام:٩١]

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢]

ويقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٣، ١٦٤]

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٣]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾ [آل عمران:٧٧]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:١١٨]

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة:١٧٤]

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ [الأعراف:١٤٨]

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾ [النساء:١٦٣ – ١٦٥]

موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشرى الموصول، ورسالة واحدة بهدى واحد للإنذار والتبشير.. موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود وموسى.. وغيرهم ممن قصهم الله على نبيه – صلى الله عليه وسلم – فى القرآن، وممن لم يقصصهم عليه..

كلهم تلقى الوحى من الله. فما جاء بشى من عنده. وإذا كان الله قد كلم موسى تكليما فهو لون من الوحى لا يعرف أحد كيف كان يتم. فلا نعلم إلا أنه كان كلاما. ولكن ما طبيعته؟ كيف تم؟ بأية حاسة أو قوة كان موسى يتلقاه؟ كل ذلك غيب..

أولئك الرسل- من قص الله على رسوله منهم ومن لم يقصص- اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان ، وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب، كل ذلك: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ ولله الحجة البالغة من الأنفس والآفاق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

لقد أدى رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – الأمانة وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، بعد أن أوحى إليهم بأن يبشروا وأن ينذروا، وإذا كان القرآن قد ذكر أن الله كلم موسى تكليما، – وهو أيضا أوحى إليه – فلا غرابة فى أن يكون قد كلم أولئك الرسل الذين قصهم علينا القرآن، ولسوف نرى فى مواضع أخرى كلام الله مع رسله وحيا أو من وراء حجاب، فما دور العقل البشرى فى قضية الحوارات الإلهية؟ وفى دور الوحى إلى الرسل والأنبياء؟

رسول الله – صلى الله عليه وسلم- أوحى إليه، ويؤمر من ربه بتبليغ الناس بكل ما يحييهم، وليبين لهم مفرق الطريق بين الخير والشر، النور والظلام، التوحيد والشرك، الإسلام وغير الإسلام، وليقرر صلى الله

عليه وسلم، أنه لاموضع للقاء بينه وبين المعاندين إلا أن يتخلصوا من غيهم، ويدخلوا في طريق النور والهداية، الطريق الذى يشهد عليه الوجود كله أكبر شهادة.. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام:١٩]

أوحى الله هذا القرآن إلى رسول الله – محمد – صلى الله عليه وسلم، لينذر به كل من يبلغه فى حياته – صلى الله عليه وسلم – أو من بعد، فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم. فكل من بلغه هذا القرآن من الناس بلغة يفهمها، ويحصل منها محتواه، فقد قامت عليه الحجة به، وبلغه الإنذار، وحق عليه العذاب، إن كذب بعد البلاغ.

فالرسول لا يتلقى إلا من ربه، ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه، كما أنه فى "البشرية" وفى "تلقى الوحى" تنحصر حقيقته، ويتضح الحق والباطل.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام:٥٠]

إنه لا يتبع إلا وحى الله يعلمه ما لم يكن يعلم.. فهو لا يقعد على خزائن الله، ولا يملك مفاتح الغيب، ولا هو ملك.. إنما هو بشر رسول.

إن اتباع الوحى وحده هداية ونور، وما عداه ضلال وظلام.. إن هذا العقل الذى وهبه الله للإنسان قادر على تلقى ذلك الوحى، وإدراك مدلولاته.. وهذه وظيفته.. ثم هذه فرصته فى النور والهداية، أما حين يستقل العقل البشرى بنفسه بعيدا عن الوحى، فإنه يتعرض للضلال.. فالله قد جعل حجته على الناس هى الوحى والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هى عقلهم البشرى، لأن العقل وحده قد يضل، وأنه لا عاصم لعقل إلا أن يكون الوحى هو الهادى والنور والبصيرة.

والعقل بمصاحبة وحى الله وهداه بصير، وبترك وحى الله وهداه أعمى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠]

التفكير مطلوب، والحض عليه منهج قرآنى، ولكنه التفكر المضبوط بضابط الوحى، الذى يمضى معه مبصرا فى النور، والعقل البشرى حين يتحرك فى إطار الوحى لا يتحرك فى مجال ضيق، بل يتحرك فى مجال واسع جدا.. يتحرك فى مجال هو هذا الوجود كله، ومجالات الحياة جميعا.. فالوحى لا يكف العقل عن شيء إلا عن إنحراف المنهج، وسوء الرؤية، والتواء الأهواء والشهوات، وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعا، فهذه الأداة العظيمة التى وهبها الله للإنسان- العقل- إنما وهبها له لتعمل وتنشط فى حراسة الوحى والهدى الربانى.. فلا تضل إذن ولا تطغى.

لقد خص الله بعض رسله بالوحى، وكان محمد - صلى الله عليه وسلم - يتلقى من ربه ويبلغ الناس بما يأتيه به الوحى، أما الذين يفترون على الله الكذب، ويدعون أنهم أوحى إليهم ادعاء لا حقيقة له. أو مستطيعون بزعمهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، كذب وافتراء: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام:٩٣]

والآية نزلت فى مسيلمة الكذاب وسجاح بنت الحارث زوجته والأسود العنسى وهم الذين تنبأوا فى حياة الرسول- صلى الله عليه وسلم- وادعوا أن الله أوحى إليهم.. (عن قتادة وابن عباس - رضى الله عنهما).

أما الذى قال سأنزل مثلما أنزل الله - أو قال أوحى إلى كذلك، ففى رواية عن ابن عباس أنه عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وكان أسلم وكتب الوحى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنه لما نزلت الآية التى فى (المؤمنون): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر:٢٦] دعاه النبى - صلى الله عليه وسلم - فأملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤] عجب عبد الله فى تفصيل خلق الإنسان، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٤] فقال

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "هكذا أنزلت علي".. فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إلي كما أوحي إليه، ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال، فارتد عن الإسلام.. (رواه الكلبي عن ابن عباس).

وقد صرف الله الآيات، فافترق الناس في مواجهتها فريقين.. يصدر الأمر العلوي للنبي – صلى الله عليه وسلم – أن يتبع ما أوحي إليه، وأن يعرض عن المشركين، ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم. فإنما سبيله أن يتبع ما أوحي إليه من ربه، فيصوغ حياته كلها على أساسه، ويصوغ نفوس أتباعه كذلك، ولا عليه من المشركين؛ فإنما هو يتبع وحي الله، الذي لا إله إلا هو..

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام:١٠٦]

ولو شاء الله لألزمهم الهدى، ولو شاء أن يخلقهم ابتداء لا يعرفون إلا الهدى كالملائكة لخلقهم، ولكنه سبحانه خلق الإنسان بهذا الاستعداد للهدى وللضلال، وتركه يختار طريقه ويلقى جزاء الاختيار– في حدود طلاقه القدرة التي لا يقع في الكون إلا ما تجري به، ولكنها لا ترغم إنسانا على الهدى أو الضلال، وخلقه على هذا النحو لحكمه يعلمها، وليؤدي دوره في هذا الوجود كما قدره الله له.. وليس الرسول – صلى الله عليه وسلم – مسؤولا عن عملهم، وهو لم يوكل بقلوبهم، فالوكيل عليها هو الله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام:١٠٧]

كما تتكرر الإشارة إليها فى الآية التالية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام:١١٢]

فالأمر كله مرهون بمشيئة الله، هو الذى شاء ألا يهديهم لأنهم لم يأخذوا بأسباب الهدى، وهو الذى شاء أن يدع لهم هذا القدر من الاختيار على سبيل الابتلاء، وهو الذى يهديهم إذا جاهدوا للهدى، وهو الذى يضلهم إذا اختاروا الضلال.

كذلك قدر الله أن يكون لكل نبى عدو، هم شياطين الجن والإنس، وقدر أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوهم به، ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى. وقدر أن تصغى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويرضوه، ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل وللحق، ومن الضلال والفساد فى الأرض.

كل ذلك إنما يجرى بقدر الله، ولو شاء ربك ما فعلوه. هؤلاء الشياطين من الإنس والجن، الذين قدر الله أن يكونوا عدوا لكل نبى، يخدع بعضهم بعضا بالقول المزخرف، الذى يوحيه بعضهم إلى بعض- ومن معانى الوحى التأثير الداخلى الذى ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن آخر- ويحرض بعضهم بعضا على التمرد والغواية والشر والمعصية.

وشياطين الإنس أمرهم معروف ومشهود لنا من حولنا، ونماذجهم معروفة يملك أن يراها الناس من كل زمان.

فأما شياطين الجن - والجن كله - فهم غيب من غيب الله، لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به من عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو..

إن الذين يقفون بالعداوة لكل نبى، ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء هم "شياطين" شياطين من الإنس والجن، وأنهم يؤدون جميعا وظيفة واحدة، وأن بعضهم يخدع بعضا ويضله، كذلك مع قيامهم جميعا بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله... ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ فالله من ورائهم قادر على أخذهم..

وفى سياق آخر يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]

فقد كانت الشياطين - من الإنس والجن - توسوس لأوليائها عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التى كانوا يذكرون عليها أسماء آلهتهم، أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام، أو من الميتة التى كانوا يجادلون المسلمين فى تحريمها.. وإذا أطاع المسلم أحدا من البشر فى جزئية من جزئيات التشريع التى لا تستمد من شريعة الله، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية.. أن طاعة المسلم فى هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله، إلى الشرك بالله.

لقد أرسل الله رسلا إلى الجن كما أرسل رسلا إلى الإنس يقصون عليهم

آيات الله، وينذرونهم لقاء الله يوم القيامة، فهل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر، وربما كان الجن يسمعون ما أنزل على الرسل، وينطلقون إلى قومهم منذرين به.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠]

وهو سؤال للتقرير والتسجيل. فالله – سبحانه – يعلم ما كان من أمرهم فى الحياة الدنيا، والجواب عليه إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء فى الآخرة.

إن ما يحرمه الله، إنما يحرمه على الناس، ويوحى إلى رسوله بأن يبلغ الناس بتحريمه. فما حرمه الله حقا عن بينة ووحى، لا عن ظن ووهم. والله هو صاحب هذا الكون، فإذا حرم الشيء فهو حرام. وإذا أحله فهو حلال بلا تدخل من البشر: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥-١٤٧]

محمد والوحى:

ومن محاولات المشركين مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – محاولة فتنته عما أوحى إليه، ليفترى عليه غيره، وهو الصادق الأمين: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الإسراء:٧٣]

لقد حاولوا هذه المحاولة فى صور شتى، الله قد أوحى إليه، هذه حقيقة ليعلن عن العقيدة، أوحى الله لرسوله ليثبته على الحق، ويعصمه من الفتنة، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلا.

من أجل ذلك، يوجه الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – إلى الاتصال به، واستمداد العون منه، والمضى فى طريقه، يعلن انتصار الحق، وزهوق الباطل..

إن ما جاء فى التنزيل هو العلم المستيقن، لأنه من العليم الخبير، ولو شاء الله لحرم البشرية منه، وذهب بما أوحى إلى رسوله، ولكنها رحمة الله وفضله: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء:٨٦- ٨٧]

والله يمتن على رسوله – صلى الله عليه وسلم – بهذا الفضل، فضل إنزال الوحى، واستبقاء ما أوحى به إليه، والمنة على الناس أكبر، فهم

بهذا القرآن فى رحمة وهداية ونعمة، أجيالا بعد أجيال.. ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص:٧٠]

ويوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه، وفيه فصل الخطاب- وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل- والاتجاه إلى الله وحده، فليس من حمى إلا حماه : ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف:٢٧]

إن أفق الرسالة الكاملة الشاملة قريب، محدود بالقياس إلى الأفق الأعلى الذى تتقاصر دونه الأبصار، وينحسر دونه الأنظار - وهذا أعلى أفق للبشرية.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]

إنه أفق الألوهية الأسمى.. فأين هنا آفاق النبوة وهى - على كل حال - آفاق بشرية: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ [ص:٦٥]

بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى، بشر يستمد من ذلك المعين الذى لا ينضب. بشر لا يتجاوز الهدى الذى يتلقاه من مولاه. بشر يتعلم فيعلم، فيعلم.. فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى، فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذى يتلقى، وليأخذ بالوسيلة التى لا وسيلة سواها:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف:٩]

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزُّمر:٦٥]

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من المشاهد والقصص التى يحكيها لمحمد – صلى الله عليه وسلم – لأنه لم يشاهدها. فبهذا القرآن الذى نوحيه إليك، قصصنا عليك هذا القصص – وهو أحسن القصص – وهو جزء من القرآن الموحى به: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف:٣]

إنه الوحى الذى أنزله الله على محمد – صلى الله عليه وسلم – ليبلغه قرآنا يتلوه، ولينذر به أقواما لا يعرفون طريقهم إلى الله، وليكون نورا وهداية للبشر أجمعين.

وفى القرآن قصص ومشاهد ينقلها إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – ومن ثم إلى أمة محمد ليتدبر الناس ما فيها من عبر وحكم، وليعتبر أولوا الألباب.

ومعنا قصة من قصص القرآن، هى قصة "سيدنا يوسف" – عليه السلام – نزل بها قرآنا أوحاه الله إلى نبيه – أحد الأميين – فى قومه الذين لا

يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التى جاء بها القرآن: ومنها هذا القصص الكامل الدقيق.

ونحن نعرف قصة سيدنا يوسف التى أخبرنا بها القرآن، والتى أُخبر بها سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فقد أجمع إخوة يوسف على أن يجعلوه فى غيابة الجب، لأنه أحبهم إلى أبيهم. وفى لحظة الضيق والشدة التى كان يواجه فيها هذا الفزع، والموت منه قريب، ولا منقذ له ولا مغيث، وهو وحده صغير، وهم أشداء، فى هذه اللحظة اليائسة يلقى الله فى روعه أنه ناج.

وأنه سيعيش يواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع- أوحى إليه ربه بهذا، وأعلمه بخفاء أنه سيحيا، وسيلقى إخوته وسيواجههم، وهم لا يشعرون بأن الذى يواجههم هو يوسف الذى تركوه فى غيابة الجب وهو صغير- وحى من الله-.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤]

وأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا – صلى الله عليه وسلم – عن يوسف، وقد جاء ذكره فى القرآن فى ثلاث سور: الأنعام، ويوسف وغافر..

ومع يوسف ومحنته التى تعرض لها مع امرأة العزيز التى اتهمته كذبا،

وقد راودته عن نفسه فاستعصم، فأما أن يفعل ما تأمره به، أو يسجن، فماذ هو فاعل؟

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف:٣٣]

لقد دعا ربه وهو المبتلى، والله يعلم إنه لصادق: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف:٣٤]

إنها دعوة الإنسان العارف ببشريته، الذى لا يغتر بعصمته، فيريد مزيدا من عناية الله، فيدعوه ويستجيب الله لدعائه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

الذى يسمع ويعلم ، ويسمع الكيد، ويسمع الدعاء، ويعلم ما وراء الكيد، وما وراء الدعاء، وهكذا اجتاز يوسف محنته بلطف الله ورعايته..

وتنتهى القصة بما بدئت به.. ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف:١٠٢]

ذلك القصص من الغيب الذى لا تعلمه، ولكننا نوحيه إليك يا محمد، وآية وحيه أنه كان غيبا بالقياس إلى محمد – صلى الله عليه وسلم- وما كنت معهم يا محمد وهم يمكرون، إنما هو الوحى الذى يثبت قضايا العقيدة، وقضايا هذا الدين.

ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحى، وإيحاء القصص، والمشاهد التى

تحرك القلوب، أن يؤمن الناس بهذا القرآن، وهم يشهدون الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويعرفون أحواله، ثم يسمعون منه ما يسمعون، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف:١٠٩] لم يكونوا ملائكة، ولا خلقا آخر، إنما كانوا بشرا مثلك، فرسالتك ماضية على سنة الله فى إرسال رجال من البشر نوحى إليهم".

إن حياة الرسول كد وعناء وشقاء، وصبر على الكرب، والضيق، فهم يدعون ولا يستجاب لهم، وقليل هم الذين يستجيبون، وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه البشر..

وكذلك أخبر الله سبحانه محمدا – صلى الله عليه وسلم – بقصة سيدنا موسى – عليه السلام – وهو لم يشاهد أحداثها، حتى تكون دليلا على صدق الوحى الذى نزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – يقصها كما لو كان شاهدها..

وإذن هو الوحى يقصها عليه من لدن عليم خبير، رحمة بقومه أن يصيبهم العذاب بما هم فيه من شرك.

وها هو الوحى يعلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما أخبره الله من شأن موسى مع قومه ومع الله :

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ

﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ
مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ
إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ
أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ
بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ
يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى
مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [القصص:٤٤-٥١]

إنها رسالة عادلة شاملة ينقلها الوحى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الله سبحانه تحكى قصة موسى مع فرعون وملئه، ومع دعوته ورسالته إلى العالمين.

ومما يجدر هنا أن نذكره المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق، وما سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – النداء، وما سجل فى وقتها تفصيلاته، ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء، أن قص عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه – صلى الله عليه وسلم – فيما يدعوهم إليه..

والغربى هو الجانب الغربى للطور، الذى جعله الله ميقاتا مع موسى - عليه السلام - بعد أجل محدد، ثلاثين ليلة أتمها بعشر - فكانت أربعين ليلة، وفى هذا الميقات قضى الأمر لموسى فى الألواح لتكون شريعته فى بنى إسرائيل - وما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شاهدا لهذا الميقات، وتلك دلالة على أن الذى نبأه به هو العليم الخبير الذى يوحى إليه بالقرآن الكريم.

ولقد تحدث القرآن كذلك بأنباء مدين، ومقام موسى - عليه السلام - بها وتلاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما كان مقيما فى أهل مدين.. ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بهذا القرآن ، وما فيه من أنباء السابقين. فامض برسالتك يا محمد، ولا تيأس من دعوة الحق، فقد كذب من قبلك، وكانت عاقبة الذين كذبوا الخسران المبين. فلا تلتفت لقولهم، وأعرض عما يقولون ولا تتبع أهواء المشركين، وسوف يلقون ما لقى السابقون ممن ضلوا عن الطريق - لقد كفروا بما أوتى موسى من قبل، وكان فى الجزيرة يهود، وكان معهم التوراة، فلم يؤمن لهم العرب، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة، ولقد علموا أن صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - مكتوبة فى التوراة، واستفتوا أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب، فلم يذعنوا لهذا كله، وادعوا أن التوراة سحر، وأن القرآن سحر : "قالوا سحران تظاهرا" وإذا كان عندكم أفضل من القرآن فأتوا به أتبعه..

يقول الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – يأيها النبي اتبع ما يوحى إليك من ربك، وتوكل عليه وحده.

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٢-٣]

إنه توجيه سام، لنبى كريم أن الله معك فلا تركن لعدم طاعة الكافرين والمنافقين، وامض حيث تؤمر، ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٧]

إن الله وملائكته يصلون على النبى الذى أوحى إليه الله فكانت رسالته للخلق أجمعين إلى أن تقوم الساعة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٦]

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ:٢٨]

لقد قابلوا الحق بالباطل، وقالوا ما هذا إلا سحر، سلسلة من الاتهامات ولكن الحق ينتصر، وتبقى كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى..

وقول الرسول – صلى الله عليه وسلم- هو الحق، وهو القول المحكم القوى المبين، الحق القوى الذى يقذف به الله، فمن ذا يقف للحق الذى يقذف به الله؟ فالرسالة حق.. وفى قرآنها، وفى منهجها المستقيم: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سبأ: ٥٠]

فلا عليكم إذن إن ضللت، فإنما أضل على نفسى، وإن كنت مهتديا فإن الله هو الذى هدانى بوحيه، لا أملك لنفسى منه شيئا إلا بإذنه، وأنا تحت مشيئته، أسير فضله ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ [فاطر:٤]

تلك حقيقة فقد كذبت رسل من قبلك، والأمر كله لله، وإليه ترجع الأمور، والعواقب متروكة لله وحده يدبرها كيف يشاء.

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر:٢٣-٢٤]

وإذن فالرسول ليس إلا نذيرا، لقد أرسله الله بالحق بشيرا ونذيرا، كغيره من الرسل: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر:٢٥-٢٦]

ولقد أخبر الله سبحانه نبيه محمدا – صلى الله عليه وسلم – بهذا القصص القرآنى الذى لم يشهده ليكون دليلا على صدق الوحى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١١١]

لقد نقل هذا الغيب لرسول الله ليبلغ به الناس، والعجيب أنهم يكفرون بالرحمن، العظيم الرحمة الذى تطمئن القلوب بذكره، واستشعار رحمته الكبرى. وما عليك يا محمد، إلا أن تتلو عليهم الذى أوحينا إليك، فلهذا أرسلناك، فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده، وأنك تائب إليه وراجع، لا تتجه إلى أحد سواه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد:٣٠]

إنا أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن، هذا القرآن العجيب الذى جاء لخطاب المكلفين الأحياء، فإذا لم يستجيبوا فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون، وأن يدعوهم حتى يأتى وعد الله للمكذبين.

لقد أرسلناك فى قومك، وأرسلنا من قبلك رسلا فى أقوامهم، كل يدعو إلى عبادة الله وحده؛ أن اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا. وإذا كان الاعتراض على بشرية الرسول فقد كان الرسل كلهم بشرا : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن

﴿قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد:٣٨]

وإذا كان الاعتراض بأنه لم يأت بمعجزة مادية، فذلك ليس من شأنه، إنما هو شأن الله ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد:٣٨]وفق ما تقتضيه حكمته وعندما يشاء.

وينكر الكفار رسالة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويثبتها الله، ويشهد الله مكتفيا بشهادته: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد:٤٣]

إن دلائل الحق فيما جاء فى كتاب الله الذى نزل به الوحى على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر:٣١]

فهو الترجمة الصحيحة لهذا الكون فى حقيقته، هذا هو الكتاب فى ذاته، أورثه الله لهذه الأمة المسلمة، اصطفاها للوراثة، وكلمات القرآن جديرة بأن توحى لهذه الأمة بكرامتها على الله، كما توحى إليها بضخامة التبعية الناشئة عن هذا الاصطفاء، وعن تلك الوراثة، وهى تبعة ضخمة ذات تكاليف..

إن الكافرين ينكرون الوحى والرسالة، ويطلبون الملائكة مصدقين. وطلب نزول الملائكة يتكرر فى كثير من السور مع الرسول - صلى الله عليه وسلم- ومع غيره من الرسل قبله..

إن الملائكة لا تنزل على الرسول إلا لهلاك المكذبين من قومه حين ينتهى الأجل المعلوم، وعندئذ فلا إمهال ولا تأجيل..

إن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق، ليحقوه وينفذوه، والحق عند التكذيب هو الهلاك، فهم يستحقونه فيحق عليهم، فهو حق تنزل به الملائكة لتنفيذه بلا تأخير..

ولقد عجبت الملائكة لقضية البشرية الكبرى، والاستخلاف فى الأرض. وهذا سر كان قد خفى عليهم، أو هم حسبوه سرا. فلما عرضت الأسماء على الملائكة التى علمها الله لآدم، وقال لهم الله: أنبئونى بأسماء هؤلاء، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.. فطلب من آدم أن ينبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون- فسجد الملائكة لآدم وأبى أبليس واستكبر، وطلب من الله أن ينظره إلى يوم البعث ليغوى أبناء آدم الذى من أجله طرد..

وخلق الملائكة سابق للإنسان فى الخلق، وهم مطيعون بلا جدل أو تعويق- كما هى طبيعتهم- لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون...

إن ألسنة الذين أوتوا العلم من الملائكة والرسل والمؤمنين لا تسكت عن الحق، وتنطلق به ظاهرا، وأن الخزى والسوء على الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين، وبما أوردوها موارد الهلاك، وبما قادوها إلى النار والعذاب، والله عليم بما كانوا يفعلون.

أما المتقون فلهم فى هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير، ولنعم دار المتقين، جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار، لهم فيها ما يشاءون، كذلك يجزى الله المتقين، الذين تتوفّاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون.

إن الله ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، فهو لا ينزل من السماء ماء يحيى الأرض والأجسام وحدها، إنما ينزل الملائكة بالروح من أمره.. والتعبير بالروح له معناه، فهو حياة ومبعث حياة:

حياة فى النفوس والضمائر والعقول والمشاعر. وحياة فى المجتمع تحفظه من الفساد والتحلل والانهيار. وهو أول ما ينزله الله من السماء للناس، وأول النعم التى يمن الله بها على العباد. تنزل به الملائكة أطهر خلق الله على المختارين من عباده – الأنبياء–.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ ﴾ [النحل:٢]

القرآن روح، والملك روح – والملائكة روح بلا مادة، والإنسان روح

ومادة. منهج الله روح، والذى نزل به روح. والروح جبريل- نزل به الروح الأمين على قلبك. روح تحيا بها المادة (المؤمن والكافر).

الروح المنهج – نزل ليبلغ للناس أجمعين..

إنها الوحدانية فى الألوهية. روح العقيدة، وحياة النفس. ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيي والاتجاه المدمر. فالنفس التى لا توحد المعبود نفس حائرة هالكة..

والتعبير بالروح يشمل هذه المعانى كلها، وهى نعمة كبرى إلى جانب نعم الله جميعا. هى النعمة الكبرى التى لا قيمة لغيرها بدونها، ولا تحسن النفس البشرية الانتفاع بنعم الأرض كلها إن لم توهب نعمة العقيدة التى تحييها، ويفرد الإنذار، فيجعله فحوى الوحى والرسالة.

نحن لا نعلم عن طبيعة الملائكة إلا ما علمنا الله، ومعية الله للملائكة تخلق الاطمئنان فى قلوب العصبة المؤمنة. فمن كان الله معه لا يحزن ولم يمسسه سوء.. أرأيت إلى الذين قالوا لسيدنا موسى عندما رأوا البحر أمامهم، والعدو من خلفهم إنا لمدركون، فقال لهم: كلا إن معى ربى سيهدين. فهو أقرب إليه من حبل الوريد..

وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله سبحانه وتعالى للملائكة فى المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة لهى خير دليل على النصر لمن كان الله معه، كما سنرى فى هذا المشهد الهائل الذى تعرضه الآيات من سورة الأنفال، والذى تتجلى فيه تلك الحقيقة الهائلة، ثم يكون النصر

المبين. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال:٩]

لما كان يوم بدر نظر النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة. فاستقبل النبى – صلى الله عليه وسلم – القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: "اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة من أجل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدا". فما زال يستغيث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه. ثم قال: يا نبى الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل الآيات، (عن الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب– رضى الله عنه–).

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون، وطمأنهم بمدده فى هذه المعركة، فكان لهم النصر بعد أن أمدهم بالملائكة. ويتم المدد، ويوحى الله إلى ملائكته أن ثبتوا الذين آمنوا، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب..

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ [الأنفال:١٢]

إنها معية الله سبحانه للملائكة فى المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة... كيف اشتركت الملائكة، وكم قتيلا قتلت، وكيف قتلت؟

أمور لا يمكن لنا أن ندركها، ولكنا نسلم بها لأنها من تبليغ الله لنا..

إننا نؤمن بوجود خلق من خلق الله اسمهم الملائكة، ولكنا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به الله، فلا نملك من إدراك الكيفية التى اشتركوا بها فى نصر المسلمين يوم بدر، وقد أوحى إليهم ربهم: أنى معكم، وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ففعلوا – لأنهم يفعلون ما يؤمرون- ولكنا لا ندرى كيف فعلوا.. وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق المشركين، وأن يضربوا منهم كل بنان، ففعلوا كذلك بكيفية لا نعلمها..

وهذه آيات بينات فى الملائكة التى حملت قواعد التوحيد الأساسية، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦]

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل:٢]

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨﴾ [النحل:٢٨]

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾ [النحل:٣٢]

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٣]

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج:٧٥]

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزُّمَر:٧٥]

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الشورى:٥]

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [المدّثر:٣١]

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزُّخرُف:٦٠]

ويواجه الله سبحانه المكذبين بالملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ:٤١]

يسأل الله ملائكته ويكلمهم- أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون-؟ - وهو يعلم – فيجيبون ربهم، قالوا: سبحانك تنزهت عن كل شيء أنت ولينا من دونهم...

أرسل الله ملائكته إلى إبراهيم يبشرونه بالحق وهو الذى استبعد فى أول الأمر أن يرزق بولد، وقد مسه الكبر، وزوجه عجوز عقيم، فرده الملائكة إلى اليقين، يقول تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥١-٥٦]

وهنا اطمأن إبراهيم إلى الملائكة، وثابت نفسه واطمأنت للبشرى.. الملائكة موفودون من الله بأمر منه ليبشروا إبراهيم بغلام، ويستغرب إبراهيم هذه البشرى من الملائكة الذين أرسلهم الله إليه، فيفهم عنهم ويسمع لبشراهم وهو مهيأ لذلك- فهل كان يعرف لغة الملائكة؟ أم هو رمز عرف من خلاله ما تعنيه الملائكة عن أمر الله. وراح يسأل الملائكة، ويستطلع سبب مجيئهم وغايته: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر:٦٠]

قول من إبراهيم للملائكة فى صيغة سؤال، وقول من الملائكة ترد عليه، وتبين له سبب إرسالهم حتى يقتنع بما جاؤا به، وبما حملوه إليه.. لقد أخبرته الملائكة بالنبأ كله، ذلك أنه يصدق رحمة الله بلوط وأهله، وعذابه لامرأته وقومه، وينتهى بذلك دورهم مع إبراهيم، ويمضون لعملهم مع قوم لوط...

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

[الحِجر:٦١-٦٦]

إنهم الملائكة جاؤا للوط بما كان قومه يمترون فيه من أخذهم بذنوبهم، وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون، تصديقا لعذاب الله، وتوكيدا لوقوع العذاب حين ينزل بلا إبطاء..

وهذه التوكيدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه، وهو فى حيرة بين واجبه لضيفه، وضعفه عن حمايتهم فى وجه قومه، فجاءه التوكيد بعد التوكيد لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه.. فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت أحد منكم، وامضوا حيث تؤمرون.. وأوحى الله إليه ذلك الأمر وأطلعه على ذلك الأمر الخطير أن آخر هؤلاء القوم مقطوع فى الصباح، وفى ذلك النهاية الشاملة..

لقد أرسل الله ملائكته إلى إبراهيم بالبشرى، ولكنه نكرهم لأنهم لم يأكلوا طعامه، والملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض، فأصبح خائفا وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط، فالبشرى التى حملتها الملائكة لإبراهيم كانت بإسحق، وامرأته كانت عقيما لم تلد، ففاجأتها البشرى، وهى بشرى مضاعفة فمن بعد اسحق يعقوب. ولا عجب من أمر الله، وليس للعقل البشرى قول فى ذلك.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود:٧٣]

ويطمئن إبراهيم إلى رسل ربه، ويسكن قلبه بالبشرى التى حملوها إليه، وتذكر لوطا وقومه. إن إبراهيم أواه منيب، وهى صفات دعته أن يجادل الملائكة فى مصير قوم لوط.. والجدال يتم عن طريق الكلام- وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدال- ولكن الرد يأتيه بأن أمر الله فيهم قد قضى، وأنه لم يعد للجدال مجال: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [هود:٧٦]

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود:٧٧]

والرسل أيضا هم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى لوط ليكشف عن الحالات المرضية الفردية الشاذة- ظاهرة قوم لوط عجيبة- وهى تشير إلى مرض قد يحدث فى أى زمان وأى مكان، إذ يتركون النساء إلى الرجال مخالفين فطرة الله التى تهتدى إلى حكمة الخلق.. ولكن قوم لوط لم يستجيبوا لدعوته، وأحس بضعفه وليس له قوة: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود:٨٠]

قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية- يكلمهم – الذين جاء الملائكة فى صورتهم – وهو يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة، وغاب عنه أنه يأوى إلى ركن شديد – ركن الله – الذى لا يتخلى عن أوليائه.

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها، وبلغ الكرب أشده، كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذى يأوى إليه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود:٨١]

وهكذا كانت من رسل الله الملائكة، وأوحى إليهم ربهم بتبليغ مضمون الله لأوليائه وأن يتم ذلك عن طريق الكلام والجدال، والله أعلم بما كان من شأنهم-.

آدم :

عمر آدم ٩٣٠ سنة.

فى النسخة العبرانية مات آدم قبل نوح بمقدار ١٢٦ سنة.

وفى نسخة يونانية مات قبل ولادة نوح بمقدار ٧٣٢ سنة.

جاء آدم على كون فيه كل مقومات الحياة: شمس – قمر – ماء...

آدم وشيت وإدريس أمم من قبل نوح.

مدة نوح طالت فشملت أمما متعددة.

وقد جاء ذكر آدم – عليه السلام – فى غير موضع من سور القرآن الكريم، ذلك لأنه سر الخليقة كلها، وقد جعله الله خليفة فى الأرض، واستوجب ذلك تكريمه، وسجدت له الملائكة، إلا أن أبليس أحدث معركة بإبائه ورفضه، وصورت سور القرآن الكريم التى ذكرت آدم معركته مع أبليس، وموقف إبليس من أمر الله، وكيف أن الله سبحانه وتعالى حاوره فى هذا الشأن، وانتهى الحوار بطرده ملعونا إلى يوم الدين..

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ
﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ
﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ
﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ

لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه:١٢٣]

أمر الله ملائكته أن تسجد لآدم فاستقبلوا الأمر بالطاعة وسجدوا. وكان إبليس ضمن الذين صدر إليهم الأمر، ولكنه أبى ولم يأتمر بأمر الله ظنا منه أنه أرقى من آدم، فهو من نار، وآدم من طين. وعلى هذا الظن كان الإباء، فأوحى الله إلى آدم بهذا الإيحاء الذى يدل على اصطفاء الله لآدم بحيث أنه يوحى إليه أو يكلمه بإخفاء..

وليس هذا فحسب بل يناديه باسمه "يا آدم" هذا الذى أبى السجود لك، والذى أمرته فعصى هو عدو لك ولزوجك وللبشر جميعا. وأنا الذى أعددتك للخلافة وأعلم ما لا يعلم أحد. وكانت من رعاية الله أن ينبه آدم إلى عدوه، ويحذره غدره عقب نشوذه وعصيانه، والامتناع عن السجود لآدم، كما أمره ربه "فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى" بالكد والعمل، وأنت فى حمى من ذلك ما دمت فى رحاب الفردوس "إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى" مادمت فى رحابها.

ولكن آدم كان غفلا من التجارب، وهو يحمل الضعف البشرى تجاه الرغبة فى البقاء، والرغبة فى السلطان: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه:١٢٠]

لقد لمس فى نفسه الموضع الحساس، فالعمر البشرى محدود، والقوة البشرية محدودة، ومن هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة، وإلى الملك العريض. ومن هنا يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة، ومن ثم نسى العهد، وأقدم على المحظور ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ [طه:١٢١]

﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة:٣٧]

ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، بعدما استغفر آدم وندم واعتذر ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ ﴾ [طه:١٢٣]

هذا هو آدم الذى خلقه الله، وجعله خليفه فى الأرض، يكرمه ويعلى قدره بسجود مخلوقاته له، وتتلاحق الآيات فى سور متعددة من القرآن الكريم فى تصوير هذا المشهد الرائع: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ [البقرة:٣٠]

- بعين البصيرة فى ومضات الاستشراف- فى ساحة الملأ الأعلى، نسمع ونرى من الكلام الموجه لسيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد فى الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق فى الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما فى هذه

الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله - بإذن الله - فى المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه.

إنه إيحاء التعبير العلوى الجليل، وهو يقول للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

ولماذا الملائكة؟ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وليكونوا شهداء على هذه المنزلة العظيمة، منزلة هذا الإنسان، فى نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذى شاءه له خالقه الكريم..

قول من الله عز وجل لملائكته الذين قالوا : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

ويوحى قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة فى الأرض، أو من إلهام البصيرة، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، أو من مقتضيات حياته على الأرض؛ وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد فى الأرض، وأنه سيسفك الدماء. ثم هم - بفطرة الملائكة البريئة التى لا تتصور إلا الخير المطلق، وإلا السلام الشامل- يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له، هو وحده الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده العلة الأولى للخلق.. وهو متحقق بوجودهم هم، يسبحون بحمد الله ويقدسون له، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته.

لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا، فى بناء هذه الأرض وعمارتها، وفى تنمية الحياة وتنويعها، وفى تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود فى تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة الله فى أرضه. هذا الذى قد يفسد أحيانا، وقد يسفك الدماء أحيانا، ليتم من وراء هذا الشر الجزئى الظاهر خير أكبر وأشمل..

ولا يزال الكلام متصلا، والحوار دائرا: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾... الملائكة فى الملأ الأعلى، وهذا حوار من ذلك السر الإلهى العظيم الذى أودعه الله هذا الكائن البشرى، وهو يسلمه مقاليد الخلافة..

وعلم آدم الأسماء كلها – سر القدرة وطلاقتها على الرمز بالأسماء للمسميات.. طلاقة القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها- وهى ألفاظ منطوقة- رموزا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة، وهى قدرة ذات قيمة كبرى فى حياة الإنسان على الأرض. وإن الحياة ما كانت لتمضى فى طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. وليست الملائكة فى حاجة إلى هذه الخاصية، لأنها لا ضرورة لها فى وظيفتهم.. فلما علم الله آدم هذا السر، وعرض عليهم ما عرض لم يعرفوا الأسماء، وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم، والإقرار بحدود علمهم.. هنا قال الحق: ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ويستمر الحوار مرة أخرى مع الملائكة: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾

إنه التكريم فى أعلى صوره، لهذا المخلوق الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة. لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق.

وتسجد الملائكة امتثالا للأمر العلوى الجليل – إلا أبليس– وينتقل الكلام من الله إلى آدم: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

فقد أباح لهما كل ثمار الجنة إلا شجرة واحدة– ربما كانت ترمز للمحظور الذى لابد منه فى حياة الأرض. فبغير محظور لا تنبت الإرادة.. ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ . عندئذ تمت التجربة: نسى آدم عهده، وضعف أمام الغواة.. ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ونهض آدم من عثرته: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ ..

نحن أمام الخطيئة الثانية من الحياة البشرية. كانت الخطيئة الأولى هى عصيان أبليس، وها هى الخطيئة الثانية تسفر عن عصيان آدم، وآدم هنا رمز للجنس البشرى كله.

أمر الله آدم أن يهبط من الجنة.. هبط آدم وحواء. كان أول شيء فعله على الأرض هو التوبة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ كان هذا أقدم دعاء، وأول دعاء تردده جنبات الأرض، وقد استجاب الله تبارك وتعالى لدعاء آدم وحواء.

ولقد جاء ذكر آدم فى القرآن الكريم فى تسع سور، تبدأ بسورة البقرة وتنتهى بسورة يس، وتردد اسمه فى هذه السور خمسًا وعشرين مرة.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص:٧١-٧٢]

قلت فى نفس السياق ما ندرى نحن كيف قال الله، أو كيف يقول للملائكة؟ لكنه تكلم مع الملائكة- وهم كانوا قبل أن نكون- وما ندرى كذلك كيف يتلقى الملائكة عن الله؟- ولكنهم تلقوا – ولا ندرى عن كنههم إلا ما بلغنا من صفاتهم فى كتاب الله – وإن كان هذا البحث مختصا بالوقوف على من كلمهم الله حتى نكشف عن ماهية هذا الكلام وشفافيته، إلى جانب من كلموه وهو فى عليائه، فهذا فضل كبير، وتكريم عظيم لمن كلموا الله، ولمن كلمهم الله.

ولقد خلق الله هذا الكائن البشرى من كثافة الطين، وعناصره هى نفسها عناصر الأرض، أما الجن فهم من شفافية النار.

ولقد نفخ الله من روحه فى هذا الكائن البشرى لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة فى الأرض..

ولقد استجاب الملائكة كلهم أجمعون لأمر ربهم كما هى فطرتهم: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص:٧٣]

سجد الملائكة امتثالا لأمر الله، وشعورا بحكمته فيما يراه: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص:٧٤]

وكان إبليس مع الملائكة، وإن كان قد خلق من نار، وخلق الملائكة من نور. وكان مأمورًا بالسجود: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص:٧٥] أستكبرت عن أمرى: ﴿ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ الذين لا يخضعون؟

الله يكلم إبليس ويناديه ﴿ يَٰٓإِبۡلِيسُ ﴾. يا لهذا الأمر الخطير، الله يكلم إبليس وينتظر منه أن يبين سبب عدم سجوده- ومن المؤكد أنه يعلم هذا السبب – فماذا قال إبليس؟ وبم رد على سؤال الله له؟ ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص:٧٦]. وماذا فى ذلك؟ والخلق كله بيد الله، والقادر عليه فسواء من نار أو من نور أو من طين، هو خلق الله، ولنا أن ندرك قول الله لا يحتاج لجدل أو مناقشة. من أجل ذلك سجد الملائكة كلهم تقديرا لأمر الله. كيف تم ذلك؟ ومتى؟ كل أولئك غيب من غيب الله.

الغيب ما غاب عن الإدراك، والغيب المطلق ليست هناك مقدمات تدل عليها إلا صاحبها..

كان من المؤكد والله يأمر أن يسجد إبليس، وأن يمتثل لأمر الله، ولكنه الحسد والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين فى آدم،

والذى يستحق هذا التكريم وهو الرد القبيح الذى يصدر عن الطبيعة التى تجردت من الخير كله فى هذا الموقف المشهود..

إن الجمع فى حضرة الله، وكان يكفى هذا أن يكونوا فى الحضرة الإلهية فيستجاب لكل ما يصدر من أمر إلهى عال، وهنا جاء الأمر بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح: ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ص:٧٨]

والغريب أن إبليس يعرف قدر الربوبية والألوهية، ويطلب من ربه هذا الطلب، ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص:٧٩]. والغريب أيضا أن الله يستجيب له ويجيبه لطلبه، ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص:٧٩-٨٣]

ويستجب له الله، ولكن انظر: إنه يشهد بعزة الله وقوته التى لا تقهر، إبليس يشهد "فبعزتك" قسم وشهادة بأنه الرب المعبود "قال رب" ثم يشهد بأن لله عبادا صالحين مخلصين، لا سلطان لأحد عليهم، فهم فى رعاية الله وعونه وحفظه: "إلا عبادك منهم المخلصين".

وهنا فى نهاية هذا الحوار يأتى القول الفصل من الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص:٨٥]

إن عباد الله المخلصين لا خوف عليهم، وهم فى رعاية الله وفى نعيمه ورضوانه وجنته، وفى جهنم متسع لإبليس ومن تبعه من الناس أجمعين.. وهى المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم، يخوضونها على علم..

إن كلام الله سبحانه وتعالى مع الملائكة ينحصر فى خلق آدم واستخلافه، ولم يكن قبل آدم إلا الملائكة والجن الذى عاش فى الأرض فسادا، وقتل كثيرا.. ولذلك استنكر الملائكة أن يكون هناك خليفة يفسد فى الأرض ويعيث فيها، وهو ما يعلمونه عن الجن. وسؤال الملائكة لله : "أتجعل فيها من يفسد فيها" سؤال استفهام وتعلم، وليس سؤال اعتراض أو كبر..

والله سبحانه وتعالى هو الطرف الأعلى فى الحوار، وهو تعالى لا يراجع إلا إذا أجاز لمن شاء من خلقه، وأن يراجع على سبيل التعليم أو الإلزام.

إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة فى الكيان البشرى، فطرة أودعها الخالق فى هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته.

إنها قضية الفطرة والعقيدة تتمثل فى هذا المشهد الفريد، مشهد الذرية المكنونة فى عالم الغيب، المستكنة فى ظهور بنى آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود تؤخذ فى قبضة الخالق فيسألها "ألست بربكم" فتعترف له سبحانه- بالربوبية ، وتقر له سبحانه- بالعبودية، وتشهد له – سبحانه – بالوحدانية ، وهى منثورة كالذر، مجموعة فى قبضة الخالق العظيم.

إنه مشهد كونى رائع باهر، وإنه لمشهد عجيب فريد- خلايا لا تحصى تجمع وتقبض وتخاطب خطاب العقلاء، وتستجيب استجابة العقلاء، فتعترف وتقر وتشهد، ويؤخذ عليها الميثاق فى الأصلاب..

كيف كان هذا المشهد؟ وكيف أخذ الله من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم "ألست بربكم" وكيف أجابوا: "بلى شهدنا"؟

كل هذا الذى نتساءل عنه، وعن كيفيته، وما هى لغة الخطاب فيه، وكيف تم ذلك؟ إنه غيب كذات الله، ولا يملك الإدراك البشرى أن يدرك كيف تم ذلك؟ وما طبيعة هذا الخطاب، واللغة التى تم بها الاستجواب..

إنها أفعال من ذات الله، ولا يمكن لنا أن ندركها.. لنا أن نفكر فيها، وأن نتأملها دون أن نحكم عليها، فكل فعل ينسب لله سبحانه لا مُناص من التسليم بوقوعه دون محاولة إدراك كيفيته، والله ليس كمثله شيء، فلا سبيل إلى إدراك ذاته، ولا إلى إدراك كيفيات أفعال.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢]

هذا العهد الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم هو عهد الفطرة.

وجاءت نشرة الإنسان الأولى من طين، ثم جعل الله نسله من سلالة

من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.

ما أضخم الرحلة، وما أعظم المعجزة التى يمر عليها الناس غافلين.. إنها يد الله المبدعة تصنع هذه المعجزة.. إنها يد الله التى سوت هذا الإنسان، وإنها النفخة من روح الله فى هذا الكيان..: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة:٩]

إنها النفخة من روح الله التى جعلت من هذا الكائن العضوى إنسانا ذا سمع وذا بصر وذا إدراك إنسانى مميز من سائر الكائنات العضوية الحيوانية..

إن الإنسان يمر بأربعة مراحل منذ نشأته إلى أن يلقى الله:

المرحلة الأولى: مرحلة الذر هذه التى فطر الله الناس عليها، وفيها تتمثل قضية التوحيد والشرك..

المرحلة الثانية: هى مرحلة سعى الإنسان فى الحياة الدنيا بما نعرفها منذ البداية حتى النهاية.

المرحلة الثالثة: وهى مرحلة البرزخ بعد أن يموت الإنسان، فيكون بين موته وبين اليوم الآخر برزخ. ويسمى عالم الموتى فى قبورهم "أهل البرزخ".

المرحلة الرابعة: مرحلة البعث يوم القيامة، والناس يعرضون على ربهم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وتباينهم، وكل إنسان طائره فى عنقة، ويخرج له الله كتابا يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا..

هكذا، جمعت كل الآيات التى جاءت فى سور القرآن الكريم حول آدم، وقصة البشرية الكبرى، وحول معركة الإنسان والشيطان، وانتصار الحق على الباطل. وقدمت هذه الآيات فى مواضع مختلفة من هذا المؤلف وحسبنما ذكرت فى السور القرآنية، وقمت بالتعليق عليها، وإن كان العرض مكرورا، لكنه يحمل بعض اللقطات التى تختلف عن غيرها فى كل موضع، وتشير إلى معنى جديد يختلف عن غيره، وإن كان مكملا له، فكل مشهد له ومضاته بحيث لو جمعت هذه الومضات بعضها إلى بعض، فهى تكون فى النهاية الشعلة التى تحملها للأجيال لتستضئ بها، وتنير لها الطريق نحو الهداية والرشاد، ولتقف على سر الخلق، وكنه الحياة، ومعرفة الثمرة المرجوة من هذه الرحلة العجيبة فى الكون كله..

البشرية الأولى:

يعهد الله لآدم وزوجه بأمره فى حياتهما، لتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسى، الذى خلق الله له هذا الكائن، وهو دور الخلافة فى الأرض – كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]

يكلم الله الملائكة، وهم أول من كلمهم الله، ويخبرهم ويعلمهم عن دور الخلافة في الأرض.. ليكون أمر الله فى النشأة وفى الحياة..

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف:١٩]

يكلم الله آدم ويأذن له ولزوجه بالمتاع الحلال، لتبدأ البشرية بهذا الأمر الإلهى، ووصى بالامتناع عن المحظور، ولابد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد، وأن يدرب نفسه على ضبط رغباته وشهواته، وأن تكون له إرادة، يستعلى بها على هذه الرغبات والشهوات.. هذه هى خاصية الإنسان، التى يفترق بها عن غيره، ويتحقق بها فيه معنى "الإنسان".

ويأتى دور إبليس، ذلك المتمرد، فراح يداعب شهوات الإنسان ورغباته: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف:٢٠-٢١]

وهكذا وسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتها.. فهذا كان هدفه : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠]

يداعب رغائب الإنسان الكامنة.. إنه يحب أن يكون خالدا لا يموت أو معمرا أجلا طويلا كالخلود، ويحب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير المحدد.

ونسى آدم وزوجه – تحت هذا التأثير – أنه عدوهما الذى لا يمكن أن يدلهما على خير، وأن الله أمرهما أمرا عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها، وأنه لا يكون شيء إلا بقدر من الله، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذى لا يبلى فلن ينالاه "نسيا هذا كله، واندفعا يستجيبان للإغراء، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف:٢٢]

لقد تمت الخدعة، لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا؛ ولقد شعرا الآن أن لهما سوآت، وسمعا عتاب الله وتأنيبه لهما على المعصية، وعلى إغفال النصيحة: "وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين". فكيف كان النداء، وكيف سمعاه، فهو كما خاطبهما أول مرة، وكما خاطب الملائكة، وكما خاطب إبليس... كلها غيب لا ندرى عنه إلا أنه وقع، وأن الله يفعل ما يشاء..

وأمام هذا النداء العلوى، يتكشف الجانب الآخر فى طبيعة هذا الكائن المتفرد، إنه ينسى ويخطىء.. إن فيه ضعفا يدخل منه الشيطان. إنه لا

يلتزم أبدا ولا يستقيم أبدا، ولكنه يدرك خطأه، ويعرف زلته، ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة.. إنه يتوب ويعود إلى الله ويرجع، لا يلح كالشيطان فى المعصية، ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية.. ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣]

إنها خصيصة الإنسان التى تصله بربه، وتفتح له الأبواب إليه... الاعتراف والندم والاستغفار، والشعور بالضعف، والاستعانة به، وطلب رحمته، مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته .. وإلا كان من الخاسرين. ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف:٢٤-٢٥]

وهبطوا جميعا.. هبطوا إلى هذه الأرض، هبطوا جميعا ليصارع بعضهم بعضا، وليعادى بعضهم بعضا، ولتدور المعركة بين الخير والشر، وليتم البلاء، ويجرى قدر الله بما شاء..

وكتب على آدم وذريته أن يستقروا فى الأرض، ويستمتعوا بما فيها إلى حين، وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا، ثم يخرجوا منها فيبعثوا.. ليعودوا إلى ربهم فى نهاية الرحلة الكبرى..

لقد جعل الله الأرض مقرا صالحا لنشأة الإنسان، خلق له كل شيء قبل أن يخلقه، وأوجد له أسباب الحياة على هذه الأرض، بجوها وتركيبها

وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر، ودورتها حول الشمس، وميلها على محورها، وسرعة دورتها، والله قد أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته، وبنمو هذه الحياة ورقيها معها.

وهذا الذى جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض، قادرا على تطويعها واستخدامها، بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها فى حاجته.. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف:١٠]

وتبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة، تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان فى احتفال مهيب، فى رحاب الملأ الأعلى.. يعلنه الله زيادة فى الحفاوة والتكريم، وتحتشد له الملائكة..

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ
إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ
فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ
لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف:١٨]

مشهد خطير، وحوار مثير.. حوار بين الله وملائكته، بالقول لهم، والملائكة خلق آخر من خلق الله، لهم خصائصهم ووظائفهم، وهم أول من كلمهم الله لأنهم الخلق الأول، ولا نعلم عنهم إلا ما أنبأنا الله من أمرهم.. هؤلاء الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، كلمهم الله أن يسجدوا لآدم فقد سجدوا مطيعين منفذين لأمر الله، لا يترددون، ولا يستكبرون ولا يفكرون فى معصية.. هذه طبيعتهم، وهذه خصائصهم، وهذه وظيفتهم.. وهنا تتمثل الطاعة المطلقة فى ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله..

وكان الحوار مع أبليس أيضا شيئا مثيرا، والكلام معه أمر يستوقف المرء عنده، ويستوجب دراسته ومناقشته وتحليله، فإذا كان الله تعالى قد أجرى حوارا مع إبليس، يكلم أبليس، ويكلمه أبليس، وإبليس خلق غير الملائكة لقوله تعالى : ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ ، فهم خلق آخر كذلك غير الملائكة، لا نعلم عنهم كذلك إلا ما نبأنا الله من أمرهم، وإبليس خلق من نار فهو من غير الملائكة بلا جدال، وإن كان قد أمر بالسجود لآدم فى زمرة الملائكة، فى ذلك الحفل العظيم الذى أعلن فيه الملك الجليل ميلاد هذا الكائن الفريد..

إبليس يكلم الله، والله يكلمه، يكلم الله وقد امتنع عن تنفيذ أمر الله – سبحانه– وعصاه.. ما الذى حاك فى صدره، وما التصور الذى سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه، وهو يعرف أنه ربه وخالقه، ومالك أمره، وأمر الوجود

كله، لا يشك فى هذا كله؟

لقد حكم إبليس نفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ وهو يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذى لا يقع فى هذا الوجود شيء إلا بإذنه وقدره، ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه، بمنطق من عند نفسه.. فكان الجزاء العاجل الذى تلقاه لتوه: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف:١٣]

إن علمه بالله لم ينفعه، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه، فهو لم يكن ينقصه العلم، ولم يكن ينقصه الاعتقاد.

لقد طرد من الجنة، وطرد من رحمة الله، وحقت عليه اللعنة، وكتب عليه الصغار.. ولكنه لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب، ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم، ثم ليؤدى وظيفته وفق طبيعة الشر التى تمخضت فيه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

إن الإصرار المطلق على الشر، والتصميم على الغواية.. إنه الشر الأصيل العامد القاصد العنيد...

لقد كلم إبليس ربه وسأله أن ينظره إلى يوم البعث، والغريب أن الله يستجيب إلى طلبه فى الإنظار، ولكن إلى "يوم الوقت المعلوم"، وكان يمكن ألا يستجيب الله لطلبه وهو المعاند المصر على عناده، ولكن نشاء حكمة الله أن يدع هذا الشر فى الدنيا، حتى يميز الخبيث من الطيب، ويعرف المصدق من غير المصدق.. من أجل ذلك أعلن إبليس أنه سيرد على تقدير الله له بأنه سيغوى من يلقاه من بنى الإنسان.. تقدير الله له الغواية وإنزالها به، بسبب معصيته "فبما أغويتنى" يعنى فلأنك جعلتنى مختارا فإنى اخترت المعصية، واخترت أن أغوى ذلك المخلوق الذى كرمته، والذى بسببه كانت مأساتى ولعنى وطردى..

إنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم، يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه، وأنه سيأتى البشر من كل جهة، للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة.. وهو مشهد حى شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر فى محاولته الذاتية لإغوائهم، فلا يعرفون الله، ولا يشكرونه، اللهم إلا القليل الذى يفلت ويستجيب: "ولا تجد أكثرهم شاكرين".

لقد استجاب الله لإبليس، وأجيب إلى ملتمسه، لأن قدرة الله – سبحانه– اقتضت أن يترك الكائن البشرى يشق طريقه، بما ركب فى فطرته من استعداد للخير والشر، وبما وهبه من عقل "وهديناه النجدين"، وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدى الرسل.. كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية وأن يصطرع فى كيانه الخير والشر، وأن ينتهى إلى إحدى النهايتين..

ولذلك كانت استجابته لإبليس.. ولكنه يعلن طرد إبليس لا معقب عليه، طرده مذموما مقهورا، وأن يملأ جهنم منه وممن يتبعه من البشر.

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ لقد جعل الله - سبحانه - لإبليس فرصة الإغواء، وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقا للابتلاء، الذى قضت قدرته أن تأخذ به هذا الكائن، وتجعله به خلقا متفردًا فى خصائصه، لا هو ملك ولا هو شيطان، لأن له دورا آخر فى هذا الكون، ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان..

إبليس :

إبليس: وكان اسمه عزازيل.

أبلس من رحمة الله: أى يئس.

وأبلس فلان: إذا سكت غما.

الإبلاس: الانكسار والحزن.

وقد جاء ذكر إبليس فى القرآن فى غير موضع من السور، وقد عصى الله حين أمره بالسجود لآدم.

وقد جاء خلق الشيطان سابق للإنسان فى الخلق.. أما كيف هو، وكيف كان خلقه؟ فذلك شأن لا نستطيع أن ندلى فيه بدلو- وإن كنا ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحِجر:٢٧]

وقد عنى بالجان إبليس، أبو الجن، خلق من قبل آدم عليه السلام من نار السموم التى تقتل بحرها..

وكان الجن من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن.. وقيل لهم جن لأنهم استجنوا، أى استخفوا عن عيون بنى آدم.

ومن هنا يمكن أن نعرج إلى ما يقرره الإسلام عن حقيقة الجن، فهم لهم حقيقة موجودة فعلا. ومنهم الصالحون، ومنهم الضالون المضلون،

وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم، بل يرهقونهم، وأنهم لا يعلمون الغيب، ولم تعد لهم صلة بالسماء، وأنهم لا صهر بينهم وبين الله سبحانه وتعالى – ولا نسب. وأن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة.

وقد سخرت طائفة من الشياطين لسليمان، وأن إبليس وقبيله من الجن، وكيان الجن غير مرئى للبشر، فى حين أن كيان الإنس مرئى للجن: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن:١٥]

وإذا كان إبليس قد كلمه الله، واستمع إليه وهو يكلمه، إلا أنه لم يكن لعالم الجن اتصال بالسماء، أو كلام مع الله.

وإن كان فى مقالة الجن التى أوحى بها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما يشهد بوحدانية الله، ونفى المصاحبة والولد، وإثبات الجزاء فى الآخرة، وأن جزاءه عادل. وهذه الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده، وأن العبودية هى أسمى درجة يرتفع إليها البشر.

والغيب موكول لله وحده، لا تعرفه الجن، وإن كانوا يدعونه حتى دلت الأرضة على موت سليمان الذى كانوا فى خدمته، فوقعت عصاه التى كان يتوكأ عليها، وكانوا يحسبونه حيا. فلما خر سليمان ساقطا بانكسار منسأته تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين من الخدمة حولا كاملا بعد موت سليمان.

لكن مع هذا فقد قالت الجن حين استمعت إلى القرآن: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا

﴿سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾

ثم نزلت الآية بالوحى على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإنما أوحى إليه قول الجن...

وقيل : إن الجن لما استمعت إلى سورة الرحمن، كلما ذكر قول الله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ، قالت الجن: ولا بشيء من نعمائك ربنا نكذب فلك الحمد.. يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢]. والله يوجه عتابه إلى المنكرين: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾ [الانشقاق:٢٠-٢١]

يقول الحق: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ

الله يقول للملائكة، يخاطبهم، يناديهم.. أين قال، وكيف قال، وبأى لغة كان الكلام؟. كل أولئك علمه عند الله، وهو غيب، ليس علينا إلا أن نؤمن به ونصدقه، ولكن ما يهمنا أنه قد تم بين الله وملائكته- كلام..

ولماذا الملائكة ليعلموا كنه الإنسان الذى اختاره الله ليكون خليفة فى الأرض. هذا الإنسان خلق من سلالة من طين، وخلق من سلالة من ماء مهين، وأن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض، ومن عناصره الرئيسة التى تتمثل بذاتها فى تركيب الإنسان الجسدى، وتركيب الأحياء أجمعين، وأن هناك أطوارا تشير إليها كلمة "سلالة".

على أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله، أما طبيعة الشيطان فبقيت من نار السموم، فهى روح الله تنقل هذا التكوين العضوى الوضيع إلى ذلك الأفق الإنسانى الكريم.

قال الله للملائكة، وقوله تعالى إرادة، وتوجه الإرادة ينشئ الخلق المراد، فحقيقة تكوين الإنسان يقررها القرآن. أما كيف تلبست نفخة الأرض الأزلى الباقى بالصلصال المخلوق الفانى.. فهذا جدل لا نخوض فيه، وإنما هى إرادة الله – سبحانه-.

أمر الله ملائكته أن تسجد لهذا المخلوق من البشر، فسجدوا جميعا إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين.

وإبليس خلق آخر غير الملائكة، فهو من نار، وهم من نور، فلا غرابة أن يأبى إبليس وأن يعصى ويتكبر، والملائكة من طبيعتهم الطاعة.

وما يهمنا هنا هو الذين كلمهم الله والذين كلموه. لقد كلم سبحانه الملائكة فهم أحباؤه، وكلم الصالحين فهم عباده، وأوحى إلى الرسل وإلى غيرهم ممن يختار، فهم أصفياؤه، أو اختارهم لنفسه. أما أن يكلم الله إبليس، ويكلمه إبليس، فهذا هو الذي يحتاج إلى وقفه.. فقول الله تعالى له: "ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك" قاطع فى أن الأمر قد صدر له، وليس من الضرورى أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة، فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم. وقد يصدر إليه منفردا.

ولا يذكر تهوينا لشأنه، وإظهارا للملائكة فى الموقف. ولكن من المؤكد أنه ليس من الملائكة: "قال يا أبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون". تلك منهجية المستكبرين الذين يتصورون أنهم فوق البشر، وأن البشر دونهم. طبيعة نشاهدها فى كل زمان وكل مكان، فطبيعة الغرور والاستكبار والعصيان من طبيعة الشياطين الأشرار الذين فقدوا عقولهم، وأعانتهم أموالهم وقوتهم على الظلم والفساد والاستبداد.

فإبليس يتشامخ برأسه المغرور يقول: لا أسجد لبشر خلقه الله من طين، ومن شأنى العظمة لأنى خلقت من نار.. تماما كما يحدث بين طبيعتين فى حياتنا اليومية، فيتبجح الثانى على الآخر أنه من نسل كذا وكذا، وأنه ابن

جلا وسوف يكيل له فيها بعد، ولسوف يرى أنه عظيم، وأنه من وسط غير وسطه ومن فئة غير فئته، وأنه من أصل ذى حسب ونسب، وسطة لم يبلغها مثله أحد.

ومع ذلك فإن إبليس يطلب من ربه الانتظار بعد أن طرده ملعونا إلى يوم الدين، جزاء العصيان والشرور.. وإنك لتسمع كلا ما يحار العقل فيه: "قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون"... ما هذا الأدب؟ إنه يعترف بربوبيته، وأنه رب خالق منعم، فلم هذا الجحود إذن والنكران؟ أهى طبيعة الأشرار، أم هو التعالى والكبرياء..

المهم إبليس يطلب من الله النظرة إلى يوم البعث. لا يندم على خطيئته فى حضرة الخالق العظيم الذى اعترف بربوبيته، وبأنه مالك الملك، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم، ولكن يريد أن ينتقم... ويرد الله على كلامه، ويجيبه لطلبه "قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم". وكان من الممكن ألا يجيبه الله لما يريد، لكن شاء ذلك لحكمة مفادها أن الناس مختارون كإبليس الذى جعله الله مختارا كما قال: "بما أغويتنى" أى فأنت الذى جعلتنى مختارا، فاخترت طريق الغواية والضلال، وتركت طريق الهدى والرشاد. والناس كذلك خلقوا مختارين، فمنهم من يهتدى، ومنهم من يضل.. وهديناه النجدين.

ما هذا الوقت الذى استغله إبليس فى كلامه مع الله عن طريق كثرة الأسئلة وينتظر الرد عليها؟ وكان يمكن أن يكتفى بسؤال واحد.. ألأنه أراد

بذلك أن يطول كلامه مع الله، فيثبت أن الله استجاب له فى كل ما طلب. أم أنه من خلق غير خلق البشر، فله خصوصية عند الله؟

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحِجر: ٤٠]

ويحدد إبليس ساحة المعركة.. إنها الأرض. وحدد عدته فيها.. إنه التزيين والإغراء. فليفطن الناس إلى عدة الشيطان، وأن يتصلوا بالله ويعبدوه فليس للشيطان سطة على عباد الله المخلصين.

يقرر إبليس ذلك، وهو يدرك ألا سبيل إلى سواه لأنه سنة الله، أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه، وأن يحميه ويرعاه، ومن ثم كان الجواب: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحِجر: ٤١-٤٢]، أما العاقبة فهى فى قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحِجر: ٤٣]

ومع مشهد إبليس الملعون، يهدد ويتوحد، فبعد أن قال الله للملائكة- يأمرهم ويتكلم معهم- اسجدوا لآدم، لهذا الذى خلقت بيدى، فسجدوا- والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم. إلا أن أبليس- ولعله كان ضمن الملائكة- قال فى سؤال تعجبى أأسجد لمن خلقت طينا- ومن السياق نلحظ أنه قال لله – وإلا لمن قال؟ وهذا القول كلام، الله يقول للملائكة، والملائكة تطيع، وإبليس يرد على القول بقول مثله مستنكرا هذا الأمر، ومعترضا على

السجود لبشر خلقه الله من طين، وهو خلق من نار. ومن أجل ذلك هو عظيم ولا يسجد لشخص أقل منه. إنه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين، ويغفل نفخة الله لهذا الطين، ولنسمع قول الله حول هذا المشهد: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦١-٦٥]

وأبى إبليس للانصياع لأمر الله، فلن يسجد لهذا المخلوق، الذى يعرض بضعفه واستعداده للغواية: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أترى هذا المخلوق الذى جعلته أكرم من عندك، تبجح فى الكلام، وتطاول على الله، ثم يطلب ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلأ ستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم، وأجعلهم فى قبضة يدى أصرف أمرهم.. ونسى قدرة الله، ويغفل عن استعداد الإنسان للخير والهداية، وأن الله إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فإذا أراد خيرا لأحد فلا راد لحكمه. وإذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

وإذا كان الإنسان لديه استعداد للشر والغوية، فهو أيضا لديه نفس الاستعداد للخير والهداية، وهذا يرجع إلى الاتصال بالله من عدمه. فإذا اعتصم بالله ارتفع وسما، وإذا تخلى عن الله، تخلى الله عنه، وكان الشيطان قرينة.

وتشاء قدرة الله وإرادته أن يطلق الزمام لرسول الشر والغواية، يحاول محاولته مع الإنسان: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾

اذهب فحاول محاولتك. اذهب مأذونا فى إغوائهم، فهم مزودون بالعقل والإرادة يملكون أن يتبعوك، أو يعرضوا عنك" فمن تبعك منهم" مغلبا جانب الغواية فى نفسه على جانب الهداية، معرضا عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان، غافلا عن آيات الله فى الكون، وآيات الله المصاحبة للرسالات: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أنت وتابعوك ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾.

ولإبليس أن يستخدم وسائله كلها فى إغواء البشر " وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا" فلتغوى من تشاء، ولكن هناك من لا سلطان لك عليهم لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن بطشك وغيك ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ فمتى اتصل القلب بالله، واتجه إليه بالعبادة، متى ارتبط بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها. متى أيقظ فى روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت.. فلا سلطان

حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان "وكفى بربك وكيلا" يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان.

ولقد تكررت مشاهد إبليس فى هذه المعارك، وعرض القرآن لها فى غير موضع من سوره، ذلك ليذكرنا دوما بطاعة الله، ويحذرنا من الشيطان، وأن من يطع الله ورسوله، فهو فى منجاة من الشر والهلاك.

وإنك لتعجب وأنت تشاهد هذه اللقطات عن الحوار الذى بين إبليس وبين الله وملائكته، وأن أبليس يعترف بربوبية الله، ويؤمن باليوم الآخر، ويدرك أن الله الذى خلقه، وخالق كل شيء قادر على أن يعطى ويمنع، وكان يمكن أن يمنع إبليس من هذا الذى رأينا كله، ولكنها إرادة الله أعطاه ما أراد، وتركه يعيث فى الخلق فسادا ليبلو الناس، فمنهم مؤمن، ومنهم عاص. ولن يلق الخير كله فى الحياة الدنيا والآخرة إلا من اتقى الله ورعاه.

وينطلق الشيطان ينفذ وعيده، ويستذل عبيده، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن، فماله عليهم من سلطان. ذلك ما يبيته الشيطان للناس من شر وأذى، ثم يوجد فى الناس من يتبع هذا الشيطان، ويستمع إليه، ويعرض عن نداء الله له وهدايته. والله رحيم بالعباد يعينهم ويهديهم وييسر لهم المعاش، وينجيهم من الكرب والضر، ويستجيب لهم فى موقف الشدة والضيق، ثم إذا هم يعرضون ويكفرون.

ويأتى من بنى آدم ومن يتخذ ذرية إبليس أولياء من دون الله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]

ونعود للقصة مرة أخرى، ونكرر كلام الله لملائكته بأمر السجود لآدم، وهم مطيعون له فسجدوا ماعدا إبليس، فقد كان من الجن، فأخذته العزة بالإثم، وعصى ربه، وفسق أى خرج عن أمر ربه- واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل فى تلبيته دواعى المعصية، والتولى عن دواعى الطاعة، ولماذا يتولون أعداءهم هؤلاء، وليس لديهم علم، ولا لهم قوة، فالله لا يتخذهم عضدا فتكون لهم قوة.

شياطين الجن والإنس يعتمدون على ما فى التكوين البشرى من نقاط الضعف.. شياطين الجن والإنس يزيدون فى الضلال، لا يكلمون ولا يسأمون ولا يسكتون.

وإذا رأيت الشر يهاجم أحدا فتلك شهادة بأن من يهاجمه رجل صالح من الذين يحبهم الله. أما إذا هاجم الصلاح شخصا فاعلم أن الشخص على ضلال، وعلى ذلك فالشيطان جندى من جنود الإيمان.

نوح:

ذكر نوح فى القرآن ثلاثا وأربعين مرة فى ثمان وعشرين سورة، وله سورة كاملة باسمه. وهو على رأس قائمة أولى العزم من الرسل ترتيبا: نوح- إبراهيم - موسى - عيسى - محمد.

جده الأعلى آدم، وجده الأقرب إدريس، الذى رفعه الله مكانا عليا فى السماء الرابعة.

كان بين آدم ونوح عشرة قرون- كما جاء فى صحيح البخارى ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما-.

وكان نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد الطوفان، وهو من أطول الأنبياء عمرًا وأشدهم بلاء، وأوسعهم صبرا، كان كثير الشكوى لله عز وجل وكان من القانتين.

عرض على قومه وهو يدعوهم كما جاء فى سورة: الأعراف ويونس وهود والمؤمنون والشعراء، وهم يكذبونه بعد أن واجههم بحجته الواضحة، ومنطقه السليم، ولم يجد بد من أن يتوجه إلى الولى الوحيد، والناصر الفريد، الذى لا ملجأ سواه للمؤمنين، فنادى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨] واستجاب الله لنبيه الذى يتهدده الطغيان بالرجم، لأنه يدعو الناس إلى تقوى الله، وطاعة رسوله، لا يطلب على ذلك أجرا،

ولا يبتغى جاها ولا مالا: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:١١٩-١٢٠]

وهكذا استجاب الله لنداء نوح، وهو يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والطغيان فى فجر البشرية: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾.

لقد أوحى الله إلى نوح بأن القلوب المستعدة للإيمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها إستعداد ولا اتجاه، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والممتنع، فلم يبق مجال للمعنى فى دعوة لا تفيد، ولا عليك بما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحد واستهزاء. ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود:٣٦-٣٨]

لا تحس بالبؤس والقلق، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذى كان منهم- دع أمرهم فقد انتهى – لقد تقرر مصيرهم، وانتهى الأمر فيهم، فلا تخاطبنى فيهم، لا دعاء بهدايتهم، ولا دعاء عليهم.

ويصنع نوح الفلك برعاية الله وعلمه وتعليمه، وتحمل من آمن معه، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال، ونادى نوح ابنه ليركب معه، فأبى وقال: سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء، وترسو السفينة رسو استقرار على جبل

الجودى.

وتستيقظ فى نفس نوح لهفة الوالد المفجوع: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود:٤٥]

لقد وعدتنى بنجاة ابنى، ووعدك الحق، وهو من أهلى، قالها يستنجز ربه وعده فى نجاة أهله. وجاءه الرد بالحقيقة التى غفل عنها- فالأهل- عند الله ليسوا قرابة الدم، إنما هم قرابة العقيدة، وهذا الولد لم يكن مؤمنا، فليس إذن من أهله، وهو النبى المؤمن. جاءه الرد فى قوة وتقرير وتوكيد: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود:٤٦]

نوح ينادى ربه ويدعوه، والله يستجيب له ويرد عليه. ما أروع هذا التخاطب بين ذات الجلال، وبين عبد من عباده، فى أمر من أمور الدين والعقيدة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود:٤٧]

وأدركت رحمة الله نوحا تطمئن قلبه، وتباركه هو والصالح من نسله، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود:٤٨]

وكانت النجاة والبشرى لنوح، ولمن يؤمن من ذريته، والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا، ثم يمسهم العذاب الأليم.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود:٤٩]

تقرير بحقيقة الوحى التى ينكرها المشركون، فهذا القصص غيب، ما كان يعلمه النبى، وما كان معلوما لقومه، إنما هو الوحى من لدن حكيم خبير.

فى هذا المشهد، مشهد سفينة نوح وهى تجرى بهم فى موج كالجبال، ينادى نوح ابنه- بكلمة – يا بنى اركب معنا، ويأتيه الرد من ابنه، قال: – يكلمه – أيضا، سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء، ويفصل بينهما حقيقة الإيمان مع هذا القول: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾

ويأتى نداء آخر من نوح بعد أن استوت السفينة على الجودى- كلام بينه وبين ربه – الأول كان كلاما بينه وبين ابنه فى هذه المعركة، ثم كلام بينه وبين الله- من وراء حجاب- "ونادى نوح ربه- كلمه – قال: رب إن ابنى من أهلى" وفى روعة الخطاب من الحق تبارك وتعالى مع نوح يعلن له النتيجة، وهو يناديه باسمه : قال يا نوح إنه ليس من أهلك" ولا تسألنى ما ليس لك به علم لأنه عمل غير صالح.

ويستمر الحوار فى روعته، وفى أدب جم، يرد نوح على الله فى غير

تباطئ: "قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم" وتنتهى بلاغة الخطاب، وروعة الكلام بفعل مبنى للمجهول: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لتدرك بالعقل البشرى، المخلوق على الفطرة أن القائل هو الله سبحانه جل جلاله. وهذا الذى يقصه علينا القرآن هو غيب يوحيه الله لرسوله، ويعلمه به ليكون ذكرى للعالمين.. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾
وصدق الله : إن العاقبة للمتقين ..

لقد أرسل نوحا إلى قومه يدعوهم إلى كلمة الحق التى لا تتبدل، ولكنهم ينكرونها: إن هو إلا رجل به جنة. عندئذ لم يجد نوح- عليه السلام – له موئلا إلا أن يتوجه إلى ربه وحده، يشكو إليه ما لقيه من تكذيب، ويطلب النصر : "قال رب انصرنى بما كذبون" "فأوحى الله إلى نوح الذى دار بينه وبين الله مناجاة.. أوحى إليه- أعلمه بخفاء- أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا، أيضا بمشيئة الله وبطلاقة قدرته، وبوحيه، وليُصنع الفلك إذن بيد نوح، لأنه لابد للإنسان من أن يأخذ بالأسباب ثم يأتى المدد بعد ذلك. وقد كان : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾

وسارت السفينة، وأغرق الله الذين ظلموا، وتوجه نوح إلى الله يحمده، ويعترف له بآياته..

انظر لهذا المشهد، سفينة فى عرض البحر، تحمل عليها الذين صدقوا نوحا وآمنوا به، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال. ونوح يرى ابنه أمامه، وقد أعرض عن أن يكون معهم، لكن نوحا يرى ابنه وهو فى معزل عنه فيناديه فى أدب جم: يا بنى: هو ابنه ونوح أبوه، والحوار بين الأب وابنه يكشف عن حنان الأبوة، والاشفاق على أبنائه.. يا بني اركب معنا.. تعال معنا حتى تنجو من الهلاك والغرق، ولكن الابن يعصى أباه، ويقول له سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء..

ولم يسكت نوح – عليه السلام – هو خائف على ابنه، يريد له النجاة، ويتمنى له السلامة فيدعو ربه، وهو قريب منه: يا رب ابنى من أهلى، فنجه يا رب وسلمه..

يتضرع إلى الله سبحانه أن يكشف الغمة عن ابنه، ويرد عليه الله، يا نوح إن ابنك ليس من أهلك. ليس على دينك، وهو قد ارتضى لنفسه هذا المصير. فلا تبتأس، وتوكل على الله.

وحال الموج بين نوح وابنه، وغرق ابن نوح فى هذا المشهد العجيب، المشهد الذى يكشف عن فطرة الأبوة، وعن حب الله لعباده الصالحين، فيكتب لهم النجاة والسلامة، ويهلك العصاة الكافرين، الذين ينكرون قدرة الله، ويكذبون بما جاء به الرسل من هداية الأقوام والأفراد.. ويسلم نوح بأمر الله، فهو أعلم بما يفعل، ويفعل ما يشاء، وفى فعله خير ولكن لا تشعرون..

نوح نادى ربه، وتوجه إليه بالكلام. وإجابة دعوته إجابة كاملة وافية: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الصافات:٧٥-٨٢]

وتتضمن نجاته هو وأهله من الكرب العظيم - كرب الطوفان- فقد كان من المحسنين، وكان من عباد الله المؤمنين "سلام على نوح فى العالمين" وأى جزاء بعد سلام الله، والذكر الباقى مدى الحياة..

نوح يرسله الله إلى قومه فيكذبوه، فيتوجه إلى ربه - وهو الذى يعلم مكانته وقدره عند الله- يشكو إليه ما آل إليه حاله مع قومه، ودعاه أنى مغلوب، فاستجاب له الله، ونجاه من قومه هو ومن آمن معه ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:٩-١٥]

لقد أوذى نوح، فعاد إلى ربه يدعوه، ويقول : انتهت طاقتى، انتهى جهدى، انتهت قوتى، وغلبت على أمرى، فانتصر لى يا رب، انتصر لدعوتك، انتصر لحقك، انتصر لمنهجك، انتصر أنت فالأمر أمرك، والدعوة دعوتك، وقد انتهى دورى..

وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار حتى تشير يد القدرة الإلهية القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة، ففتحنا أبواب السماء.. وفجرنا الأرض.

وجرت به السفينة فى رعاية الله، بملاحظة أعينه، وهو جزاء فيه رعاية وتكريم.. ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [نوح:١]

وكانت دعوته هى نفسها دعوة كل الرسل: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح:٣]

ولما لم يصدقه قومه، دعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح:٦]

إنه المصدر الذى يتلقى منه الرسل التكليف، كما يتلقون حقيقة العقيدة، وهو المصدر الذى صدر منه الوجود كله، وصدرت منه الحياة. ونوح عليه السلام كان أول هؤلاء الرسل بعد آدم عليه السلام، وهو يدعو إلى عبادة الله وحده، وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة..

والله يعلم ما يلاقيه نوح من المعاناة، ولكنه يشكو إليه شكوى القلب المتعب فى نهاية المطاف يريد أن يجد فى توجهه إليه ما يؤنسه، ويخفف ما به من ألم وأذى، والله يعلم ما قام به فى سبيل الدعوة والرسالة، ولكنه

استمع إليه، وأخذ يطمئنه. استمع الله لدعائه وابتهاله إلى ربه، واستجاب الله لدعائه بعد أن استمع له: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح:٢١]

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح:٢٦]

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

إن وراثة الدين ليست مجرد وراثة العرق والدم، إنما هى وراثة الالتزام بمنهج الله، والثبات عليه عن قناعة قلبية وعقلية كاملة، وهى قناعة لابد أن يصدقها العمل الصالح، وهداية الله البشر تتمثل فيما جاء به أنبياؤه ورسله، وكل من يلتزم بهدى الله يهتدى، وكل من يحيد عنه يضل ويزيغ، فما أرسل الله تعالى أنبياءه ورسله إلا ليطاعوا، وما أنزل رسالته إلا لتحكم بين الناس بالعدل، وحتى ذرية الأنبياء، إن لم يلتزموا بهدى الله فلن ينفعهم نسب العرق والدم شيئا.

إبراهيم:

خليل الله، أول أولى العزم من الرسل رتبة لا ترتيبا، ورد اسمه فى القرآن تسعًا وستين مرة وله سورة باسمه، وجاء ذكره فى سورة: البقرة والأنعام وهود والحجر ومريم والأنبياء والحج، وغيرها لمكانته عند الله وقربه منه، واصطفاء الله له، ومناجاته له، وهنا فى سورة الشعراء، يتلو علينا الله نبأه مع قومه وهم يحاورونه فى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام، وإبراهيم يعلن عداوته للأصنام، ويأخذ فى صفة ربه وصلته به، فنحس القربى الوثيقة، والصلة الندية. وهذا الذى جعله فى حوار مع الله، والله يسمع له ويجيبه لما يطلب. وهو فى ذلك يعيش بكيانه كله مع ربه، ويتطلع إليه فى ثقة، ويتوجه إليه فى حب. وهو يصفه كما يراه، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه. فهو الذى أنشأه وهو الذى يهديه ويطعمه ويسقيه ويميته، وهو الذى يطمع أن يغفر له خطيئته يوم الدين. والعبرة هنا بعموم اللفظ، وليس بخصوص السبب، فالكلام موجه للناس جميعا، وقدرة الله تخص كل البشر فى نعمه العظيمة.. إنه إبراهيم الذى وفى:
﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم:٣٧]

وأمام هذا كله يتوجه إبراهيم الأواه المنيب إلى الله فى دعاء رخى مديد، يتوجه إلى ربه فى إيمان وخشوع ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ

﴿لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٩]

إنه دعاء القلب الذى عرف الله، والذى يرجو ويخاف. ولم ينس فى هذا الدعاء أن يطلب من ربه المغفرة لأبيه، الذى رفض دعوته، ومع ذلك تتحرك عاطفة البنوة، وفطرة الصلة والأهلية.

إنه شعور التقوى، وشعور الأدب، وشعور التحرج. ومع الدعاء من الصالحين واستجابة الله لهم فى هذا الدعاء ماعدا من لا يرضى عنهم الله: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة:١٢٤]

إن إبراهيم أمة، وهو حليم أواه منيب، أبتلى فنجاه ربه لأنه خليله، ودعاه فاستجاب له كما استجاب لغيره من الرسل والأنبياء، إجلالا وتقديرا وتعظيما لهم أجمعين..

ها هو إبراهيم إلى جوار ربه، وإلى جوار بيت الله الذى بناه فى البلد الذى آل إلى قريش، فإذا بها تكفر فيه بالله، مرتكنة إلى البيت الذى بناه بانيه لعبادة الله، إنه يرد الجاحدين إلى الاعتراف، ويرد الكافرين إلى الشكر، ويرد الغافلين إلى الذكر: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي

زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ
إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ
وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ
لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ
وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٣٥-٤١]

إن فى هذا الدعاء تسليم مطلق إلى الله، والتجاء إليه فى أخص مشاعر قلب إبراهيم. يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس فى جيله وفى الأجيال التى قبله، ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير...

وفى متابعة إبراهيم للدعاء، تبدو سمته العطوف الرحيم الأواه الحليم، فهو يكل الناس إلى غفران الله ورحمته، ثم ها هو فى دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادى المجدب القفر المجاور للبيت المحرم، وقد أسكنهم الله هناك ليقيموا الصلاة، وهذا هو الذى من أجله يحتملون الجدب والحرمان..

فالهدف إقامة الصلاة، والرزق من ثمرات الأرض، والشكر لله، وتوجه القلب إلى الله الذى يعلم السر والجهر، ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء..

ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل، فيلهج لسانه بالحمد والشكر، ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديما للشكر، الشكر بالعبادة والطاعة، ثم هو يجعل عون الله على إقامة الصلاة رجاء يرجوه، يدعو الله ليوفقه إليه، وهم ينأون عنها ويعرضون، ويكذبون الرسول الذى يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو ونبيه من بعده، ويختم إبراهيم دعاءه بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعا، يوم يقوم الحساب.

هكذا يقر إبراهيم بنعم الله، والشكر عليها، وهو نموذج للعبد الصالح الذاكر الشاكر، كما ينبغى أن يكون عباد الله الذين وجه الحديث إليهم قبيل هذا الدعاء..

إبراهيم – أبو الأنبياء– فى دعائه مع الله يناديه بربنا، أو رب، فهو خليل الله وحبيبه ومن ثم يذكر ربوبيته له ولبنيه من بعده، ولا يذكر الله سبحانه بصفة الألوهية، فالربوبية ربوبية عطاء، والألوهية ألوهية عقيدة.

والقرآن وهو يعرض على مشركى العرب دعاء أبيهم إبراهيم، والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء.

إن إبراهيم عليه السلام – وهو يدعو ربه كان موقنا بالإجابة، فالله سميع عليم، وهو الذى يستجيب لعباده الصالحين، ولا يرد دعوة داع منهم، بل عنده تكون الاستجابة الفورية.

لقد كان إبراهيم نموذجا للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله، إنه كان أمة طائعا عابدا خاشعا متجها إلى الحق، مائلا إليه، ولم يك من المشركين، شاكرًا لأنعم الله قولا وعملا، اختاره الله وهداه إلى صراط مستقيم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]

ذلك شأن إبراهيم - عليه السلام - ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا، فكان ذلك وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد. على أن إبراهيم لم يكن من المشركين، فالصلة الحقيقية هى صلة الدين الجديد، تلك عقيدة التوحيد التى جاء بها إبراهيم من قبل وكملت فى الدين الأخير.

ويمضى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى طريقه يدعو إلى سبيل ربه دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل المخالفين فى العقيدة بالتى هى أحسن: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٣٩]

إن القاعدة الكبرى التى يقيم عليها الإسلام بناء الحياة، قاعدة توحيد الله وعبادته دون سواه.

هذا هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى أوحى إليه الله

بالرسالة، وهذا هو إبراهيم من قبل، يدعو بنفس الرسالة، إبراهيم الصديق النبى، أول من دعا من الناس أباه الذى حاول معه أن يبلغه ما جاءه من العلم، وحاول أن يهديه صراطا مستقيما، وألا يعبد الشيطان الذى عصى الله، وكان إبراهيم بريئا مما يعبد أبوه وقومه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزُّخرُف:٢٦]

ومع ذلك يحاول مع أبيه، ويعرض فى حنو البنوة خوفه من أن يمسسه عذاب من الرحمن، ولم يقتنع الأب من توسلات ابنه، وإشفاقه عليه، ومحاولته الأخذ بيده إلى طريق الحق، فظن أن ابنه راغب عن آلهته- وهو كذلك- ولكنه يتوعده إن لم تنته من دعوتك لأرجمنك واهجرنى مليا.

ولم يجد إبراهيم بدا من أن يستغفر لأبيه، ويلقى عليه السلام- سلام المتاركة- ولكنه سيستمر فى دعوته عسى أن يستجاب لهذا الدعاء.

لقد وصف الله إبراهيم بأنه كان صديقا نبيا، وقد جاءت دعوته لأبيه ليس من نفسه، إنما هو العلم الذى جاءه من الله فهداه، ولو أنه أصغر من أبيه سنا وأقل تجربة، ولكن المدد العلوى جعله يفقه ويعرف الحق، فهو ينصح أباه الذى لم يتلق هذا العلم ليتبعه فى الطريق الذى هدى إليه:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ

لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٨]

إبراهيم وهو يدعو أباه إلى طريق الحق لم ينس أنه أمام أبيه، فتظهر مشاعره وأحاسيسه تجاهه فى مناداته له بـ "يا أبت" "فقد تكررت فى كل مقطع من مقاطع الدعاء.. يا أبت .. إنها توحى بحب الأبوه، وبعاطفة الأبناء تجاه آبائهم، وهو لو باستطاعته لرده عن طريقه إلى نور الله ورضوانه.. وأيضا يظهر فى الحوار فطرة الأبوة لأبنائهم، وحبهم لهم فيناديه باسمه "يا إبراهيم"... إن هذا الاسم محبب إليه، وهو ولده. من أجل ذلك كان آخر الحوار سلام من إبراهيم لأبيه- وهو سلام متاركة، وليس – سلام تحية – وأنه مع كل ذلك سيستغفر له ربه عسى أن يغفر له فهو به حفى..

تلك كانت مواقف الأبناء مع آبائهم، ومواقف الآباء مع أبنائهم.. تبدأ بالدعوة سواء من الآباء للأبناء، أو من الأبناء للآباء، ثم تنتهى باللجوء إلى الله أن يغفر ويسامح ويكتب لهم الرحمة.

ولقد جاء إبراهيم العلم من ربه، وهو مدد علوى يسوقه الله لعباده الصالحين، ويوحى به إليهم ، ليكونوا أهلا لحمل الرسالة والدعوة بها. من أجل ذلك كان إبراهيم يدعو إلى الهدى، واختص أباه بهذه الدعوة،

ولكن ماذا يفعل فى القلب الذى أفسده الكفر. لم يغضب ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه، وهذه من صفات الدعاة؛ الدين والحلم، فما بالك مع أقرب الناس إليه، لابد من الأدب، فهو لا يملك إلا أن يدعو ربه بالاستغفار، والرحمة، وأن يرزق أمثال هؤلاء المعاندين الهدى؛ وإبراهيم حين يدعو ربه يستشعر كرم الله له فى إجابة دعائه، وهنا سيترك دعاء أبيه، ويتوجه بالدعاء إلى ربه وحده، فهو لن يجعله شقيا بهذا الدعاء.. وفعلا يستجيب الله له، فلم يتركه وحيدا، بل وهب له ذرية، وعوضه خيرا.. فكان عوضا له عن أهله ودياره، وتؤنسه فى وحدته واعتزاله.

ونمضى مع ذرية إبراهيم، ومع فرع إسحق، فيذكر القرآن موسى وهارون: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا (٥١) وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا (٥٢) وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا (٥٣)﴾ [مريم:٥١-٥٣]

لقد استخلص الله موسى له، وكان رسولا نبيا. ويتقرب موسى إلى الله بعد أن ناداه الله – لدرجة الكلام من وراء حجاب – الكلام القريب فى صورة مناجاة..

وأيضا لا ندرى كيف كان هذا الكلام – وقد أوضحنا ذلك – وكيف أدركه موسى. – ونحن نعلم أن موسى هو كليم الله – فما طبيعة هذا الكلام؟ وما نوعه؟ وما طريقته؟ أكان صوتا مسموعا تسمعه الأذن – حاسة السمع وجارحته– أم يتلقاه الكيان الإنسانى كله.. ولا نعلم أيضا

كيف أعد الله كيان موسى البشرى لتلقى كلام الله الأزلى. إنما نؤمن أنه كان، وهو على الله هين أن يصل مخلوقه به بطريقة من الطرق، وهو بشر على بشريته، وكلام الله علوى على علويته، ومن قبل كان الإنسان إنسانا بنفخة من روح الله..

ونعود إلى الفرع الآخر من ذرية إبراهيم – عليه السلام – فيذكر القرآن الكريم إسماعيل أبا العرب، وكان صادق الوعد، وهو رسول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤]

وكذلك يذكر القرآن إدريس : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم:٥٦-٥٧]

والقرآن يصفه بأنه كان صديقا نبيا، ويسجل له أن الله رفعه مكانا عليا، فأعلى قدره، ورفع ذكره.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨]

فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل من بعده، وإبراهيم يشمل فرعى النبوة الكبيرين، ويعقوب يشمل شجرة بنى إسرائيل، وإسماعيل وإليه ينسب العرب، ومنهم خاتم النبيين..

موسى – كليم الله:

ولد موسى – عليه السلام – فى أوضاع قاسية– ولد والخطر محدق به، والموت يتلفت عليه، وأمه حائرة به، خائفة عليه، تخشى وتخاف عليه من الطغاة، ماذا تفعل بطفلها الرضيع. إنها عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه.. وتدخل يد القدرة، ويوحى الله إليها أن ألقيه فى اليم. كيف وهى تخاف عليه؟ أيكون فى مأمن وهو فى اليم؟ نعم.. إنه فى رعاية اليد التى لا أمن إلا فى جوارها. اليد التى لا خوف معها..

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص:٧]

الحق حينما يوحى لا ينتظر الشيطان معه فى إيحاء، وقد أوحى إلى أم موسى، قال إذا خفت على وليدك فألقيه فى اليم، فوارد الله لا ينازعه وارد شيطان، والحق حينما يريد أمرا من الأمور يجعل واحدا من الملائكة يتمثل صورة بشر...

فلا خوف على حياة الوليد، ولا حزن على بعده: "إنا رادوه إليك" ذلك وعد الله، ولا يخلف الله وعده.

لقد سمعت أم موسى الإيحاء، وألقت بطفلها إلى الماء، ولعلها سألت نفسها: كيف؟ كيف أمنت على فلذة كبدى أن أقذف بها فى اليم؟ وتمضى بنا

أحداث القصة حتى عاد موسى إلى أمه. كى تقر عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق..

ولما استوى موسى واشتد آتاه الله حكما وعلما فهو من المحسنين، وقص علينا القرآن الكريم قصته فى غير سورة من سور القرآن: البقرة والمائدة والأعراف ويونس والقصص والإسراء والكهف وطه، وبعض السور الأخرى جاءت فيها إشارات عنه، وها هو القرآن فى سورة طه يحكى لنا عنه، يقول تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا
نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا
ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ
لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾
فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا
مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ
خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ
طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾
يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ
فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ

أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا
يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى
وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا
فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ
﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ
أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن
رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه:٩-٤٨]

ها هو ذا موسى – عليه السلام – يدخل المدينة، وقتل منها قبطيا وما كان يقصد قتله، ولذلك توجه إلى ربه – وهو يعلم أنه قريب من الله – وأن الله يحبه، ولن يؤخر له طلبا، فاعترف بذنبه وطلب المغفرة من ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦]

واستجاب الله إلى ضراعته، وحساسيته واستغفاره، "فغفر له" وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف فى حرارة توجهه إلى ربه، أن ربه غفر له، والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء، فور الدعاء، حين

يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى، وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد. وارتعش وجدان موسى، وهو يستشعر الاستجابة من ربه، فإذا هو يشكر نعمة الله عليه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص:١٧] ولكنه أصبح خائفا بعد أن أنبأه رجل بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك – فطلب من ربه النجاة– يخاطبه مرة أخرى.

أرأيت بشرا يناجى الله، ويناجيه الله، ويخاف الناس.. إنه يتوجه مباشرة إلى الله بالطلب، والتطلع إلى حمايته ورعايته، والالتجاء إلى حماه من المخافة، وترقب الأمن عنده والنجاة: ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

ثم يقطع الطريق إلى مدين، حيث موقفه مع ابنتى شعيب – عليه السلام – ثم زواجه من إحداهما. ثم عاد من مدين إلى مصر، فوجد فى الطريق ما لم يخطر له على بال، ليناديه ربه ويكلمه ويكلفه بالرسالة إلى فرعون وملئه.

موسى – عليه السلام – فى الطريق بين مدين ومصر إلى جانب الطور... ها هو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعاقد بينه وبين نبى الله شعيب، وقد تزوج إحدى بنتيه، ثم هو يعود إلى قومه، وقد خرج من مصر طريدا، وقتل فيها رجلا، ووجد الأمن والطمأنينة فى مدين إلى جوار شعيب...

عاد موسى ، وضل طريقه فى الصحراء، ومعه زوجه، والليل مظلم،

والمتاهة واسعة. ويرى موسى النار فى الفلاة، فاستبشر، وذهب ليأتى منها بقبس يستدفئ به، فالليلة باردة خاصة فى الصحراء، أو ليجد عندها من يهديه إلى الطريق، أو يهتدى على ضوئها.

ويجد المفاجأة الكبرى، وهو فريد فى تلك الفلاة ، والليل دامس، والظلام شامل، والصمت مخيم ، وهو ذاهب يلتمس النار التى آنسها من جانب الطور، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء: "إنى أنا ربك" مفاجأة، موسى يواجه الجلال الذى لا تدركه الأبصار.. ومن قبل طلب أن يرى الله، فقال الله تعالى له: لن ترانى، فجلاله تتضاءل فى ظله الأرض والسماوات، ولكنه يتلقى ذلك النداء العلوى بالكيان البشرى – وكفاه هذا الشرف العظيم. فكيف؟ كيف لولا لطف الله.

ها هو موسى فى شاطئ الوادى إلى جوار جبل الطور، الوادى إلى يمينه، "فى البقعة المباركة" المباركة منذ اللحظة الأولى، ثم هذا هو الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوى الآتى لموسى : "من الشجرة".

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص: ٣٠]

وتلقى موسى النداء المباشر، تلقاه وحيدا فى ذلك الوادى العميق، فى ذلك الليل الساكن.. تلقاه لا ندرى كيف؟ وبأية جارحة، وعن أى طريق.. تلقاه ملء الكون من حوله، وملء كيانه كله، تلقاه وأطاق تلقيه لأنه صنع على عين الله حتى تهيأ لهذه اللحظة الكبرى، وسجل ضمير الوجود ذلك

النداء العلوى، وبوركت البقعة التى تجلى عليها ذو الجلال. وتميز الوادى الذى كرم بهذا التجلى، ووقف موسى فى أكرم موقف يلقاه إنسان.

إنها لحظة ترتفع فيها البشرية كلها، وتكبر ممثلة فى موسى- عليه السلام - فبحسب الكيان البشرى أن يطيق التلقى من ذلك الفيض لحظة، وبحسب البشرية أن يكون فيها الاستعداد لمثل هذا الاتصال على نحو من الأنحاء..

كيف ؟ لا ندرى كيف، فالعقل البشرى ليس هنا ليدرك ويحكم، إنما قصاراه أن يقف مبهوتا يشهد ويؤمن.. ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [فُصِّلَت:٤٥]

موسى، يكلم الله، ويكلمه الله. هو مهيأ لذلك، وقد اختاره الله ليستمع لما يوحى، وألقى عليه محبة منه، وصنع على عينه، واصطنعه لنفسه..

ماذا تريد أكثر من ذلك؟ من أجل ذلك نودى "يا موسى"- بهذا البناء للمجهول فما يمكن تحديد مصدر النداء، ولا اتجاهه، ولا تعيين صورته ولا كيفيته، ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه. فذلك من أمر الله الذى نؤمن بوقوعه، ولا نسأل عن كيفيته. وإذا بنى الفعل للمجهول دل على عظم الفاعل وقوته وقدرته وجلاله، حيث يجعلك تدرك بالفطرة أن هذه العظمة وهذا الجلال لا يكون إلا لله وحده، فهو الفاعل لما يعلنه، "يا موسى إنى أنا ربك" يا موسى، يناديه باسمه، فهو المصطفى المختار، الذى صنع على عينه .. إنك يا موسى فى الحضرة العلوية، وفى الوادى الذى تتجلى عليه

الطلعة المقدسة، فاستقبلها بنفسك وروحك.. "وأنا اخترتك" تكريم ما بعده تكريم أن يكون الله بذاته هو الذى يختار.. يختار عبدا من العبيد، هو فرد من جموع الجموع.. تعيش على كوكب من الكواكب ، هو ذرة فى مجموعة، المجموعة هى ذرة فى الكون الكبير الذى قال له الله، كن.. فكان، ولكنها رعاية الرحمن لهذا الإنسان.

وبعد أعلانه بالتكريم والاختيار، والاستعداد والتهيؤ، يجىء التنبيه للتلقى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الذاريات:٣٨]

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه:١٣] الوحدانية، والعبادة والإيمان.. وهى أسس رسالة الله الواحدة..

والله فى ندائه لموسى- عليه السلام- يؤكد الألوهية بالإثبات المؤكد "إننى أنا الله" وبالقصر "لا إله إلا أنا" وعلى الألوهية تترتب العبادة، والعبادة تشمل التوجه لله فى كل نشاط الحياة وخاصة الصلاة..

والمجهول يتطلع إليه الإنسان، فوراء المجهول قوة تشير إلى آيات الله- "إن الساعة آتية" "فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها" الساعة هى الجزاء الكامل العادل، وهى الموعد المرتقب...

هذا هو النداء العلوى الذى تجاوبت به جنبات الوجود، وأنهى الله سبحانه إلى عبده المختار قواعد التوحيد..

وموسى – عليه السلام – أمام هذا النداء العلوى الذى لك أن تتخيله،

لابد أن يكون قد نسى نفسه، ونسى ما جاء من أجله ليتبع ذلك الصوت العلوى الذى ناداه، وليسمع التوجيه القدسى الذى يتلقاه، وبينما هو مستغرق فيما هو فيه، إذا هو يسأل. يسأله الله، "وما تلك بيمينك يا موسى" – والله يعلم ما بيمين موسى – ولكنه الحب الذى يتطلب المناجاة بين المحب وبين الذى أحب. وكان لابد أن يرد موسى، وكيف لا؟ وهو المؤتنس به، والراغب فى أن يطول ما بينه وبين الله من كلام: "قال هى عصاى" وكان يمكن أن يكتفى بهذه الإجابة. لكنه يريد أن يواصل الكلام مع الله. فالسؤال لم يكن إلا عما فى يمينه، غير أن موسى لم يرد الانتهاء من الموقف، فقال: "أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى". إنه لا يسأله عن وظيفة العصا، فهل كان موسى يكتفى عند ماهية ما فى يده، وماذا لو أجاب عن وظيفة ما فى يده..؟

والله يعلم أن موسى يريد أن يخاطبه، وأنه يفسح لنفسه المجال فى الكلام مع الله. واستطرد النداء العلوى يلقى إلى عبده التكليف، فطلب منه أن يلقى عصاه فإذا هى حية تتحرك، "فألقاها فإذا هى حية تسعى" معجزة وقعت دهش لها موسى وخاف، وولى مدبرا، ثم يستمع إلى ربه الأعلى يناديه" يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين"..

ما هذا الأمن، وهذا التكريم؟ يا موسى، نداء من الله باسمه ويطمئنه، وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه، ومن ترعاه عين الله؟

إن هذا الاتصال، وذلك الكلام، وتلك المناجاة تبعة ثقيلة على من

اختارهم الله بمقدار ما هى عظيمة..

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ونردها عصا. واطمأن موسى والتقط الحية، وصدر الأمر العلوى مرة أخرى بأشياء يعجز عنها البشر، يأمر بأن يدخل يده فى جيبه، وأن يضم يده على قلبه حتى يشعر بالأمن.. آيتان يهتز لهما، ثم يهدأ .. ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ ثم يتلقى الرسالة إلى فرعون وملئه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤]

وهو فى لحظة حضرة ربه، يحس الرضى والتكريم والحفاوة، فليسأله كل ما يطمئنه فى مواجهة هذه المهمة الخطيرة، ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة.

إنه يتوجه إلى ربه ليقول له ما يخاف منه، وهو فى حضرة ربه، وربه يكرمه بلقائه، ويكرمه بنجائه، ويكرمه بآياته، ويكرمه برعايته، فهو يحتاط لنفسه فى دعوته، وقد قتل نفسا فيخاف على نفسه منهم، ولكن كيف يخاف والله يعده بالنجاة، والله لا يخلف وعده، وهو أصدق القائلين، ويطلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، فهو ردء له معين، ويتلقى موسى الاستجابة والتطمين..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص:٣٣-٣٥]

لقد أطال موسى سؤاله، وبسط حاجته، وكشف عن ضعفه، وطلب العون والتيسير وربه يسمع له، وهو ضيف فى حضرته.. ناداه وناجاه، فلا يخجل الله ضيفه، ولا يرد سائله، ولا يبطئ عليه بالإجابة الكاملة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٨]

وفى كلمة واحدة، فيها إنجاز وإجمال ولا تأجيل: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ هكذا مرة واحدة، كل ما سألته أعطيته، أعطيته فعلا مع عطف وتكريم، وإيناس بندائه باسمه "يا موسى" وأى تكريم أكبر، وحب من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد...

لقد طال التجلى، وطال النجاء، وأجيب السؤال، وقضيت الحاجة مع فضل من التكريم والعطف والإيناس. ورحمة الله لا ممسك لها، فهو يغمر عبده بمزيد من فضله وفيض من رضاه، فيستبقيه فى حضرته، ويمد فى نجائه، وهو يذكره بسابق نعمته ليزيده اطمئنانا وأنسا. إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوى الذى تلقاه...

لقد استجاب الله لرجاء موسى، وإذا موسى وهارون فى مواجهة فرعون، وإذ النهاية الحاسمة فى هذه الدنيا بالغرق، ولا يكون الأمن إلا فى

جانب الله، وأن المخافة لا تكون إلا فى البعد عن الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٣-٢٤]

لقد من الله على موسى بنجاته من فرعون، وحين قتل نفسا فنجاه من الغم، وهداه إلى الاستغفار، وشرح صدره به، وامتحنه بالخوف والهرب من القصاص، وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن، وامتحنه بالخدمة ورعى الغنم. وهذا كله ابتلاء ليربيه ويعده لما أراد خالصا مستخلصا ممحضا لله ولرسالته ودعوته: "واصطنعتك لنفسى" إنك للمهمة التى صنعتك على عينى لها، واصطنعتك لتؤديها. فامض لما اصطنعتك له. اذهب أنت وأخوك إلى فرعون ولا تنيافى ذكرى، فهو عدتكما وسلاحكما وسندكما الذى تأويان منه إلى ركن شديد.

وموسى وهارون يدعوان الله، وقد اجتمعا سويا عليهما السلام – بعد انصراف موسى من موقف المناجاه بجانب الطور، وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أ-حيه فى دعوة فرعون، وهما خائفان من طغيان فرعون وبطشه. وهنا يجيئهما الرد الحاسم الذى لا خوف بعده، ولا خشية معه: "قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى".

"إننى معكما" القوى الجبار الكبير المتعال، القاهر فوق عباده، إنه الله، موجد الأكوان والأفراد والأشياء.. ومن كان الله معه فلا يحزن. وكان هذا الإجمال يكفى، ولكنه يزيدهما طمأنينة "اسمع وأرى" فما يكون فرعون؟

وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى، والله معهما يسمع ويرى.. ومن يكون فرعون؟ فرد مخلوق لله، لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا استغنى بقوته وحوله، فلا منجاة له من الله.

وأنتما رسولان قد أوحيت إليكما أن العذاب على من كذب وتولى، فاذهبا لرسالتكما إلى فرعون لاستنقاذ بنى إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التى كتب الله لهم أن يسكنوها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾ [غافر:٥٣]

هكذا ألقى الطمأنينة على موسى وهارون، وهكذا رسم لهما الطريق، ودبر لهما الأمر، ليمضيا آمنين عارفين هاديين... ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزُّخرُف:٤٦]

ويلخص القرآن الكريم قصة موسى – عليه السلام – كليم الله – مع فرعون وملئه فى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:٢٦]

موسى يتلقى التكليف، وينادى ليحمل الرسالة إلى فرعون وقومه، بينما هو فى طريق عودته من أرض مدين إلى مصر، ومعه زوجه بنت شعيب–

عليه السلام – وقد ضل طريقه فى ليلة مظلمة باردة، وكان إلى جانب الطور، ووجد نارا توقع أن يجد عندها خبر الطريق، أو أن يستدفئ بها، ويمضى موسى إلى النار التى آنسها، ينشد خبرا، فإذا هو يتلقى النداء الأسمى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [النمل:٨-٩]

إنه النداء الذى يتجاوب به الكون كله- وهو الموضوع الذى اخترناه لهذا البحث – النداء الذى تتصل به العوالم والأفلاك، ويخشع له الوجود كله، وترتعش له الضمائر والأرواح، النداء الذى تتصل فيه السماء بالأرض، وتتلقى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير، ويرتفع فيه الإنسان الفانى الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله..

"نُودى" بهذا البناء للمجهول، لنعلم أنه الله الذى ناداه، توقيرا وإجلالا وتعظيما للمنادى العظيم، والفعل يبنى للمجهول ليترك لك التأمل والتفكير فيمن فعل الحدث، ثم تهتدى إليه بحدسك، وهنا يكون الفاعل ذا قيمة عليا، ودرجة كبرى، فاسمع لهذا النداء العلوى "نودى أن بورك من فى النار ومن حولها". إنها نار من الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى، وتراءت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها...

ومن ثم كان النداء "أن بورك من فى النار" إيذانا بفيض من البركة العلوية على من فى النار من الملائكة ومن حولها، وفيمن حولها موسى، وسجل الوجود كله هذه المنحة العليا، ومضت هذه البقعة فى سجل

الوجود مباركة مقدسة بتجلى ذى الجلال عليها، وإذنه لها بالبركة الكبرى..

وسجل الوجود كله بقية النداء والنجاء: "وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم".

نزه الله ذاته وأعلن ربوبيته للعالمين، وكشف لعبده أن الذى يناديه هو الله العزيز الحكيم.. وكان النداء للاصطفاء، ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة ، ووراء حب وتكريم فى ندائه باسمه "ياموسى" أيها القريب الحبيب، يا من اصطفيتك واخترتك، وجعلتك لنفسى. أى تكريم هذا، وأى حب ممن ؟ من الله لعبد من عباده المختارين. إنا فى شوق لما يكلفه به..

إنه وأخوه أمام الطاغية فى حوار وجدال، وظن فرعون أن موسى جاء ليخرجهم من أرضهم بسحره، وتوعده بسحر مثله، فجعل بينهما موعدا للمباراة مع السحرة..

وطلب فرعون إلى موسى تحديد الموعد، فاختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة يأخذ الناس فيه زينتهم فى مصر، ويتجمعون فى الميادين والأمكنة المكشوفة، وقبل هذا التحدى.

وجمع فرعون كيده ثم أتى، وقد حذر موسى السحرة قبل الدخول فى المباراة فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى، ثم أقدموا، وقبل موسى التحدي، وترك لهم فرصة البدء، وإذا بسحر عظيم فيما يبدو حتى ليوجس فى نفسه خيفة موسى، ومعه ربه يسمع ويرى ، فقال له الله لا تخف، "قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى" فهذه مباراة بين الحق والباطل، ولابد أن ينتصر

الحق ويزهق الباطل، " وألق ما فى يمينك" "تلقف ما صنعوا" فهو سحر من تدبير ساحر وعمله، ولا يفلح الساحى أنى ذهب، وفى أى طريق سار.. "وألق عصاك".. إنه فى قوم يؤمنون بالسحر ، فألقى عصاه كما أمر فإذا هى تدب وتسعى، وتتحرك حركة سريعة، وأخذت موسى هزة المفاجأة، وأوجس فى نفسه خيفة، ثم نودى بالنداء العلوى المطمئن: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل: ١٠]

فالرسل لا يخافون فى حضرة ربهم وهم يتلقون التكليف، ومن يخاف والله معه، فلو اجتمعت الدنيا على شخص بسوء والله فى عونه فلا يضل ولا يشقى، ولا يحزن ولا ييأس، بل هو التأييد والتثبيت من الله، ومن ثم الفوز والنجاة.

ويوحى الله لموسى أن يخرج بعباد الله- بنى إسرائيل -ليلا، فيضرب لهم طريقا فى البحر يبسا مطمئنا إلى أن عناية الله ترعاهم، فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده... "فأتبعهم فرعون بجنوده" وكانت النهاية انتصار الإيمان على الطغيان: "وأضل فرعون قومه وما هدى".

ويفاجأ موسى... إنه عجلان إلى ربه، بعدما تهيأ واستعد أربعين يوما، ليلقاه ويتلقى منه التوجيه الذى يقيم عليه حياة بنى إسرائيل الجديدة، وقد استخلصهم من الذل والاستعباد ليصوغ منهم أمة ذات رسالة، وذات تكاليف..

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ [طه:٨٣-٨٥]

وما كاد موسى يتركهم فى رعاية هارون، ويبعد عنهم قليلا حتى تتخلخل عقيدتهم كلها، وتنهار أمام أول اختبار، ولم يكن بد من الابتلاءات. وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذى صنعه لهم السامرى، ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء حتى لقى ربه، وتلقى الألواح، وفى نسختها هدى، وبها الدستور التشريعى لبناء بنى إسرائيل.

وينتهى موقف المناجاة، وينفعل موسى- عليه السلام – مما علم من أمر الفتنة، ومسارعته بالعودة، وفى نفسه حزن وغضب على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل، ومَنّ عليهم بالرزق الميسر، والرعاية الرحيمة فى الصحراء، وذكرهم بآلائه، وحذرهم الضلال، ثم هاهم أولاء يتبعون أول ناعق إلى عبادة العجل- ويعود موسى غضبان أسفا" يوبخ قومه ويؤنب أخاه.

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب، له خوار يقولون هذا إلهكم وإله موسى... وسمع منهم حجتهم التى تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل، وأصاب تفكيرهم من فساد، فالتفت إلى أخيه يؤنبه على تركهم يعبدون العجل دون أن يبطل عبادته، اتباعا لأمر موسى- عليه السلام – بألا يحدث أمرا بعده، ولا يسمح بإحداث أمر،

ويستنكر عليه عدم تنفيذه... ولم يكن الذنب ذنبه، إنما ذنب السامرى، فطرده موسى...

لقد وعد الله موسى أن يؤيده بتسع آيات من نوع العصا، واليد يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء مشرقة من غير سوء.

ووقعت معجزتا العصا واليد، فقالوا إن هذا لساحر عليم، وأشاروا إليه أن يلقى سحره بسحر مثله، ويحتشد السحرة والناس يجتمعون للمباراة، وألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون، وكانت مفاجأة مذهلة لم يكن يتوقعها كبار السحرة، وسجد السحرة وآمنوا برب العالمين، رب موسى وهارون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزُّخرُف:٤٦]

أرسل الله موسى إلى فرعون وملئه ليذكره بأنه رسول من رب العالمين، لا يقول إلا الحق من ربه، فيطلب منه فرعون آية على صدق كلامه، فكانت عصاه هى الآية. ألقاها فإذا هى ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين، فظن القوم أن هذا سحر، وأنه ساحر بعد أن واجههم بربوبية الله للعالمين، واستقر الرأى على أن يجمع سحرة فرعون أنفسهم لمواجهة هذا الساحر، وتحديه. وإذا بنا أمام مظهر السحر البارع الذى يرهب ويخيف، فقد جاؤا بسحر عظيم، وسحروا أعين الناس، وأثاروا الرهبة فى قلوبهم، ولكن مفاجأة تطالع فرعون وملأه ، وتطالع السحرة الكهنة، وتطالع

جماهير الناس فى الساحة الكبرى التى شهدت هذا المشهد الكبير، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك- وحى من الله لرسوله- إعلام بخفاء أن ألق يا موسى عصاك – أمر من الله، فإذا هى تلقف ما يأفكون...

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧-١١٩]

إن الباطل يسحر العيون، ويذهب القلوب، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق، ويخبو نوره، وإذا الحق راجح ثابت عميق "فوقع الحق" ثبت واستمر، وذهب ما عداه فلم يعد له وجود، "وبطل ما كانوا يعملون" وغلب الباطل، وذل المبطلون، وصغروا بعد الزهو الذى كان يبهر العيون.. "فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين".

لقد نجا موسى من كيد فرعون وملئه الذين أغرقهم الله لتكذيبهم.. وما يهمنا من مشاهد موسى فى هذه السور مشهد النداء، والبعثة والوحى والمناجاة بين موسى وربه. ثم مشهد موسى لفرعون وملئه برسالته وآيتى العصا، واليد البيضاء..

هذه العصا عصا النصر، أهلك وأنجى بها..

وثالثهما مشهد التآمر وجمع السحرة، وحشد الناس للمباراة الكبرى التى انتصر فيها موسى، ثم مشهد إيحاء الله لموسى أن يسرى بعباده ليلا.

ويستوقفنا مشهد المناجاة بين موسى وربه كما جاء فى سورة طه، وقد تعرضنا إليه. وهنا فى سورة الشعراء ينادى الله موسى.. وفى المناداة كلام، يدعوه ويأمره: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ وحين تسمع القوم الظالمين تدرك أنهم قوم فرعون فى هذا السياق، والله يقرر أنهم لا يتقون..

هذا كلام إلى سيدنا موسى الذى سمع نداء ربه، فأجابه سريعا: إنى أخاف أن يكذبون، وطلب منه أن يرسل معه أخاه هارون، فهو يخاف أن يقتلوه لذنب سابق، فطمأنه الله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠-١٧]

إنها الرسالة التى استوجبت هذه المناداة، وتلك المناجاة التى تعمد فيها موسى أن تطول، فهو فى الحضرة الإلهية، وكم تمنى أن يمكث فى هذه المناجاة. فلما تلقى الأمر من الله بالدعوة وبالرسالة أخذ يعرض لخوفه من هذه المواجهة، وطلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، حرصا منه على توصيل الرسالة، فأجابه الله إلى ما سأل، وطمأنه مما يخاف. فاذهب أنت وأخوك إلى فرعون وأنا معكم، ومن كان الله معه فلا يخاف ولا يحزن، من

كان فى معية الله فهو الأعلى، ولا يخاف رهقا ولا نصبا، وهذا هو مشهد البعثة والوحى والتكليف.

ولما أنكر فرعون على موسى ما جاء به، وكذبه فى دعوته قال له موسى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾ [الشعراء:٣٠] فقال فرعون: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١)﴾ [الشعراء:٣١] ووقعت معجزتا العصا واليد...

وأوحى الله إلى موسى أن يسرى بعباده، وأن يرحل بهم ليلا ، وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر.

لقد أسرى موسى بعباد الله، بوحى من الله وتدبيره، فأتبعهم جنود فرعون فى الصباح، وتكون المعركة: موسى وقومه أمام البحر، ومن خلفهم فرعون وجنوده: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ولكن موسى الذى تلقى الوحى من ربه يملأ قلب من معه باليقين وبالنجاة: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء:٦٢]

فهل يخيب من كان الله معه؟ كلا فمن كان فى معية الله فلا يحتاج أحدا يقيه، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، ووقعت المعجزة، ونجا الله موسى وصحبه: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ﴾ وتم تدبير الله وانتصر الحق، وغرق الآخرون: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧)﴾ [الشعراء:٦٧]

وبنفس العصا التى انتصر بها موسى، يضرب بها الحجر لما طلب قومه منه الاستسقاء فابنجست منه اثنتا عشرة عينا، قد علم كل أناس مشربهم، وذلك لتخصيص عين تشرب منها كل جماعة، وتعيينها لهم، فلا يعتدى بعضهم على بعض، فهم اثنتا عشرة أسباطا أمما ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

وفى هذه رعاية واضحة، وعدالة شاملة. فكل هذه النعم، وكل هذه الخوارق من تفجير العيون لهم من الصخر بضربة من عصا موسى- بعد أن أوحى الله إليه بهذا- ومن تيسير الطعام لهم، وتظليل الغمام لهم فى الصحراء الجافة، لم يمتثلوا لطاعة الله وشكره، بل هم يؤذون أنفسهم، ويظلمونها بالمعصية والالتواء فى الدنيا وفى الآخرة سواء..

لقد عفا عنهم بعد اتخاذهم العجل، وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل، ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم، ثم هم أولاء تلتوى بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق..

وكان موقف فرعون من موسى كموقف إبليس من آدم، فإبليس قال عندما أمره الله بالسجود لآدم: أأسجد لمن خلقت طينا.. فهو خلق من نار، وخلق آدم من طين، دعاه ليؤمن بالله، فقال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزُّخرُف:٥٢]

ولقد مَنّ الله على موسى – عليه السلام – من فضله الكثير، فقد أوحى

إلى أم موسى ما أوحى، وألهمها ما يلهم فى مثل حالها: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ وألهمها ذلك الإلهام: ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ قذف فى التابوت بالطفل، وقذف فى اليم بالتابوت، وإلقاء للتابوت على الساحل... كلها مخاوف. ومثل هذه الأم التى تتلقى مثل هذه الأوامر أن تخاف. أم تلهم بوحى من الله أن تلقى بوليدها إلى الهلاك كما يتصور العقل البشرى، لابد من قدرة قادرة تجعل من المحبة الهينة اللينة درعا تتكسر عليها الضربات، وتتحطم عليه الأمواج. وتعجز قوى الشر والطغيان كلها أن تمس حاملها بسوء.

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ أرأيت إلى خلق يصنع على عين الله؟ كيف يكون ، وكيف تتأمله؟ إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية، فكيف بمن يصنع صنعا على عين الله؟

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى، موسى- عليه السلام – إلى فرعون وملئه، وجعل يذكر قومه بنعمة الله عليهم، وقال لهم: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨]

واتجه موسى- عليه السلام – إلى ربه يدعو على فرعون وملئه أن يدمر أموالهم، وأن يشد على قلوب أهلها، فاستجاب الله الدعاء: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ

ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٩] [يونس:٨٨-٨٩]

دعوا الله فاستجاب لهما: "قال قد أجيبت دعوتكما" كتب لها الإجابة، وقضى الأمر. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧] وهو الذى أوحى إليه وإلى أخيه بالذهاب إلى فرعون.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الصافات:١١٦] والله سبحانه يعلم أمرهم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الصافات:١٢٠-١٢١]

لقد أجرى الله على يد موسى خوارق كثيرة لبنى إسرائيل الذين يسر لهم الله الطعام فى الصحراء والظل فى الهاجرة، وأفاض عليهم من نعمه الكثير، وجعل موسى – عليه السلام – يذكرهم بنعمة الله عليهم، وكيف كان مسلكهم إزاء تلك النعم، ورغم فضل الله عليهم بها.. ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة:٦٠]

لقد طلب موسى من ربه السقيا لقومه- كلمه موسى فاستجاب له الله، وأمره أن يضرب حجرا معينا بعصاه، فانفجرت منه أثنتا عشرة عينا بعدة أسباط بنى إسرائيل، وكانوا يرجعون إلى اثنى عشر سبطا بعدد أحفاد يعقوب- وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه - وأحفاد إسرائيل - أو يعقوب- هم المعروفون باسم الأسباط، والذين يرد ذكرهم فى القرآن الكريم.. ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أى العين الخاصة بهم، وقيل لهم: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة:٦٠]

هذا ماء من الحجر، وهذا المن والسلوى من السماء (عسل وطير)، يريد الله بهم الخير، ولهم العزة، ولكنهم لا يريدون .. ويستمرون فى تعنتهم ولجاجتهم فى كل ما يطلبون ثم يرفضونه إلى أن تجيء قصة البقرة لترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ فى الاستجابة، والتمثل بالمعاذير، وفى حوار موسى مع قومه حول طلبه ذبح بقرة - وهو أمر من الله تعالى- قالوا: أتتخذنا هزوا؟ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.. فأخذوا يسألون وفى أسئلتهم شك أن يكون موسى هازئا فيما أنهى إليهم، فهم يقولون: أدع لنا ربك.. فكأنما هم يعرفون أن موسى وحده هو الذى يستطيع أن يكلم الله، وأن يكلمه الله، وكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك والله يصطفى من خلقه من يشاء، ويؤكدون مشيئة الله فى كلامه موسى، فيطلبون أن يدعو ربه مرة أخرى ليبين لهم ما هى رغم أنه بينها لهم من قبل، وقد قال لهم من أول الأمر

هذا بلا تحديد لصفة ولا سمة. بقرة وكفى.. ولكن موسى – عليه السلام يجيبهم عن كل ما سألوه– وكفى سيدنا موسى أن تكون قصة البقرة هذه طريقا للكلام مع الله، وكم أراد أن تطول الأسئلة ليطول الكلام مع الله، ثم تكون النصيحة الآمرة الحازمة: "فافعلوا ما تؤمرون" وفى هذا الكفاية لمن يريد الكفاية، وإن كان موسى لا يريد الكفاية من كلام الله معه..

وهكذا تكررت الأسئلة وتتابعت عن ماهية البقرة، وموسى – عليه السلام يكلم ربه مستلطعا الإجابة، وينقل لقومه ما يأمره به الله سبحانه.. ورغم كل هذه الأسئلة بذبح البقرة: "فذبحوها وما كادوا يفعلون" ، ويكشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف: "وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا أضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون"..

إنها قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة، وهنا يكشف الكلام من الله لسيدنا موسى– عليه السلام – عن الحكمة من كل أمر يصدر عن الله تعالى ، وفى قوله : "فقلنا أضربوه ببعضها" قول بطريق الوحى أو الإلهام، كما أننا ونحن نتابع الحوار فى عرض القصة بين موسى وقومه، وبين موسى وربه. فلا ترى الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسى وربه، على حين أنهم كانوا فى كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه، فكان يسأله، ثم يعود إليهم بالجواب..

لقد تمنى الكثيرون أن يكلمهم الله : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة:١١٨]

والذين لا يعلمون هم الأميون الذين كانوا مشركين، إذ لم يكن لديهم علم من كتاب. وكثيرا ما تحدو النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يكلمهم الله أو أن تأتيهم خارقة من الخوارق المادية. وقد طلب اليهود وغيرهم مثل هذا من أنبيائهم، وطلب قوم موسى أن يروا الله جهره. والذى يجد راحة اليقين فى قلبه يجد فى الآيات مصداق يقينه، ويجد فيها طمأنينة ضميره.

وهذه كلمات من موسى يوجهها لقومه من بنى إسرائيل لعلهم يرجعون عن غيهم، ولكنهم لم يأبهوا لكلامه، فأخذ يذكرهم بنعمة الله عليهم إذ جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكا، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة:٢٠-٢١]

نعمة الله، ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكا، وإيتاءه لهم بهذا، وذلك ما لم يؤت أحدا من العالمين، والأرض المقدسة التى هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله. فهى إذن يقين، وقد رأوا من قبل

كيف صدقهم الله وعده، وهذا وعده الذى هم عليه قادمون.. والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين..

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المائدة:٢٢]

إنهم أمام الخطر، فلا بقية إذن من تجمل، ولا محاولة إذن للتشجع.. إن الخطر ماثل قريب، ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض، وأن الله قد كتبها لهم- فهم يريدونه نصرا رخيصا، لا ثمن له، ولا جهد فيه، نصرا مريحا يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المائدة:٢٢]

ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما يريدها القوم وقلوبهم فارغة من الإيمان: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة:٢٣]

فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين، ويرزقهما شجاعة فى وجه الخطر الموهوم، فالذى يخاف الله لا يخاف أحدا بعده، ولا يخاف شيئا سواه..

﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾

فعلى الله – وحده – يتوكل المؤمن، ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]

إنهم لا يريدون ملكا، ولا يريدون عزا، ولا يريدون أرض الميعاد.. ودونها لقاء الجبارين..

هذه هى نهاية هذا الجهد الجهيد فى الحوار مع موسى وقومه، نهاية المطاف.. نكوصا عن الأرض المقدسة، وهو معهم على أبوابها، وبعدا عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق، فماذا يصنع؟ وبمن يستجير؟

إن موسى يعرف طريقه إلى الله، ويعرف كيف يكلمه، والكلام معه شرف عظيم قد اختص به؟ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: ٢٥]

يقول رب لا أملك إلا نفسى وأخى، والله يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه، وموسى أيضا يعلم أن الله يعلم ذلك، ولكن موسى فى ضعف الإنسان المخذول، وفى إيمان النبى الكليم، وفى عزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجها إلا لله. يشكو له بثه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين، فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق.. إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله، وقد فصلوه. فانبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق. وما عاد يربطه بهم رباط.. إنه مستقيم على عهد الله

وهم فاسقون.. إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون..

لقد كان هذا الحوار الذى دار بين موسى وقومه مدعاة للكلام مع الله، فيكلم الله فى شأن هؤلاء القوم، والله يعلم بما دار بينهما من حوار، ويسأل موسى ربه، ويستجيب الله لنبيه، ويقضى بالجزاء العدل على الفاسقين:

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ [المائدة:٢٦]

وهكذا أسلمهم الله – وهم على أبواب الأرض المقدسة– للتيه، وحرم عليهم الأرض التى كتبها لهم..

إن الله أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه ليذكره بأنه رسول رب العالمين، لا يقول إلا الحق من ربه فيطلب منه فرعون آية على صدق كلامه، فكانت عصاه هى الآية ألقاها فإذا هى ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين، فظن القوم أن هذا سحر، وأنه ساحر بعد أن واجههم بربوبية الله للعالمين، واستقر الرأى على أن يجمع سحرة فرعون أنفسهم لمواجهة هذا الساحر وتحديه، وإذا بنا أمام مظهر السحر البارع الذى يرهب ويخيف، فقد جاؤا بسحر عظيم، وسحروا أعين الناس وأثاروا الرهبة فى قلوبهم. ولكن مفاجأة تطالع فرعون وملأه، وتطالع السحرة الكهنة، وتطالع جماهير الناس فى الساحة الكبرى التى شهدت هذا المسرح الكبير، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك– وحى من الله لرسوله– إعلام بخفاء أن ألق يا موسى عصاك– أمر من الله – فإذا هى تلقف ما يأفكون..

﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف:١١٧-١١٩]

إن الباطل يسحر العيون، ويسترهب القلوب ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب وما هو إلا أن يواجه الحق الهادى الواثق، ويخبو نوره، وإذا الحق راجح ثابت عميق"فوقع الحق" ثبت واستمر وذهب ما عداه فلم يعد له وجود "وبطل ما كانوا يعملون" وغلب الباطل وذل المبطلون، وصغروا بعد الزهو الذى كان يبهر العيون: "فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين".

وفى مشهد آخر يتلقى موسى كلمات ربه، وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق، فينسى من هو، وينسى ما هو، ويطلب مالا يكون لبشر من هذه الأرض، وما لا يطيقه بشر فى هذه الأرض، يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع فى زحمة الشوق، ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود..

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ

بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

[الأعراف:١٤٣- ١٤٧]

مشهد اختص الله به نبيه موسى – عليه السلام – مشهد الخطاب المباشر بين الله – سبحانه – وعبد من عباده .. ولا ندرى نحن كيف كان كلام الله لا ندرى بأية حاسة أو جارحة أو أداة تلقى موسى كلمات الله، وهو الذى اصطفاه الله على الناس برسالاته وبكلامه.. نريد أن نتصور بإدراكنا المحدود هذا الكلام الذى جرى بين الله تعالى وبين من اصطفاهم من عباده.

إنا لفى حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد فى خيالنا وفى أعصابنا وفى كياننا كله.. فى حاجة إلى استحضاره لنحاول الاقتراب من تصوره، ولنشعر بشىء من مشاعر موسى عليه السلام فيه، وهو يكلم ربه، ويكلمه ربه تعالى.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ ويسمع كلمة الله الحاسمة الجازمة وهو يقول له: "قال لن ترانى" ولماذا لن يراه، إنه لا يطيق، ولكن يعلمه ماذا يفعل إذا أراد أن يرى الله، إنه يترفق به قائلا " ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾ والجبل مع

تمكنه وثباته أقل تأثرا واستجابة من الكيان البشرى، ومع ذلك فماذا؟ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾.

نحن لا نملك أن نصف هذا التجلى، ولا نملك أن ندركه، ولا نملك أن نستشرفه إلا حين تصفو الأرواح، وتتجه بكليتها إلى مصدرها.. لقد أصبح الجبل بالأرض مدكوكا، وأدركت موسى رهبة الموقف، وسرت فى كيانه: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مغشيا عليه غائبا عن وعيه، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وثاب إلى نفسه ، وأدرك مدى طاقته : "قال سبحانك" تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك " : "تبت إليك" عن تجاوزى للمدى فى سؤالك: "وأنا أول المؤمنين"

وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى، فإذا هو يتلقى منه البشرى، بشرى الاصطفاء مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص.. وكانت رسالته إلى فرعون وملئه من أجل هذا الخلاص: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف:١٤٤]

لقد تفرد موسى عليه السلام – بالكلام، أما الرسالة فهى نفسها التى كلف الله بها رسله لأقوامهم؛ أن اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن يتخذوا سبيل الرشد فى حياتهم، وأن يحرصوا على كل فعل خير من أجل ثواب الدنيا والآخرة، والإيمان بصدق وعد الله ووعيده.. وجاءت رسالة

موسى فى الألواح التى كتب الله فيها كل شيء.

لقد كان موسى - عليه السلام - فى حضرة ربه، فى ذلك الموقف الفريد، الموقف الذى ترتعد فيه فرائص الإنسان، وموسى بشر لكن الله اصطفاه وجعله فى هذا المشهد الذى تستشرفه البصائر، وتقصر عنه الأبصار، وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار.. إنه مشهد حب بين الله وبين عبده موسى - عليه السلام -.

ولا يزال موسى بين يدى ربه فى مناجاة وكلام، لا يدرى ما أحدث القوم بعده، إلا أن ينبئه ربه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠-١٥١]

إن قوم موسى - عليه السلام - اتخذوا لهم عجلا جسدا من الذهب، طاروا إليه وتهافتوا عليه حين قال لهم السامرى: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ . ولم يتذكروا وصية نبيهم إليه من قبل بعبادة ربهم الذى لا تراه الأبصار.. إنهم يعبدون خلقا من صنع أيدى البشر. من أجل ذلك غضب موسى ورجع إلى قومه، لقد عاد أشد ما يكون الغضب، ويبدو انفعال الغضب فى قوله وفعله، يبدو فى قوله لقومه: ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ

بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ ﴾، ويبدو فى فعله إذ يأخذ برأس أخيه يجره إليه: ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ ﴾.

لقد ترك موسى قومه على الهدى فضلوا، وتركهم على عبادة الله فعبدوا عجلا جسدا له خوار.. ويتوجه موسى إلى ربه يطلب المغفرة له ولأخيه، وطلب الرحمة من أرحم الراحمين بعد أن استشاطوا غضبا، ولقيا ما لقيا من القوم..

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٥١)﴾ ويأتى وعد الله وحكمه.. إن القوم الذين اتخذوا العجل سينا لهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا.. ووعد الله صادق لا محالة، وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٥٣)﴾ [الأعراف:١٥٣]

ويعود موسى إلى نفسه، ويأخذ الألواح التى كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه.. تلك الألواح التى فيها هدى وفيها رحمة لمن يخشون ربهم ويرهبونه، فتتفتح قلوبهم للهدى وينالون به الرحمة: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ (١٥٤)﴾ [الأعراف:١٥٤]

ولا يزال موسى فى حضرة الله تعالى، فقد توجه إليه، وتوسل إليه يطلب المغفرة والرحمة، ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة:

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ
لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ
تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ
(١٥٥) ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ
عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ
ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ
وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ
(١٥٧) ﴾ [الأعراف:١٥٧]

لقد أخذت الرجفة هؤلاء المختارين فصعقوا ذلك أنهم طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة ليصدقوه، من أجل ذلك طلب موسى المغفرة والرحمة. وألا يهلكهم الله بما فعل السفهاء، ودعا ربه بأدب العبد الصالح فى حق الرب الكريم بهذا الدعاء الذى حملته الآيات، ثم يجيئه الجواب: قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء" تقريرا لطلاقة القدرة..

وهكذا عشنا مع هذه المشاهد فى حوار مع موسى وربه، وتبين لناحب الله لموسى – عليه السلام – واصطفاءه من عباده..

زكريا:

جاء ذكر نبى الله زكريا – عليه السلام – فى القرآن المريم سبع مرات، وتشير الآثار إلى أن نبى الله زكريا كان قد بعث فى الفترة التى سبقت ميلاد المسيح عيسى بن مريم – عليهما السلام – وكلاهما ينتهى نسبه إلى سليمان بن داود– عليهما السلام – وكانت بعثة زكريا – عليه السلام – فى زمن قد ضاع فيه الدين، فبعثه الله إلى قومه يردهم إلى الدين الصحيح، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده، فلم يستجب له منهم إلا القليل، وظل هكذا حتى بلغ من الكبر عتيا، وقد تزوج زكريا من شقيقة زوجة عمران، الذى كان واحدا من علماء زمانه.

وكان كل من النبى زكريا– عليه السلام – وعديله العالم الجليل عمران بلا ولد، فتمنى كل منهما ومن زوجتيهما على الله تعالى الذرية الصالحة، واستجاب الله لدعاء كل منهم.

وكان أكثر الأختين إلحاحا على الله بالدعاء طلبا للذرية هى زوجة عمران، فحملت أولا، ونذرت ما فى بطنها محررًا لله تعالى. أى تهبه خادما للمسجد الأقصى، يعمره ويقوم على إصلاحه، ويتفرغ للعبادة فيه، ولكن لما جاءت ساعة الوضع فوجئت بأن المولود أنثى، وعلى الرغم من إقرارها بأن الأنثى ليست كالذكر، إلا أنها قررت أن تفى بنذرها لله، ودعت الله تعالى أن يحفظ هذه الفتاة التى سمتها مريم، ويحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم، واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعائها، فتقبل منها تلك المولودة بقبول

حسن، وشاءت إرادته أن يطهرها وأن يصطفيها على نساء العالمين، وأن يجعل منها أما لنبى يجئ ميلاده بمعجزة لا تقل عن معجزة خلق آدم، فيجئ ميلاد عيسى بن مريم – عليهما السلام – دون أن يمسسها بشر ، وهى البتول الطاهرة العابدة العفيفة ..

وكان العالم الربانى "عمران" قد توفاه الله تعالى قبل ولادة ابنته مريم، واختلف شيوخ القوم وعلماؤهم على من يكفل مريم، واقترعوا على ذلك مرارا حتى فاز بهذا الشرف زوج خالتها نبى الله زكريا – عليه السلام –

وخشى زكريا على قومه من ضياع الدين، ولم يكن له ولد يخلفه فيهم فدعا ربه أن يرزقه ولدا صالحا يحسن القيام بواجب وراثة خط النبوة..

هذا زكريا يدعو ربه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ﴾ [آل عمران:٣٨]

فاستجاب له الله: ﴿الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران:٣٩]

ثم استمر فى دعائه وطلبه: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ [آل عمران:٤١] فأجابه الله إلى طلبه، قال : ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران:٤١]

ويؤكد القرآن على استجابة الله لدعاء زكريا العبد الصالح فى موضع آخر غير ما بينه فى سورة – آل عمران- فيقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠]

هؤلاء جميعا كانوا يسارعون فى الخيرات، ويتسابقون فى عمل الخير، وكانوا يدعون الله رغبة ورهبة، وكانوا له خاشعين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]

ويمتدح القرآن الكريم سلسلة الأنبياء التى جاء منها كل من عبده زكريا، وولده يحيى – عليها السلام – فيقول تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٦]

ونقف عند زكريا الذى ذكره القرآن، وهو يدعو ربه فى ضراعة وفى خفية: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم:٦]

إنه يناجى ربه بعيدا عن عيون الناس، بعيدا عن أسماعهم، فى عزلة يخلص فيها لربه، ويكشف له عما يثقل كاهله، ويكرب صدره، ويناديه فى قرب واتصال- نادى ربه- يكلمه ويدعوه "رب" بلا وساطة، وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء، ولكن زكريا يحب أن يناجى ربه نجاء، فهو مكروب ويستريح إلى البث، ويحتاج إلى الشكوى.. إنه يشكو إلى ربه وهن العظم، وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن، فالعظم هو أصلب ما فيه، وهو قوامه الذى يقوم به ويتجمع عليه، ويشكو إليه اشتعال الرأس شيبا- والله يعلم- .

ووهن العظم، واشتعال الرأس شيبا كناية عن الشيخوخة وضعفها الذى يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه، وهو يعرض عليه حاله ورجاءه، معترفا بأن الله قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه، وما أحوجه الآن فى هرمه أن يستجيب الله له، ويتم نعمته عليه..

إنه يطلب الولى الصالح، الذى يحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده، ولا ينسى زكريا النبى الصالح، أن يصور أمله فى الذى يرجوه، وألا يكون جبارا ولا غليظا ولا متبطرا ولا طموعا..

ذلك دعاء زكريا لربه فى ضراعة وخفية، وترتسم لحظة الاستجابة فى رعاية وعطف ورضى، فالرب ينادى عبده من الملأ الأعلى: "يا زكريا" يكلمه، ويعجل له البشرى، "إنا نبشرك بغلام" وتغمره بالعطف، فيختار له اسم الغلام الذى بشره به "اسمه يحيى" وهو اسم "لم نجعل له من قبل سميا".

إنه فيض الكرم الإلهى يغدقه على عبده الذى دعاه فى ضراعة، وناجاه فى خفية، وكشف له عما يخشى، وتوجه إليه فيما يرجوه، والذى دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالى من بعده على تراث العقيدة، وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضى الله، وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه.

وأفاق زكريا على هذه الاستجابة القريبة للدعاء، فإذا هو يواجه الواقع.. إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتيا، وهن عظمه، واشتعل شيبه، وامرأته عاقر لم تلد من قبل، فكيف سيكون له غلام؟ إنه ليريد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التى يرزقه الله بها هذا الغلام.

إنه يواجه الواقع، ويواجه معه وعد الله، وإنه ليثق بالوعد. ولكنه يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذى يواجهه ليطمئن قلبه، وهى

حالة نفسية طبيعية، فى مثل موقف زكريا، النبى الصالح، الإنسان الذى لا يملك أن يغفل الواقع، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله..

ويأتى الجواب عن السؤال: أن هذا هين على الله، سهل، ويذكره بمثل قريب فى نفسه: فى خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن. وهو مثل لكل حى ولكل شيء، ولكل شيء فى هذا الوجود.. وليس فى الخلق هين وصعب على الله، فهو الذى جعل العاقر لا تلد، وجعل الشيخ الفانى لا ينسل، وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم. وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل، وهو أهون فى اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء، وإن كان كل شيء هينا على القدرة، إعادة أو إنشاء.

ومع ذلك فإن لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية، وعلامة على تحقيق البشرى فعلا. هو يريد أن يطول الكلام بينه وبين الله، فلم يكتف بإجابة واحدة، وإنما هو يريد أن يتكلم مع الله كلام مؤانسة.. وكلام المؤانسة يطول.. فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسى الذى كان فيه الدعاء، وكانت فيه الاستجابة، ويؤدى بها حق الشكر لله الذى وهبه على الكبر غلاما.. وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس، ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبح ربه، ويحتبس إذا كلم الناس، وهو سوى معافى فى جوارحه لم يصب لسانه عوج ولا آفة.." قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا" وكان ذلك: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم: ١١]

ذلك ليعيشوا فى مثل الجو الذى يعيش فيه، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده. ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٥]

ويأتى نداء علوى ليحيي قبل أن يتحدث عنه بكلمة، لأن مشهد النداء مشهد رائع عظيم، يدل على مكانة يحيي، وعلى استجابة الله لزكريا، فى أن يجعل له من ذريته وليا، يحسن الخلافة بعده فى العقيدة وفى العشيرة.

﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾

والكتاب هو التوراة، كتاب بنى إسرائيل من بعد موسى، وعليه كان يقوم أنبياؤهم يعلمون به ويحكمون. وقد ورث يحيى أباه زكريا، ونودى ليحمل العبء، وينهض بالأمانة فى قوة وعزم، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾

آتاه الحكمة صبيا، فكان فذا فى زاده، كما كان فذا فى اسمه وفى ميلاده، فالحكمة تأتى متأخرة، ولكن يحيى قد زود بها صبيا.

وآتاه الحنان هبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه، إنما هو مطبوع عليه، ومطبوع به، والحنان صفة ضرورية للنبى المكلف رعاية القلوب والنفوس.

وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع: "وكان تقيا" موصولا بالله، يخشاه ويستشعر رقابته عليه فى سره ونجواه: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٥]

لقد جاء ذكر نبى الله يحيى بن زكريا- عليهما السلام – فى خمس من آيات القرآن الكريم... وقد وضع ضمن كوكبة الأنبياء: إبراهيم، اسحق، يعقوب، نوح، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، عيسى، إلياس، إسماعيل، اليسع، يونس، لوط".. كل من الصالحين، وكل فضله الله على العالمين..

وليحيى منزلة كبيرة عند الله، فقد فقهه فى الدين، وعلمه التأويل، وفهمه أحكام رب العالمين، وهو لا يزال فى طور الصبا، وأمره بأن يعمل بما جاء فى التوراة بجد وعزم، وطبعه على التواضع والزهد وسمو النفس، وعلى تقوى الله تعالى فى السر والعلن، وعلى الاجتهاد فى العبادة من أجل تزكية النفس، وعلى الرفق بالمخلوقين والعطف عليهم، والحنان لهم.. كما

جعله الله تعالى كثير البر بوالديه، وكثير الإحسان إليهما، ولم يجعله متجبرا على الخلق، ولا عاصيا للخالق فى شيء. لذلك جعل الله تعالى له سلاما وأمنا وحفظا من الأذى لحظة ولادته، ويوم وفاته، ويوم بعثه حيا: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٥]

وقال صلى الله عليه وسلم : "من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة" وعن أبى هريرة قال: "سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: "كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلا يحيي بن زكريا فإنه كان سيدا وحصورا ونبيا ومن الصالحين".

ولقد تعددت الروايات عن استشهاد يحيي بن زكريا، لكن الثابت أنه قتل دفاعا عن دين الله الحق، وما يدعو إليه من التزام بمكارم الأخلاق.

وعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه خرج على أصحابه يوما فوجدهم يتذاكرون فضل الأنبياء.. قال قائل: موسى كليم الله، وقال قائل: عيسى روح الله وكلمته، وقال قائل: إبراهيم خليل الله. ومضى الصحابة يتحدثون عن الأنبياء.. فتدخل الرسول عليه الصلاة والسلام حين رآهم لا يذكرون يحيى قائلا: أين الشهيد ابن الشهيد؟ يلبس الوبر، ويأكل الشجر مخافة الذنب، أين يحيى بن زكريا؟

وعلى الرغم من التشابه بين ما جاء فى القرآن الكريم وما أوردته بعض كتب الأولين عن نبى الله يحيى بن زكريا، أو يوحنا المعمدان، فإن الفرق بين كلام الله وروايات البشر هو أوضح من الشمس فى رابعة النهار.

مريم:

والبشرية لم تشهد خلق نفسها، لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم. وتمضى القرون فتبرز العجيبه الأخرى فى مولد عيسى – عليه السلام – من غير أب، ومن قبل كان مولد حواء كمولد آدم – عليه السلام – ليشهد البشر هذه العجائب، ولتظل فى سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال.. وإليك إحدى هذه العجائب كما ذكرت فى الكتاب:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم:٢١]

فتاة عذراء، قديسة. وهبتها أمها وهى فى بطنها لخدمة المعبد. لا يعرف أحد عنها إلا الطهر والعفة حتى لتنسب إلى هارون أبى سدنة المعبد الإسرائيلى المتطهرين. ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم. وها هى تخلو إلى نفسها، وها هى ذى فى خلوتها، مطمئنة إلى إنفرادها. وفجأة وعلى غير انتظار تفاجأ مفاجأة عنيفة. إنه رجل مكتمل سوى: "فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا" وها هى ذى تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة، يفجؤها رجل فى خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به،

وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى من نفس الرجل، والخوف من الله، والتحرج من رقابته فى هذا المكان الخالى.. تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة التى نشأت فى وسط صالح. وكفلها زكريا، بعد أن نذرت لله جنينا- إنها فزعة خجلة - وهذا الرجل السوى - الذى لم تثق بعد بأنه رسول ربها- وهو يريد أن يهب لها غلاما. وتدركها الشجاعة وتسأل فى صراحة: كيف يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا..

فيقول لها الرسول : "إنما أنا رسول ربك" إنه مرسل ليهب لها غلاما طاهرا غير مدنس المولد، ولا مدنس السيرة ليطمئن بالها، ولكن كيف وهى عذراء لم يمسسها بشر، وما هى بغى؟ "قال كذلك" فهذا الأمر الهائل التى لا تتصور مريم وقوعه، هين على الله، فأمام طلاقة القدرة التى تقول للشي كن فيكون. كل شيء هين، سواء جرت به السنة المعهودة، أو جرت بغيره، والروح يخبرها بأن ربها يخبرها بأن هذا هين عليه، وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، وعلامة على وجوده، وقدرته وحرية إرادته، ورحمة لبنى إسرائيل أولا، وللبشرية جميعا بإبراز هذا الحادث الذى يقودهم إلى معرفة الله، وعبادته وابتغاء رضاه، وينتهى الحوار بين الروح الأمين، ومريم العذراء "وكان أمرا مقضيا".

وهكذا كلم الله مريم، وهو يرسل لها رسولا، فما كان لبشر أن يكلمة الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا.

لقد أرسل رسوله ، وتم الكلام بينه وبين السيدة العذراء، فكلمه

"روحنا" تعنى جبريل الروح الأمين، وهو رسول الله إلى مريم. أما الروح الذى نفخ الله منه فى آدم فإذا هو إنسان، ونفخ منه فى فرج مريم فإذا البويضة حية مستعدة للنمو: فهى النفخة الإلهية التى تمنح الحياة، وتمنح معها الخصائص المرافقة لنوع هذه الحياة. وهى فى الإنسان الاستعدادات التى تصله بالملأ الأعلى، وتهبه الحس الإنسانى والتفكير والمشاعر والإلهامات.

إن جبريل وهو الروح الأمين كان حاملا وموصلا لنفخة الروح العلوية من الله لمريم – والله أعلم – .

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم:٢٦]

ياالله .. طفل ولد اللحظة يناديها من تحتها، يطمئن قلبها، ويصلها بربها ويرشدها إلى طعامها وشرابها، ويدلها على حجتها وبرهانها.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٣٣]

وتحمل السيدة البتول وليدها، وتواجه قومها، ويدور بينها وبينهم حوار حول هذا الحادث العجيب، ومولد هذا الطفل: "فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا" ولكن ها هى ذى الخارقة العجيبة، "قال إنى عبد الله.." وهكذا يعلن عيسى – عليه السلام – عبوديته لله، وأن الله جعله نبيا، وبارك فيه وأوصاه بالصلاة والزكاة، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته، وله إذن حياة محدودة ذات أمد. وهو يموت ويبعث، وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا..

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء:٩١]

ولم يذكر اسم مريم، إنما ذكر صفتها المتعلقة بولدها "والتى أحصنت فرجها" فنفخ الله فيها من روحه، فكانت الآية الفذة فى تاريخ البشرية جمعاء "فنفخنا فيها من روحنا " وندرك طلاقة القدرة التى تفعل ما تشاء، وتخلق ما تريد "وجعلناها وابنها آية للعالمين" فنفخ الله فيها من روحه، فكانت الآية الفذة فى تاريخ البشرية جمعاء " فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا " وندرك طلاقة القدرة التى تفعل ما تشاء، وتخلق ما تريد : "وجعلناها وابنها آية للعالمين". "وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين". (المؤمنون ٥١ :٥٢).

عيسى بن مريم:

ذكره القرآن فى إحدى عشرة سورة تبدأ بسورة البقرة وتنتهى عند سورة الصف خمسا وعشرين مرة أما الرسل فهم يعلنون أن العلم الحق لله وحده، وأن ما لديهم من علم لا ينبغى أن يدلوا به فى حضرة صاحب العلم، تأدبا وحياء، ومعرفة بقدرهم فى حضرة الله... "قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب" .

فأما سائر الرسل- غير عيسى عليه السلام – فقد صدق بهم من صدق، وقد كفر بهم من كفر، ولقد انتهى أمرهم بهذا الجواب الكامل الشامل، الذى يدع العلم كله لله، ويدع الأمر كله بين يديه – سبحانه-.

أما عيسى بن مريم فقد فتن قومه فيه، وهو الذى حامت حوله الشبهات، فينتقل الخطاب إلى عيسى، يلتفت إليه يذكره نعمة الله عليه وعلى والدته، ويستعرض المعجزات التى آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته، فكذبه من كذبه منهم أشد التكذيب، وفتن به وبالآيات التى جاءت معه من فتن، وألهوه مع الله من أجل هذه الآيات، وهى كلها من صنع الله الذى خلقه وأرسله وأيده بالمعجزات.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ

بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١٠-١١١]

مواجهة بما كان من نعم الله على عيسى بن مريم وأمه، النعم التى لم يستطيعوا إنكار وقوعها- وقد شهدتها الألوف- ولم يريدوا التسليم بها عنادا وكبرا.. كذلك يذكره بنعمة الله عليه فى إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله، فإذا هم ملبون مستسلمون، يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله.

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ١١٠]

﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]

إنها النعم التى آتاها الله عيسى بن مريم ، لتكون له شهادة وبينه، فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ، وتصوغ منها وحولها الأضاليل فها

هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من الملأ الأعلى، ومن الناس جميعا.

وفى معرض النعم على عيسى وأمه، يقول الحواريون: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة:١١٣-١١٥]

الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم، يطلبون خارقة جديدة تطمئن بها نفوسهم، ويعلمون منها أنه صدقهم، ويشهدون بها له لمن وراءهم..

فأما أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – فلم يطلبوا منه معجزة بعد إسلامهم.. لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن عرفت الإيمان. ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان. ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن.. وهناك فرق بين هذا وذاك..

لقد كان الحواريون- وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم به – يعرفون أنه بشر ابن مريم.. وكانوا يعرفون أنه ليس ربا وإنما هو عبد الله، وأنه ليس ابن الله، إنما هو ابن مريم، وكانوا يعرفون أن ربه هو الذى يصنع هذه المعجزات، وليس هو، لذلك حين طلبوا إليه أن تنزل

عليهم مائدة من السماء، لم يطلبوها منه، وإنما سألوه ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

ولقد رد عليهم عيسى – عليه السلام – محذرا إياهم من طلب هذه المعجزة- لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق، ولا يقترحون على الله.. "قال اتقوا الله" ولكن الحواريين كرروا الطلب، معلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه: "﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [المائدة:١١٣]

فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الذى لا نظير له عند أهل الأرض، وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهى تتحقق أمام أعينهم، ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم، ثم يكونوا شهودا لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة.

عندئذ اتجه عيسى – عليه السلام – إلى ربه يدعوه.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المائدة:١١٤]

فهو يناديه- يكلمه – يا الله . يا ربنا . إننى أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء تعمنا بالخير والفرحة كالعيد، وارزقنا من رزقك.

ويستجيب الله دعاء عبده الصالح عيسى بن مريم، ولكن بالجد اللائق

بجلاله سبحانه.. لقد طلبوا خارقة، واستجاب الله على أن يعذب من يكفر منهم بعد ذلك عذابا شديدا لا يعذبه أحدا من العالمين".

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة:١١٥]

هكذا دار حوار بين عيسى وقومه، وكان من نتيجة هذا الحوار أن توجه عيسى إلى ربه يسأله بعد أن أمده بالنعم أن يستجيب لما طلبه الحواريون، ويستجيب الله لدعاء عيسى ويرد عليه بالموافقة على أن يعذب من يكفر بعد ذلك، ثم يأتى بعد ذلك استجواب من الله سبحانه لعيسى بن مريم وأمه، استجواب مباشر يوجه إلى عيسى – عليه السلام – فى مواجهة الذين عبدوه، ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه فى فزع من هذه الكبيرة التى افتروها عليه وهو منها برئ..

﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة:١١٨]

قال الله – يكلم سيدنا عيسى عليه السلام – ويستجوبه فى أمر هو

يعلمه. الله يعلم ماذا قال عيسى، ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب، الاستجواب الذى يقصد به إلى غير المسؤول، ولكن فى صورته هذه وفى الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم..

من أجل ذلك كان الجواب يبدأ بالتسبيح والتنزيه: "قال سبحانك".. ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً، "ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق".

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته: "إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب".

فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله وحده، ويدعوهم إلى عبادته: "ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم".

وينتهى إلى التفويض المطلق فى أمرهم، مع تقرير عبوديتهم لله وحده، وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم، وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب.

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ وفى الختام تأتى النتيجة فى هذا السياق: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة:١١٩]

إنها كلمة رب العالمين فى ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين..

إنها طلاقة القدرة، فقد استجيبت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر لمن يسمع الدعاء، ويملك الإجابة حين يشاء، يدعو زكريا فيستجيب الله له ويهبه غلاما وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر- مشيئة الله - ويفرح زكريا بعطاء الله، الذى يقرره ولا ينكره، إنها فرحة بمناجاة ربه، واستجابته هو بما أمره به الله، فلم يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا، وانطلق لمناجاة ربه، يذكره ويسبحه..

وفى مشهد آخر يرسل الله ملائكته إلى مريم حاملة بشرى أخرى، ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران:٤٢]

وأى اصطفاء للأمر الجلل الذى يحتاج إلى طاعة وعبادة وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيدا للأمر العيظم الخطير، من أجل ذلك جاء قول الله: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٣]

فالآن تلقى هذا النبأ من الملائكة: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

لقد تأهلت مريم بالتطهر والقنوت والعبادة لتلقى هذه البشرى- هذا الفضل - واستقبال هذا الحدث، وهو تبليغ عن طريق الملائكة من الله عز وجل، إنها بشارة كاملة، وإفصاح عن الأمر كله.

وقد تلقت مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بمألوف البشر فى الحياة. تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة. واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذى يحير عقل الإنسان: "قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر" فى البداية كانت البشرى عن طريق الملائكة، ثم تكون المناجاة بعد ذلك مع الله، ويجيئها الجواب من الله تعالى، يردها إلى الحقيقة : "قال كذلك الله يفعل ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون"، وهنا يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب، وكفى المرء راحة أن يكون مع الله فى مناجاة، يكلم الله ويكلمه الله...

وتخلص المناجاة إلى مولد عيسى عليه السلام، بشارة بكلمة من الله، لقد شاء الله أن يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب- بدون أب وأم- وخلق حواء- بدون أم - من ضلع آدم - وخلق عيسى - بدون أب- سر لا يعلمه إلا الله، سر الحياة التى لا بست أول مخلوق حى، أو لابست آدم إن كان خلقه مباشرة من التراب الميت- وهذه كتلك فى صنع الله - وليست واحدة منهما بأولى من الأخرى فى الوجود والكينونة.

هذا عيسى - عليه السلام - وهذا خلقه نفخة من روح الله، وهذا مولده، فأما كانت وفاته، وكيف كان رفعه؟ فهى أمور غيبية، لا يعلم

تأويلها إلا الله، وليس لنا إلا نؤمن بها ونصدقها.. ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ [آل عمران:٥٥]

إن هذا الكلام الذى دار بين الملائكة وبين من اصطفاهم الله من خلقه- وهو إعلام بخفاء – تبعة ثقيلة على من كلمهم الله بقدر ما هى عظيمة...

موكب الرسل:

إن عدة الرسل الذين جاء ذكرهم خمسة وعشرون رسولا هم:

آدم – نوح – إبراهيم – داود – سليمان – لوط – أيوب – إسماعيل – إدريس – ذو الكفل – ذو النون – زكريا – صالح – هود – شعيب – إسحق – يعقوب – يوسف – موسى – هارون – يحيى – عيسى – إلياس – إليسع – محمد.

أولو العزم من الرسل: محمد – عيسى – موسى – إبراهيم – نوح.

إن تعدد الرسل على مدار الزمان، وثيق الارتباط بالعقيدة وبتلك النواميس الكونية الكبرى، وقد اقتضت مشيئة الله أن يكون الرسل كلهم من البشر..

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء:٧]

فقد اقتضت حكمة الله أن يكونوا من البشر، يتلقون الوحى فيدعون به الناس وليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل، إن كانوا هم لا يعلمون، والذين كانوا يقترحون أن تكون الرسل من الملائكة، يغفلون عن هذه الحقيقة، وهى أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم، ولا يمكن أن يحيوها، وأن الرسول يجب أن يحس بدوافع الجسد ومقتضياته، وتلك التى لا يحسها الملائكة.

وهناك اعتبار آخر، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير فى نفوسهم الرغبة فى تقليده فى جزئيات حياته، لأنه من جنس غير جنسهم، وطبيعة غير طبيعتهم، فلا مطمع لهم فى تقليد منهجه فى حياته اليومية. وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:٩]

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء:٩٥]

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام:٨]

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون:٢٤]. ذلك أنهم لا يجدون فى أرواحهم تلك النفخة العلوية التى تصل البشر بالملأ الأعلى، وتجعل المختارين من البشرية يتلقون ذلك الفيض العلوى ويطيقونه، ويحملونه إلى إخوانهم من البشر، فيهدونهم إلى مصدره الوضيء، يقول الحق: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء:١٩٢- ١٩٣]

والروح الأمين جبريل- عليه السلام – نزل بهذا القرآن من عند الله على قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وليس على أذنه، وهو أمين على ما نزل به، حفيظ عليه، نزل به على قلبه فتلقاه تلقيا مباشرا، ووعاه وعيا مباشرا، نزل به على قلبه ليكون من المنذرين، بلسان عربى مبين، هو

لسان قومه الذى يدعوهم به، ويتلو عليهم القرآن، وهم يعرفون مدى ما يملك البشر أن يقولوا، ويدركون أن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وإن كان بلغتهم، وأنه بنظمه وبمعانيه وبمنهجه وبتناسقه يشى بأنه آت من مصدر غير بشرى بيقين.

أو لم يكفهم أن يعيشوا مع السماء بهذا القرآن، وهو يتنزل عليهم، يحدثهم بما فى نفوسهم، ويكشف لهم عما حولهم، ويشعرهم أن عين الله عليهم، وأنه معنى بهم، حتى ليحدثهم بأمرهم، ويقص عليهم القصص ويعلمهم. وهم هذا الخلق الصغير الضئيل التائه فى ملكوت الله الكبير. وهم وأرضهم وشمسهم التى تدور عليها أرضهم، ذرات تائهة فى هذا الفضاء العريض لا يمسكهن إلا الله، والله بعد ذلك يكرمهم حتى لينزل عليهم كلماته تتلى عليهم، ثم هم لا يكتفون : ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت:٥]

وكذلك أرسل الله رسله تترى، ويأتى خطاب إلى الرسل وهم مجتمعون فى صعيد واحد، فى وقت واحد، فالفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة التى تربط بينهم جميعا، "يأيها الرسل". إنه نداء للرسل ليمارسوا طبيعتهم البشرية التى ينكرها عليهم الغافلون، نداء لهم ليصلحوا فى هذه الأرض، فالعمل من مقتضيات البشرية، والعمل الصالح هو الذى يميز الصالحين المختارين، والمطلوب أن يرتقى الرسول ببشريته إلى أفقها الكريم، الذى أراده الله لها. وجعل الأنبياء روادا لهذا الأفق، ومثلا أعلى،

والله هو الذى يقدر العمل..

لقد أرسل الله نوحا إلى قومه، وأرسل من بعده رسلا إلى قومهم، ثم بعث من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه، فجاؤا بالبينات، فاستكبر الكفار وكانوا قوما مجرمين، وهكذا توالت الرسل، واستعمل الله كل رسول لقومه يدعوهم بلغتهم، ويبين لهم رسالة الله إليهم، وإذا أحب الله عبدا استعمله،قالوا وكيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال يهيئه لعمل طيب يختاره عليه..

لقد حاز الأنبياء جميع الكمالات، لكنهم لم يخرجوا عن بشريتهم، أعطاهم الله من علمه الكثير، وأيدهم عز وجل بالوحى وبالمعجزات، وقد استعملوا العقل فى دعوتهم، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٤] واللسان يعنى اللغة وأساليبها وأدبياتها وإيماءاتها.. فاللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، العربى يفهم العربى، وغير العربى يفهم غير العربى، والجماد يفهم الجماد، والحيوان يفهم الحيوان، والإنسان يفهم الإنسان، والله عنده علم بكل هذا. والأجناس الأخرى لها ألفاظ يعبرون بها.. وهناك تسبيح بلغة الجماد يفهمها، والمراد تسبيح الدلالة على الموجد "ولكن لا تفقهون تسبيحهم" فإن اختلفت اللغات عند الأجناس، فالمعنى يتحد عند الجميع، ويختلف اللفظ باختلاف اللغات.

والله من وراء ذلك محيط.

وقصة الرسل والرسالات فى جميع أزمانها، قصة الرسل والرسالات وحقيقتها فى مواجهة الضلال، وغاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم:٩]

قوم نوح وعاد وثمود، وفرعون ذى الأوتاد، وقوم لوط وأصحاب الأيكة، ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ص:١٥] ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص:١٤]

وهناك غير من جاء ذكرهم فى القرآن، ما بين ثمود وقوم موسى. فهناك وحدة فى دعوة الرسل، ووحدة فيما قوبلت به، ويعترض القوم فى جهالتهم إلى ذلك الاعتراض المجهول: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وبدلا من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار...

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [فُصِّلَت:١٣-١٤]

ويرد الرسل لا ينكرون بشريتهم بل يقررونها، ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله فى اختيار رسل من البشر، وفى منحهم ما يؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم:١١]

ويطلق الرسل حقيقة دائمة، فعلى الله وحده يتوكل المؤمن، لا يلتفت قلبه إلى سواه، ولا يرجو عونا إلا منه، ولا يرتكن إلا إلى حماه، وهو الذى يصبر على الأذى، لا يضعف ولا يتراجع، ولا يهن. هؤلاء لا يتركهم الله. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١]

وتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التى لا تقف لها قوة البشر. وإن كانوا طغاة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤]

الله يوحى إليهم بالاطمئنان وعدم الخوف، فسيهلك الظالمين ويتحقق النصر لرسل الله، فمهمتهم عند البلاغ المبين قد انتهت، وها هى المفاضلة التى تميز المؤمنين من المكذبين.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]

والوعد واقع وكلمة الله قائمة، والسلام من الله على رسله، وإعلان الحمد لله الواحد رب العالمين بلا شريك: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢]

هؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون ركب الإيمان، هم الذين كلمهم الله، وهم الذين هداهم الله، وهداهم الذى جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله- صلى الله عليه وسلم - ومن آمن به..

مشهد رائع باهر.. مشهد هذه النفوس التى حملت هذا الدين، وكانت ستارا لقدر الله، ومنفذا لمشيئته فى واقع الحياة..

لقد أرسل الله نوحا إلى قومه فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجاه الله وأصحاب السفينة، وكانت آية للعالمين، وقد جاء ذكر نوح فى القرآن فى ثمان وعشرين سورة تبدأ بسورة النساء، وتنتهى بسورة الحديد، سلام على نوح، وسلام على إبراهيم.

وأرسل إبراهيم إلى قومه ودعاهم إلى عبادة الله، فكذبوه وأرادوا قتله، أو حرقه، فأنجاه الله من النار، ووهب له ربه إسحاق ويعقوب، وقد جاء ذكره فى القرآن فى خمس وعشرين سورة، تبدأ بسورة البقرة وتنتهى بسورة

الأعلى.

وأرسل لوطا- الذى آمن إبراهيم - إلى قومه فكذبوه، ونصره الله عليهم، ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النمل:٥٤-٥٨]

نجاه الله وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين..

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٣-١٣٨]

وقد ذكر لوط فى القرآن الكريم فى أربعة عشر سورة، تبدأ بسورة هود، وتنتهى بسورة الصافات.

وأرسل شعيبا إلى مدين وقومه أن اعبدوا الله، فكذبوه فأخذتهم الرجفة، ذكر اسمه فى القرآن فى إحدى عشر مرة فى أربع سور، تبدأ بسورة الأعراف، وتنتهى بسورة العنكبوت.

وأرسل صالحا وهودا إلى عاد وثمود، ودعوا قومهما إلى عبادة الله وحده، وهما نبيان من أنبياء الله.

وقد جاء ذكر صالح فى القرآن فى أربع سور، تبدأ بسورة الأعراف، وتنتهى بسورة النمل، وجاء ذكر هود فى القرآن فى ثلاث سور، تبدأ بسورة الأعراف، وتنتهى بسورة الشعراء.

وأرسل موسى بالبينات إلى فرعون وهامان وقارون، فكلا أخذ الله بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبنا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون..

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات:٥٢]

وقد جاء ذكر موسى فى القرآن فى أربع وثلاثين سورة تبدأ بسورة البقرة، وتنتهى بسورة الأعلى.

وأرسل الله إلياس إلى قومه فى سوريا، وكانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا، وما تزال آثار مدينة بعلبك تدل على آثار هذه العبادة.﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الصافات:١٢٣] وقد دعا إلياس قومه إلى التوحيد، وكانت العاقبة هى التكذيب، والسلام لإلياس، فهو من المحسنين ومن عباد الله المؤمنين: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات:١٣٢]

المحسنون، وعباد الله المؤمنون، عليهم سلام الله.

وأرسل الله يونس برسالة إلى مائة ألف أو يزيدون: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٨]

وقد جاء ذكره فى القرآن فى أربع سور، تبدأ بسورة النساء، وتنتهى بسورة الصافات.

داود:

نبى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلبا ذاكرا، وصوتا رخيما، يرجع به تراتيله التى يمجد فيها ربه، وإذا الجبال والطير تسبح معه، وقد وهبه الله هذه الخاصية. فكان ملكه قويا يسوسه بالحكمة مع القوة.. ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣]

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾ إنهم جماعة خاصة، ذات طبيعة خاصة. وإن كانوا بشرا من البشر.. فمن هم؟ ما الرسالة؟ ما طبيعتها؟ كيف تتم؟ لماذا كان هؤلاء وحدهم رسلا؟ وبماذا؟

هذه الطبيعة الخاصة . وإن كانوا بشرا من البشر.. فمن هم؟ ما الرسالة؟ ما طبيعتها؟ كيف تتم؟ لماذا كان هؤلاء وحدهم رسلا؟ وبماذا؟

هذه الطبيعة الخاصة هى التى تتلقى الوحى، فتطبق تلقيه، لأنها مهيأة لاستقباله.. إنها تتلقى الإشارة الإلهية التى يتلقاها هذا الوجود..

إن هذه الطبائع الخاصة الموصولة بناموس الوجود صلة مباشرة. هى التى تملك أن ترسم للبشرية إتجاهها الشامل. اتجاهها الذى يتسق مع

فطرة الكون وقوانينه الثابتة وناموسه المطرد. هى التى تتلقى مباشرة وحى الله. فلا تخطئ ولا تضل، ولا تكذب ولا تكتم، ولا تحجبها عوامل الزمان والمكان عن الحقيقة، لأنها تتلقى هذه الحقيقة عن الله، الذى لا زمان عنده ولا مكان.

إن الله فضل بعض الرسل على بعض، والتفضيل قد يتعلق بالمحيط المقدر للرسول، والذى تشمله دعوته ونشاطه. كأن يكون رسول قبيلة، أو رسول أمة، أو رسول جيل، أو رسول الأمم كافة فى جميع الأجيال.."منهم من كلم الله – ورفع بعضهم درجات"

وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى – عليه السلام – ومن ثم لم يذكره باسمه. وذكر عيسى بن مريم- عليه السلام- وأيده بروح القدس، والقرآن يعنى به جبريل- عليه السلام – فهو حامل الوحى إلى الرسل. وهذا أعظم تأييد وأكبره. وهو الذى ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم.. والسياق سياق إخبار لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – عن غيره من الرسل..

وحين ننظر إلى مقامات الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم – من أية ناحية، نجد محمدا- صلى الله عليه وسلم – فى القمة العليا..

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة:١٠٩]

يوم يجمع الله الرسل الذين فرقهم فى الزمان فتتابعوا على مداره، وفرقهم فى المكان فذهب كل إلى قريته، وفرقهم فى الأجناس فمضى كل إلى قومه..

يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام، حتى جاء خاتمهم – صلى الله عليه وسلم – بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان، وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان.

هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام، فى شتى الأمكنة والأزمنة، يجمعهم الله ويجمع فيهم شتى الاستجابات، وشتى الاتجاهات.. وها هم أولاء.. نقباء البشرية فى حياتها الدنيا، ومعهم رسالات الله إلى البشرية فى شتى أرجائها، ووراءهم استجابات البشرية فى شتى أعصارها. هؤلاء هم أمام الله.. رب البشرية – سبحانه – فى مشهد يوم عظيم..

اليوم تجمع الحصيلة، ويضم الشتات، ويقدم الرسل حساب الرسالات، وتعلن النتائج على رءوس الأشهاد..

والرسل بشر من البشر، لهم علم ما حضر، وليس لديهم علم ما استتر. لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى، فاستجاب منهم من استجاب، وتولى منهم من تولى.. وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى. فإنما له ظاهر الأمر، وعلم ما بطن لله وحده.. وهم فى حضرة الله الذى يعرفونه خير من يعرف، والذى يهابونه أشد من يهاب، والذى يستحيون أن يدلوا بحضرته بشئ من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير..

إنه الاستجواب المرهوب فى يوم الحشر العظيم، على مشهد من الملأ الأعلى، وعلى مشهد من الناس أجمعين. الاستجواب الذى يراد به المواجهة. مواجهة البشرية برسلها، ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يكذبونهم، ليعلن فى موقف الإعلان أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوهم من عند الله بدين الله، وها هم أولاء مسؤولون بين يديه - سبحانه- عن رسالاتهم وعن أقوامهم..

وكما اختار الله من البشر رسلا، وأرسلهم لبيان قضية العقيدة الإسلامية، اختار كذلك من بين البشر إنسانا يصعد إلى السماء حيا يرزق- اختار ولا مرد لاختياره، والسبب لا يعرفه إلا الله وحده، إنسانا بسيطا يعمل خياطا للثياب، هو نبى الله إدريس- عليه السلام - الذى ولد بمصر وعاش بمصر قبل نحو ما يقرب من سبعة آلاف عام قبل الطوفان الذى أغرق الأرض ومن عليها .. وقبل ظهور سيدنا نوح نفسه، والذى قال فيه الحق تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم:٥٦-٥٧]

وسيدنا إدريس هو جد سيدنا نوح.. كان كثير الدرس، فياض العلم..

إن الله عز وجل أمر آدم عليه السلام لما أراد أن يتوفاه بأن يجعل وصيته إلى شيث ويعلمه جميع العلوم، وأمره أن يرفع إليه يسر الملكوت الذى كان عنده، ولا ينظرون فيه حتى وصل إلى إدريس، وقد سمى بهذا الاسم لكثرة ما كان يدرس من كتب الله عز وجل.

وقيل إن إدريس أول من نظر فى علم النجوم بعد آدم. ولقد ولد وعاش فى مصر التى عرفت بهذا الاسم فيها بعد. وأن عقيدة التوحيد التى دعا إليها قوم مصر ظلت عقيدتهم فترة زمنية طويلة. وقد تعدت دعوة إدريس عليه السلام إلى أقوام آخرين غير قوم مصر، ارتحل إليها ثم عاد إلى مصر، وظل يعيش فيها إلى أن رفعه الله.. وإن كان الحكماء قد اختلفوا فى مولده ومنشئه وعمن أخذ العلم قبل النبوة.

دعا إدريس الخلائق فى مصر إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد أفهمه الله أسرار الفلك وأفهمه عدد السنين والحساب، ودعا إلى دين الله، والقول بالتوحيد، وعبادة الخالق، وتخليص النفوس من العقاب فى الآخرة بالعمل الصالح فى الدنيا، والعمل بالعدل، وأمرهم بالصلاة والصوم..

لقد رفع الله سيدنا إدريس إليه قبل أن يرفع سيدنا عيسى - عليه السلام - بنحو خمسة آلاف سنة.. رفعه الله مكانا عليا.

إن دور العقل أن يؤمن وأن يصدق، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن هؤلاء الرسل بما أوحى به الله إليهم. وبما كلمهم فيه الله، وليس دور العقل أن يبحث فى طريقة هذا الكلام بعد أن تأكد من صحة حدوثه، فهو غيب ولنا أن نؤمن بالغيب ولا نحكم عليه.

إن قضية الحوارات الإلهية، توقظ العقل وتوجهه، وأن يفهم ما الذى يعنيه هذا الكلام وهذا الحوار، وما مدلول هذا الكلام؟

إن الله يصطفى من خلقه من يشاء، ويختار من رسله من يريد، ويفضل البعض عن البعض، ولذلك حكمة بالغة، ويأتى القصص فى القرآن ليبين من اصطفاهم الله من عباده، واختارهم لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة، ليكونوا طلائع الموكب الإيمانى فى شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون. فيقرر أنهم ذرية بعضها من بعض:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣]

ويذكر السياق آدم ونوحا فردين، وآل إبراهيم وآل عمران أسرتين، إشارة إلى أن آدم بشخصه ونوحا بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء، فأما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما- وهى وراثة العقيدة – ومن هذا التمهيد فى الاصطفاء ينتقل السياق إلى آل عمران ومولد مريم.

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران:٣٥-٣٧]

مناجاة قريبة بين امرأة عمران، وبين الله، مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه، يحدثه بها فى نفسه- والله يعلم ما فى النفس- ويحدثه بها بين يديه،

ويقدم له ما يملك تقديما مباشرا لطيفا، وهى الحال التى يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم، حال الود والقرب، والمناجاة البسيطة، التى لا تكلف فيها ولا تعقيد. مناجاة من يحس أنه يحدث قريبا، ويكلم ودودا سميعا مجيبا..

وليس أدل على اختيار الله لمن يناجيه هذا الفيض من الرزق الذى وجده زكريا عند مريم وهو الأمين عليها- وهو نبى - فيسألها كيف ومن أين هذا كله؟ فتقول فى خشوع وتواضع واعتراف بنعمة الله وفضله: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهى كلمة تصور حال المؤمن مع ربه، واحتفاظه بالسر الذى بينه وبينه، والتواضع فى الحديث عن هذا السر.

وقد أثارت هذه الظاهرة عجب نبى الله زكريا، فتحركت فى نفسه الرغبة الفطرية القوية فى النفس البشرية. الرغبة فى الذرية. إنها الفطرة التى فطر الله الناس عليها: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ ويأتى الرد من الله.. ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ تكلمة الملائكة - رسل الله إلى عباده المختارين- بوحى من الله، ويسمع زكريا صوت الملائكة، ويفهم ما يقولون له- وهم المكلفون بتبليغ رسالة إلى زكريا- بعد أن استجاب له الله. وهو يعلم ويدرك أن ما بلغته به الملائكة هو من عند الله، ويعلم أن الله قد استجاب

لدعائه، فدفعته نفسه أن يجد فى ذلك فرصة سانحة للكلام مع الله، فإما تكلم مع الله مباشرة، وإما جعل الملائكة ينقلون رسالته وحديثه كما نقلوا إليه البشرى من الله. وكان يمكن لزكريا أن يكتفى بهذه البشرى. لكنه أراد أن يستأنس بالخطاب مع الله، وود لو يطول هذا الخطاب، فكان هذا الحوار: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ ﴾ مساحة من الوقت للحديث مع الله.. ألم تطلب من الله أن يهبك ذرية طيبة، وقد استجاب لك الله، ووهبك ما تشاء، فكان من الممكن أن يكتفى بقبول الدعاء، واستجابته لطلبه، ولكن الرغبة العظمى هى فى مناجاة الله فيسأله وكيف يا رب وهو يعرف أن الله قادر على كل شيء، ويأتيه الرد. ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ حقيقة يجب أن يؤمن بها كل من على الأرض من خلق الله..

فهل اكتفى زكريا بما أخبره به الله.. نعم هو راض وشاكر، ولكنها فرصة لا يجب أن يتركها تضيع دون أن يسعد نفسه فى حواره مع الله: "﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ ﴾ ويجيب الله تعالى إلى سؤاله : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ ﴾ وهذا وكفى ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

محمد وأمة الرسل:

أرسل الله النبى – صلى الله عليه وسلم – بلسان قومه، وإن كان رسولا إلى الناس كافة، وأرسل الرسل بلغة أقوامهم، وهذه نعمة شاملة للبشر فى كل رسالة، فلكى يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم، ليبين لهم وليفهموا عنه، فتتم الغاية من الرسالة، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]

إذ تنتهى مهمة الرسول – كل رسول عند البيان، ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

وهكذا كانت وظيفة الرسل، هداية الناس ودعوتهم إلى عبادة الله، وكانت وظيفة الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – وما معه من الذكر الأخير، وذلك تمهيدا لإنذار المكذبين به ما يتهددهم من هذا التكذيب: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم.. لم نرسل ملائكة، ولم نرسل خلقا آخر، رجالا مختارين "نوحى إليهم" كما أوحينا إليك، ونكل إليهم التبليغ كما وكلنا إليك. فاسألوا أهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل

من قبل، أكانوا رجالا، أم كانوا ملائكة، أم خلقا آخر؟ أرسلناهم بالبينات والكتب.. وجاء القرآن ليبين لهم طريق الحق، ويدعو إلى التفكير والتدبر، وإلى يقظة الفكر والشعور..

وقد كذبوا بالقرآن، وهم لا يدركون وظيفة هذا الكتاب، وأنه الرسالة الأخيرة التى ليست بعدها من السماء رسالة، وأن هذا القرآن نزل من عند الله، "قل نزله" روح القدس" جبريل – عليه السلام – بالحق ، لا يلتبس به الباطل ليثبت الذين آمنوا، الموصولة قلوبهم بالله، فهى تدرك أنه من عند الله، فتثبت على الحق، وتطمئن إلى صدق، ويهدى إلى الطريق المستقيم، ويبشر بالنصر والتمكين..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النحل: ١٠٤-١٠٥]

إن الله يدعو رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يتجه للدين مستقيما، فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التى لا تستند على حق، ولا تستمد من علم، ويربط الله بين فطرة النفس البشرية، وطبيعة هذا الدين، وكلاهما من صنع الله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠]

ويقول سبحانه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الروم:٤٣]

وفى هذا الاهتمام والانتباه والتطلع، واستشراف الوجهه السامية والأفق العالى، والاتجاه السديد.

ولقد أرسل الله من قبل محمد – صلى الله عليه وسلم – رسلا إلى قومهم، ولكن الناس لم يستقبلوا رحمة الله هذه استقبالا حسنا، ووقفوا مجرمين لا يؤمنون ولا يتدبرون ولا يكفون عن إيذاء الرسل، والصد عن سبيل الله، وآخرين مؤمنين يدركون آيات الله، ويشكرون رحمته، ويثقون بوعده، فكان وعد الله انتقاما من الذين أجرموا، ونصرًا للمؤمنين: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم:٤٧]

ويوجه الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – إلى بيان وظيفته : "قل إنما أنذركم بالوحى" والقرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول – صلى الله عليه وسلم – وهناك ذكر من سبقه من الرسل. فكل دين قائم على عقيدة التوحيد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥]

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس، لا تبديل فيها ولا تحويل، توحيد الإله، وتوحيد المعبود.

وقد جاءت أمة الرسل الواحدة فى سلسلة طويلة يستعرضها القرآن الكريم استعراضا طويلا، يطول بعض الشيء عند عرض البعض، ويقصر عند البعض الآخر. وما يشار إليه عند البعض يكمله البعض الآخر، فالكل فى حق الوصف متساوون، هؤلاء هم عليهم السلام: إبراهيم - داود - سليمان - نوح - موسى - هارون - لوط - إسماعيل - إدريس - ذو الكفل - ذو النون - زكريا - يحيي - عيسى ... وغيرهم.

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم الرسل جميعا. وها هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤمر أن يلقى كلمة الإنذار: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء: ٤٥]

ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة لبأخذ بأيديهم إلى الهدى، وما يهتدى إلا أولئك المتهيئون المستعدون. وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧- ١٠٨]

إن المنهج الذى أوحى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - منهج يسعد البشرية كلها، ويقودها إلى الكمال المقدر لها فى هذه الحياة..

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلى؛ جاءت كتابا مفتوحا للعقول فى مقبل الأجيال، شاملا لأصول الحياة البشرية

التى لا تتبدل، مستعدا لتلبية الحاجات المتجددة التى يعلمها خالق البشر، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير..

ولقد كانت رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده، والمبادئ التى جاء بها أخذت البشرية تستوعبها شيئا فشيئا حتى نفذتها، وبعد ذلك يؤمر الرسول- صلى الله عليه وسلم – بأن يواجه الناس بخلاصة رسالته التى تنبع منها الرحمة للعالمين: ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ وهذا هو طريق الرحمة.

ويستعرض القرآن أمة الرسل أو بعضها، وفيهم تتجلى سنة الله فى إرسالهم من البشر، ووحدة العقيدة والطريق لجماعة الرسل على مدار الزمان، حتى لكأنهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان.

ولأن المشركين كانوا يستهزئون بالرسول- صلى الله عليه وسلم – لأنه بشر، وأنهم كانوا يكذبون بالوحى، ولكن الله يبين لهم أن إرسال الرسل من البشر هى السنة المطردة.

وهذه نماذج لها من قبل، وأن نزول الكتب على الرسل ليس بدعة مستغربة فها هما موسى وهارون آتاهما الله كتابا "الفرقان" : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٨]

وآتى الله إبراهيم رشده من قبل، ويعنى بالرشد الهداية إلى التوحيد الذى هو عين الرسالات جميعها: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١] وعرض القرآن الكريم لموقف إبراهيم من قومه ومن الأصنام لعلهم يرجعون إليه ليسألوه عمن قام بهذا العمل: وفى هذا تهكم واضح، وصار بينه وبينهم جدل طويل، انتهى إلى أنهم قالوا حرقوه، وألقوه فى النار فكانت بردا وسلاما على إبراهيم بكلمة واحدة من الله "قلنا". أوحى الله إلى النار أن تخرج عن نواميسها وتكون بردا وسلاما. كلمة "كونى: تكون بها أكوان، وتنشأ بها عوالم، وتخلق بها نواميس: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]، فالذى قال للنار كونى حارقة، هو الذى قال لها كونى بردا وسلاما – طلاقة قدرة – ونجى الله إبراهيم وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء:٧١] وهى أرض الشام التى هاجر إليها هو وابن أخيه لوط، فكانت مهبط الوحى فترة طويلة، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم، وفيها الأرض المقدسة، وثانى الحرمين، وفيها بركة الخصب والرزق إلى جانب بركة الوحى والنبوة جيلا بعد جيل..

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء:٧٢-٧٣]

إبراهيم – عليه السلام – هو القدوة التى أمر الله المسلمين من بنيه أن

يتأسوا بها.. وكذلك استحق إبراهيم بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة فى الكون، والدلائل الموحية بالهدى فى الوجود.﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[الأنعام:٧٥]

وكذلك سار إبراهيم - عليه السلام - وفى هذا الطريق وجد الله، وجده فى إدراكه ووعيه.. ووجد حقيقة الألوهية فى الوعى والإدراك مطابقة لما استكن منها فى ضميره ووجدانه.. وانتهى إلى رؤية الله - سبحانه - فى ضميره وعقله وفى الوجود من حوله، وقد أطمأن قلبه واستراح باله..

وتعرض السورة (الأنعام) موكب الإيمان الجليل، يقوده ذلك الرهط الكريم من الرسل، من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبين- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- يعرض هذا الموكب ممتدا موصولا- وبخاصة منذ إبراهيم وبنيه من النبين- فهنا الموكب بجملته وليس بتسلسله التاريخى.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام:٨٤- ٩٠]

ذكر لسبعة عشر نبيا رسولا – غير نوح وإبراهيم – وإشارة إلى آخرين، ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ﴾ ... وهذا الرهط الكريم اصطفاه الله سبحانه وهداه إلى الطريق المستقيم..

وقد أوحى إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – أن يتلو ما أوحى إليه من الكتاب، وأن يدعو إلى إقامة الصلاة، وما أوحى إليه من الكتاب هو وسيلة محمد – صلى الله عليه وسلم – للدعوة: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥]

وقد عرض الله لهذه النماذج على رسوله – صلى الله عليه وسلم ليصبر على ما يلاقيه. فيذكره بما كان من شأنهم : ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ [ص:٤٩]

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص:٤٥- ٤٨]

الرسول : يؤمر ويبلغ ما يؤمر به، مهمة الرسول فى ايصال البلاغ، الرسول برسالة ينشرها..

النبى : لم يؤمر بالتبليغ ، فهو مرسل بذاته، النبى أسوة عمل .

الرسل: متواليون توالى الإنسان فى الكون . الرسل هم بلاغ منهج كل رسول نبى، وليس كل نبى رسول.

الفطرة السليمة إذا صفت تستطيع أن تصل إلى الأشياء قبل أن يفرضها الله.

بعث الله ملائكة واصطفى منهم رسلا.

مصطفى من الملائكة على مصطفى من البشر، يتلقى من الله.

المصطفى من الملائكة يوحى إلى المصطفى من الرسل.

وهناك كثرة من الأنبياء تتابعوا فى تاريخ بنى إسرائيل الطويل، وهم فى هذه اللقطة يجتمعون إلى نبى لهم، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧]

من هذا النبى؟ وما هذا القتال؟ لم يذكر القرآن اسم هذا النبى، وأما القتال فهو من سبيل الله، وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال يشى

بانتفاضة العقيدة فى قلوبهم، ويقظة الإيمان فى نفوسهم، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق، وأن أعداءهم على كفر وضلالة وباطل.

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم، وثبات نيتهم، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة، وجدهم فيما يعرضون عليه من الأمر: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ .. إنها الكلمة اللائقة بنبى، والتأكد اللائق بنبى، فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء، وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ.

وهنا القتال واجب وضرورة فقد أخرجهم أعداء الله من ديارهم، وسبوا نساءهم، ولا ضرورة إلى المراجعة فى هذا القتال. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ والتعقيب على هذا: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ...﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾ [البقرة:٢٤٧]

وقد كشف النبى عن حكمة الله فى اختياره، يختار من عباده من يشاء..
﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)﴾

[البقرة:٢٤٨]

ويبدو أن هذه الخارقة قد وقعت، فانتهى القوم منها إلى اليقين..

ثم أعد طالوت جيشه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة:٢٤٩]

هنا تتجلى حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل.. إنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة، أمام جيش أمة غالبة، فلابد إذن من قوة، ولا تكون إلا فى الإرادة والصمود للرغبات والشهوات، والصبر على الحرمان والمتاعب، فكانت هذه التجربة : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفى، ولابد من التجربة العملية، ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار.. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ ﴾ وهم يكلون النصر لله ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)﴾ [البقرة:٢٥٠]

وداود كان فتى صغيرا من بنى إسرائيل، وجالوت كان ملكا قويا وقائدا محنكا.. ولكن الله شاء، فالأمور لا تجرى بظواهرها، إنما تجرى بحقائقها، وحقائقها يعلمها هو: ومقاديرها فى يده وحده.. وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار على يد هذا الفتى الصغير، وقدر أن يكون داود هو الذى يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده هو العهد الذهبى لبنى إسرائيل فى تاريخهم الطويل: ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١]

وكان داود ملكا نبيا، وعلمه الله من علمه الكثير، فكان الصلاح فى الأرض، والتمكين للخير بالكفاح مع الشر..

وهكذا ومن خلال هذا العرض نستنتج أن هناك رسلا وأنبياء أرسلهم الله برسالاته، وذكر لنا منهم البعض، وأبهم عنا البعض الآخر، وفى ذلك بيان ما بعده بيان.

لقد شاهدنا موكب الرسل، أو أمة الرسل، وتتابعهم وتعدد رسالاتهم من لدن نوح - عليه السلام - وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة، ذات المدلول الواحد، والاتجاه الواحد، وقد قيلت بشتى اللغات التى أرسل بها الرسل إلى أقوامهم. فإذا الكلمة التى قالها نوح - عليه السلام - هى ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فتجيب البشرية جوابا واحدا تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٤]

تلك كانت نماذج من الرسل، ونماذج من الابتلاءات، ونماذج من رحمة الله: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٢]

إن هذه أمتكم أمة الأنبياء ، أمة واحدة، تدين بعقيدة واحدة، وتنهج نهجا واحدا، هو الاتجاه إلى الله دون سواه، أمة واحدة فى الأرض، ورب واحد فى السماء، لا إله غيره، ولا معبود إلا إياه.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٥١- ٥٢]

أرأيت إلى الذين كلهم الله- لقد اصطفاهم وفضلهم واختارهم لهذا الشرف العظيم، وإنه بحق لمنزلة عالية لمن نالوا هذا الوسام الإلهى فى الدنيا، فإذا كان هذا التكريم فى الدينا، فما منزلة الذين يكلمهم الله فى الآخرة- يوم لا ظل إلا ظله – وما حال المطرودين من حب الله، الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمنا قليلا، أولئك لا يكلمهم الله، وهم صنف مبعد من رحمة الله. عقدوا صفقة خاسرة، دفعوا فيها الهدى وقبضوا الضلالة، وتركوا المغفرة واختاروا العذاب، وجزاء ما كتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة، ويدعهم فى مهانة وازدراء- فلا

يكلمهم ولا يزكيهم، لأنهم كتموا الحق الذى يعلمونه، واشتروا به ثمنا قليلا. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة:١٧٤- ١٧٦]

وهذا ينطبق على أهل كل ملة، الذين يخفون الحق ويعلنون الباطل فجزاؤهم إعراض الله عنهم يوم القيامة، وهو جزاء مكافئ لجرمهم، جريمة كتمان الكتاب الذى أنزله الله ليعلن للناس شريعة الله ومنهاجه، فمن كتمه فقد عطله عن العمل.

سياق آخر يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة آل عمران : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾[آل عمران:٧٧]

إن الله يحب الذين يوفون بعهده ويكرمهم، ويخاصم الذين يشترون بعهد الله وبإيمانه ثمنا قليلا- من عرض هذه الحياة الدنيا- (متاع قليل) فلا نصيب لهم فى الآخرة، ولا رعاية لهم عند الله ولا قبول، ولا زكاة لهم ولا طهارة، وإنما هو العذاب الأليم، وهذا العذاب الأليم يكمن فى

عدم كلام الله لهم، فلا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يطهرهم، وفى هذا الإهمال عذاب شديد.

وإذا نظرنا إلى أسلوب المواجهة فى القرآن الكريم، ونحن أمام مشهد نهاية المشركين يوم القيامة، الذين كذبوا أو ما طلوا وكان سبيلهم العناد والمكابرة.. هذ المشهد يبدأ بالاحتضار فى الدنيا- وهم كانوا فى غفلة عن يومهم هذا- وينتهى هنالك بعد النفخة فى الصور : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩]

إنه مشهد الاحتضار، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة. ولكن كلا.. إنها كلمة هو قائلها. وبعد أن ينفخ فى الصور، ويشهد المشركون لفح النار للوجوه، ويكون هذا الحوار: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٥]

ويؤذن لهم فى الكلام. والرد على هذا السؤال، ويخيل إليهم أنه مسموح لهم بالرجاء: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٦- ١٠٧]

عرفوا الآن أنه ربهم، وأنهم ضلوا عن طريق الهداية، وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة، وكأنهم تجاوزوا الحد فى الإجابة عن السؤال.

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٨]

إنكم تستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم، ولتعلموا أن الحياة فى الدنيا قصيرة، وأن المتاع فيها زائل، وقد بعتم بها حياة الخلود..

الابتلاءات:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤]

يقول للنبى – صلى الله عيه وسلم – اذكر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهن وفاء وقضاء، عندئذ استحق إبراهيم تلك البشرى – كلام الله له – ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ إماما يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعا، وتكون له فيهم قيادة.

عندئذ تدرك إبراهيم فطرة البشر: الرغبة فى الامتداد عن طريق الأحفاد، ذلك الشعور الفطرى العميق، الذى أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضى فى طريقها المرسوم.. فيطلب إبراهيم من ربه أن يجعل لذريته هذا الشرف الذى بشره به فواصل كلامه مع الله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ وجاءه الرد من ربه الذى ابتلاه واصطفاه، يقرر إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل، وبالإصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب. فالقربى ليست وشيجة لحم ودم، إنما هى وشيجة دين وعقيدة، ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هى إلا دعوى الجاهلية: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغى.. والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معانى الإمامة، إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة.. وكل معنى من معانى الإمامة والقيادة. فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة فى أية صورة من

صورها. ومن ظلم – أى لون من الظلم- فقد جرد نفسه من حق الإمامة، وأسقط حقه فيها، بكل معنى من معانيها.

ومرة أخرى يعود إبراهيم بالدعاء، ومناجاة ربه ليؤكد صفة الأمن لبيت الله، وأن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦]

إنه إبراهيم الذى وفى، الأواه الحليم القانت المستقيم، يتأدب بالأدب الذى علمه ربه، فيراعيه فى طلبه ودعائه.. وعندئذ يجيئه رد ربه: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

لقد اصطفى الله إبراهيم فى الدنيا، وهو فى الآخرة لمن الصالحين، فملته الإسلام الخالص الصريح، لا يرغب عنها إلا ظالم لنفسه، ولا ينصرف إلا سفيه

إبراهيم الذى اصطفاه ربه فى الدنيا إماما، وشهد له فى الآخرة بالصلاح.. اصطفاه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ﴾ فاستجاب فور تلقى الأمر، لم يرتب ولم ينحرف ولم يتلكأ ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾. تم هذا الحوار بين إبراهيم وربه، وأعلمه الله بما يريد بخفاء، وسمع إبراهيم أمر ربه، وانتهى الكلام ليبين ملة إبراهيم – عليه السلام – وأن الله اصطفى الدين.. (الإسلام). ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢]

أبو الأنبياء، أرادوا به كيدا فجعلهم الله الأخسرين، ونجاه من قومه، ووهب له إسحق ويعقوب نافلة. ويحكى القرآن الكريم عن إبراهيم فى سورة الصافات، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات:٨٣-٨٤]

ودعا قومه إلى عبادة الله، فكذبوه، ألقوه فى الجحيم، ولكن الله نجاه: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات:٩٨]

وتوجه إلى الله ودعاه﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات:١٠٠]

فاستجاب له الله: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات:١٠١]

ونجاه وابنه من الكرب العظيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات:١٠٩]

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات:١١٠-١١١]

إبراهيم صاحب القلب السليم، والعقيدة الصالحة، والضمير النقى. كان يدعو قومه إلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام. جاء ربه بقلب سليم يستنكر ما عليه قومه، إذ قال لأبيه وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات:٨٥-٨٧]

واتخذ منهم موقفا أدى إلى أنهم ألقوه فى الجحيم، ونجاه الله من كيدهم أجمعين، وهاجر إلى ربه، واتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة، والخلف الصالح.

واستجاب الله دعاء عبده الصالح: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات:١٠٠-١٠١]هو إسماعيل.

ويتعرض إبراهيم وابنه لمحنة كبرى يذكرها القرآن : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٣]

وكان الابتلاء، وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما، فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٧]

إن إبراهيم من المحسنين، وإنه من عباد الله المؤمنين. نفس الصفات التي وصف بها نوحا عليه السلام. وأكمل فقال: سلام على إبراهيم كما هو سلام على نوح: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات:١١١]

ولم يقف الحق تبارك وتعالى عند هذه النعم بل بشره بإسحق: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات:١١٣]

ومن ذريتهما موسى وهارون اللذين مَنّ الله عليهما، ونجاهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرهم فكانوا هم الغالبين: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ

وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ [الصافات:١٢١].

وأيضا – سلام على موسى وهارون– هو نفس السلام على نوح وعلى إبراهيم– سلام تحية – بل أيضا هما من المحسنين، وهما من عباد الله المؤمنين، هى نفس الميزات التى ميز بها الله نوحا وإبراهيم – عليهما السلام.

والابتلاء بالضراء فى قصة أيوب – عليه السلام– ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٤]

أيوب عليه السلام – ينادى ربه– يدعوه، يكلمه، يشكو إليه ضره، ويرجو أن يكشف عنه هذا الضر، وعلى الفور يستجيب الله له فيكشف ما به من ضر.. دعاء من أيوب لا يزيد على وصف حاله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ – والله يعلم بما أصابه– ووصف ربه بصفته : ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ إنه نموذج للعبد الصابر، لا يضيق صبره، ولا يضيق صدره بالبلاء، كانت النهاية للبلاء استجابة الله..

هذان نموذجان للصبر فى السراء والضراء. والقرآن الكريم يشير كذلك إلى الصبر فى قصص الرسل الذين أرسلهم، صبروا على المعاناة والشقاء، فأدخلهم الله فى رحمته. ومن هؤلاء إسماعيل وإدريس، وذى

الكفل: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء:٨٦]

فإسماعيل: صبر على ابتلاء ربه بالذبح، فاستسلم لله. وإدريس فزمانه مجهول، وكذلك مكانه. كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر.

وأما ذو الكفل: فهو كذلك مجهول، لا نملك تحديد زمانه ولا مكانه. وكان صالحا، وقد تكفل بقيام الليل، وصوم النهار. لا يغضب فى القضاء، فوفى بما تكفل به، وصبر على الطاعة، وهو لون من ألوان الصبر- الذى أشرنا إليه – وسمى بهذا الاسم لذاك..

ويحكى القرآن الكريم قصة ذى النون – يونس عليه السلام- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧–٨٨]

وذو النون- صاحب الحوت – الذى التقمة ثم نبذه، ونادى ربه فى الظلمات – ظلمة جوف الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧]

فاستجاب الله دعاءه، ونجاه من الغم الذى هو فيه، ولفظه الحوت على الساحل.

إن تكاليف الرسالة تحتاج إلى صبر، لم يقدر عليه يونس، فضاق صدرا بالقوم، وألقى عبء الدعوة، وذهب مغاضبا، ضيق الصدر، حرج النفس، فوقع فى الضيق. ولولا أن تاب إلى ربه، واعترف بأنه كان لابد أن يصبر، لما فرج الله عنه هذا الضيق، ولكنها طلاقة القدرة حفظته ونجته من الغم الذى قدره يعانيه.. وصاحب الدعوة لابد أن يصبر على التكذيب بها، ولابد أن يتحمل تكاليفها، ويصبر على الإيذاء من أجلها..

وتأتى إشارة القرآن إلى زكريا ويحيى – عليهما السلام – واستجابة الله لزكريا عندما دعاه..

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠]

وأيضا زكريا يدعو ربه، وينادى ربه أن يهبه ذرية صالحة، وتأتى الاستجابة سريعة أيضا ومباشرة : ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء:٩٠]

الكل ينادون الله، والكل يتلقون استجابة الله لهم، والاستجابة فورية ومباشرة، لماذا؟ لأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات، فسارع الله فى استجابة الدعاء ، وكانوا يدعون الله رغبا ورهبا.. رغبة فى الرضوان، ورهبة للغضب، فقلوبهم وثيقة الصلة، دائمة التطلع، وكانوا لله خاشعين، لا متكبرين، ولا متجبرين..

إن الله سبحانه وتعالى يذكر لمحمد - صلى الله عليه وسلم - الابتلاءات التى ابتلى بها سابقوه من الأنبياء والرسل والصالحين، حتى يصبر على أذى الكافرين..

تلك سنة الله فى الدعوات، لابد من الشدائد ولابد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد، ولا بقية من طاقة، ثم يجئ النصر بعد اليأس من عند الله، فينجو الذين يستحقون الحياة من الهلاك الذى يأخذ المكذبين..

إن زكريا - عليه السلام - قد ابتلى بعدم الذرية حتى بلغ من العمر مبلغا كبيرا، ثم بعد أن رزقه الله سبحانه الذرية ابتلى بقتل ابنه الوحيد يحيى فى حياته، ثم مات زكريا مقتولا دون ذنب ارتكبه..

إن هذا الاستعراض لابتلاءات السابقين لم يشهدها رسولنا الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - وها هو القرآن يعرضها ليصبر على ما يلقاه من عنت ونصب فى سبيل نشر الدعوة..

وداود وسليمان:

وقد عرف داود – عليه السلام – بمزاميره، وهى تسابيح لله كان يرتلها بصوته الجميل، فتتجاوب أصداؤها حوله، وترجع معه الجبال والطير.

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩]

أما سليمان فهو أعظم ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٨١-٨٢]

تسخير الريح لسليمان تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها – وهى فى الغالب الشام – وهى تسخر بأمر الله إلى الأرض المباركة فى دورة تستغرق شهرا طردا وعسكا – طلاقة قدرة–

وكذلك تسخير الجن لسليمان – عليه السلام – فالجن : كل ما خفى – وهم خلق لا نراه– والله قاهر فوق عباده، يسخرهم حين يشاء كيف يشاء.

ولقد ابتلى الله داود وسليمان – عليهما السلام– بالسراء، وفتنتهما فى هذه

النعمة، فتن داود فى القضاء، وفتن سليمان بالخيل الصافنات..

وصبر داود، وصبر سليمان للابتلاء بالنعمة- بعد الاستغفار- من الفتنة، واجتازا الامتحان فى النهاية، فكانا شاكرين لنعمة الله..

وللصبر أجر كبير: الصبر على الطاعة، والصبر على الشهوة، والصبر على العطاء والسلب، والصبر على الأذى والابتلاء، والصبر على الدعاء.. فمن يصبر كان جزاؤه عظيما، فداود وسليمان صبرا للابتلاء بالنعمة (السراء)..

ونجد فى كتاب الله سبقا علميا فى الإشارة إلى أن نبى الله سليمان، وأباه النبى داود – عليهما السلام – كانا قد علما منطق الطير، وذلك لأن معرفة الإنسان بلغة الطيور هو كشف علمى مستحدث فى مجال " علم سلوك الحيوان" لم يكن يعلم به أحد من أصحاب العلوم المكتسبة قبل مطلع القرن الميلادى العشرين، وإشارة القرآن الكريم من قبل ألف وربعمائة سنة إلى أن للطيور لغة يعتبر وجها من أوجه الإعجاز العلمى فى كتاب الله.

ونرى كلا من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة يذكر نبى الله سليمان، كما يذكر أباه بما يليق بمقام النبوة والرسالة الذى كرم الله تعالى كلا منهما، فقد جاء ذكر نبى الله سليمان- عليه السلام – فى سبعة عشر موضعا من كتاب الله، يشرح كل منها موقفا من المواقف المهمة فى سيرة هذا النبى الكريم.

فكل من داود وسليمان من أنبياء الله، وأنهما من نسل إبراهيم الذى هو من نسل نوح – عليهما السلام –

ليس الابتلاء مذموما فى ذاته، ولكن فى نهايته، وكذلك الفتنة.

ها هم الرسل الذين اختارهم الله، يحملون رسالته إلى أقوامهم، ويجدون البلاء والعنت فى سبيل نشر دعوة الله، ولكنهم يصبرون على الأذى، ويتوجهون إلى خالقهم يدعونه، والله يتقبل منهم. فهو الذى أحبهم، وهو الذى اختارهم، فاختار لهم هذا العمل.. وإذا أحب الله عبدا استعمله..

وفى الشدة والمعركة يكون الله مع المخلصين الصابرين المجاهدين، يشد أزرهم، ويمدهم بعون منه، ويرسل لهم مددًا من الملائكة، يؤازرونهم ولا يرد لهم دعاء يتوجهون به إلى الحق تبارك وتعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩]

نادوا ربهم فاستجاب لهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال:١٢]

أولئك الذين يذكرون الله آناء الليل وأطراف النهار، قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض، يدعون ربهم فى هذه

الآيات: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٩١-١٩٤]

يا رب قنا عذاب النار. يا رب اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا. يارب توفنا مع الأبرار. يا رب تقبل عملنا ويسره لنا حتى نلقاك عليه، والله لا يرد دعاءهم، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران:١٩٥]

لا يضيع عملكم ، ولا يضيع لدى من عمل صالحا، وهذا وعد الله، والله لا يخلف الميعاد ..

الاستجابة الإلهية:

إن الله يستجيب للذين يؤمنون بالله، الذين لا يكذبون ولا يكتمون الحق وما أمر به الله، والذين ينشرون العدل ويقيمونه، والذين لا يظلمون، ولا يقتلون ولا يسرقون ولا يزنون، والذين يمنعون الشر أن يقع ويدعون إلى الخير والبر، والذين يكونون فى عون العبد، والذين يصلون أرحامهم ولا يقطعونها، والذين يحسنون إلى آبائهم وأمهاتهم، والذين لا يعصون الله ما أمرهم فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يسيئون إلى بعضهم البعض ولا يتناحرون، ولا يؤذون جيرانهم، ولا يغشون ولا يحسدون ولا يبغضون، والذين يتمنون لغيرهم ما يتمنونه لأنفسهم، والذين يحبون أن يجعل الله المال فى أيديهم وأن ينزعه من قلوبهم، فلا يكنزون الذهب والفضة، بل ينفقونها فى سبيل الله، وأن يخرجوا زكاتهم، ويكفلوا اليتامى ولا ينهروا السائلين، ولا يكتموا الشهادة، ومن اتبع سبيل الله فى كل ما أمر، وابتعد عن كل ما حرم، وتمسك بكتاب الله وسنة رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – فهو من الناجين، وهو من المقبولين الذين كان طعامهم من حلال، ورزقهم من السماء لا يسألون إلا الله، ولا يستعينون إلا بالله، فهو الملاذ لكل من أراد خيرا..

وهكذا يستجيب الله لمن يستجيب له ولرسوله، ففى ذلك حياة لكل من يطع هذا النداء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

﴿يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال:٢٤]

فإن لم يستجب الذين يعلمون : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٥٠]، ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام:٣٦]، ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى:٢٦]

يزيد الله الذين يستجيبون من فضله، وفضل الله عميم، ولا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عمران:١٩٥]

الذين يقيمون الصلاة ويأمرون بالعدل، ويصبرون على ما يصيبهم:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى:٣٨]، ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران:١٧٢]

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد:١٨]

ثم يستجيب الله لهم، ولا يظلم ربك أحدا، فباب الله مفتوح لكل من كان له قلب يستجيب لكل أواه منيب، بل ينادى هل من مسيء فأغفر له هل من مخطيء فأعفو عنه؟ هل من محتاج فأعطيه؟ هل من سائل فلا أرده؟ بل طلب من محمد- صلى الله عليه وسلم- أن يبشر الناس برحمة الله، وبقربه منهم، وبأنه لا يرد أحدا قصد بابه، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦]

ويقول أيضا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر:٦٠]

ويقول : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل:٦٢]

المهم أن نتوجه إلى الله بالدعاء فى كل وقت عن يقين وإخلاص، ندعوه آناء الليل وأطراف النهار، ندعوه مخلصين له الدين، وتذكره قياما وقعودا وعلى جنوبنا، ونتفكر فى خلق السماوات والأرض، ومن ثم ندعو بما نشاء ونحن موقنون بالإجابة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ

لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩٤]

اقتران بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته، وهما أمران يدركهما أولوا الألباب فى لحظة الاستقبال والاستجابة والاتصال. وهى لحظة تمثل صفاء القلب، وشفافية الروح، وتفتح الإدراك، واستعداده للتلقى. كما تمثل الاستجابة والتأثر والانطباع..

فهى قلوب مفتوحة، ما إن تتلقى حتى تستجيب، وحتى تستيقظ فيها الحساسية فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها، فتتجه إلى ربها تطلب مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، والوفاة مع الأبرار..

والدعاء فى مجموعه يمثل الاستجابة الصادقة العميقة: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران:١٩٥] هذه الاستجابة الإلهية لأولى الألباب هؤلاء الذين تفكروا وتدبروا واستجابت فطرتهم لإيحاء الحق المستكن فيه، فاتجهوا إلى ربهم بذلك الدعاء الخاشع، ومن ثم تلقوا الاستجابة من ربهم الكريم الرحيم، على دعائهم المخلص الودود..

هذا هو الطريق إلى الله ليكون الدعاء مقبولا، وهذه هى طبيعة هذا المنهج.. اتجاه إلى الله بقلب سليم، ودعاء خاشع واجف طويل عميق، واستجابة لهذا الدعاء مهما كانت صعوبته، فقد عرض القرآن الكريم لصور من السابقين الذين توجهوا إلى الله بالدعاء، وسألوه، ثم تلقوا الاستجابة من

ربهم، فماذا كانت الاستجابة؟ ويبين القرآن بعض المشاهد حول هذه الاستجابة فيقول: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات:٧٥]

ومن قبل فى سورة آل عمران استجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض. وتأتى صورة الداعين فى سورة الأنبياء لتؤكد على استجابة الله لنوح الذى نادى ربه فى قوله تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٧]، ثم تأتى صورة أيوب : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٤]- أما ذو النون فيصور القرآن دعاءه فيقول: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].. وأما زكريا فقد جاء قول الله تعالى فيه : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠]

نوح وأيوب وذو النون وزكريا ينادون ربهم ويدعون رغبا ورهبا، وهم له خاشعون، فتأتى الاستجابة فورية، ويكون لهم ما أرادوا وما طلبوا، ومعهم أيضا من مثلهم إسماعيل وإدريس وذو الكفل، فقد كانوا من الصابرين فأدخلهم ربهم فى رحمته إنهم من الصالحين. ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص:١٧]

ولما ابتلى داود، وظن أنه فتن استغفر ربه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص:٢٥] فاستجاب له ربه ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ﴾

ويأتى النداء العلوى: "يا داود" بهذا الاسم ليدل على التكريم والاصطفاء: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦]

إنه ينبهه إلى دور الخلفة فى الأرض، وإلى طبيعة الحكم بين الناس، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾

هكذا تلقى داود من ربه هذه الكلمات..

وقد أنعم الله على داود فوهب له سليمان، نعم العبد إنه أواب: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص:٣٠]

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ:١٠]

سليمان: ينتهى نسبه إلى أبى الأنبياء إبراهيم، ميزه الله بالنبوة والحكم والفهم والنظر الثاقب ولقد أنعم الله على سليمان بنعم كثيرة، وعلمه منطق الطير. وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم -- هى لغاتها ومنطقها - فيما بينها ، والله سبحانه خالق هذه العوالم، ويعرف بأى لغة هى تتفاهم، وإنه لأيسر شيء وأهون شيء على الله أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات. هبة لدنية منه بلا محاولة ولا اجتهاد، وإن هى إلا إزاحة لحواجز النوع التى أقامها الله بين الأنواع، وهو خالق هذه الأنواع. من أجل ذلك أذاع سليمان - عليه السلام - فى الناس تحدثا بنعمة الله، وإظهار ا لفضله بأنه تعلم منطق الطير، وما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله، وكذلك لا يؤتى أحدا من كل شيء- بهذا التعميم- إلا الله. وأيضا كان لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون. وقد فتح الله بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه، من أجل ذلك اتجه إلى ربه:

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ [النمل:١٩]

بهذا النداء القريب المباشر الذى يشى بنعمة الله التى مست قلب سليمان - عليه السلام - وهو يستشعر فضل الله الجزيل..

وهكذا فهذه الجماعات أمم مثلنا، لها لغتها التى يتعاملون بها، ولله القدرة لمن يفهمها، ولكننا لا ننكر أن لها تفاهمًا وتعاملا بهذه اللغات، والدواب تتكلم، ولكن الناس عنها لا يفهمون، أو لا يفهم عنها الناس:

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل:٨٢]

وقد سخر الله لسليمان الريح غدوها إلى انتصاف النهار مسيرة شهر، ورواحها شهر من انتصاف النهار إلى الليل، فكان يسير في كل يوم مسيرة شهرين: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [سبأ:١٢]

وكانت الشياطين تخبر أولياءها من الإنس أن سليمان – عليه السلام – كان ساحرا (قالوا ذلك بعد وفاته) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام:١١٢] الشيطان ملعون ومطرود ومبعد ومرجوم من الله..

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ [البقرة:١٠٢]

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى

ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص:٤٠]

ملك ذو خصوصية تميزه من كل ملك آخر يأتى بعده، ملك خاص لا يتكرر، أعطاه الله ملكا ولا يُسْلَبُه ، وابتلاه بالشيطان على كرسيه، ثم أناب سليمان فرجع إلى ملكه بعدما زال عنه، وذهب فهو يريد ملكا لا يسلبه كما سلبه من قبل فأعطاه الله الريح رخوة لينة حيث أراد، وسخر له الشياطين وآخرين مقرنين فى الأصفاء..

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل:١٧] ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [سبأ:١٢]

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ:١٢]

كذلك سخر له الشياطين لتبنى له ما يشاء، وتغوص له فى البحر والأرض فى طلب ما يشاء: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص:٣٩]

وكان قبل داود وسليمان، إبراهيم وإسحق ويعقوب. وكذلك إسماعيل، ولكن لا نعرف أين هم من زمان أيوب، وكذلك اليسع وذو الكفل.

أيوب: كان عبدا صالحا أوابا، صبر على الابتلاء: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [ص:٤١]

فاستجاب له ربه ونجاه، وأحيا له أبناءه، ووهب له مثلهم: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤٤]

نوح:

نادى ربه وكلمه، واستجاب له ربه فنجاه وأهله كذلك إلا امرأته، وأهلك قومه بالطوفان، وقد مر بنا ما كان بين نوح وربه من كلام فى الدعوة، وسط الكرب العظيم من أول صنع السفينة، وهو ومن آمن معه وسط الأمواج، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

وما أردت أن أشير إليه هو هذه المناجاة الإلهية التى اختص بها عبدا من عباده المختارين، ثم بيان هؤلاء العباد الذين دعوا الله فاستجيب لدعائهم، وكانت الجائزة الفورية رحمة الله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧]

استجاب الله لنداء عبده الصالح فنجاه ونصره، وأغرق أعداءه.

ويؤكد الله على استجابته لعبده الصالح فى موضع آخر فى سورة الصافات إذ يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات:٧٥-٨٢]

لوط: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الصافات:١٣٣]

أخذ يرشد قومه إلى الصواب، وإلى الفطرة السليمة، والبعد عن الخطيئة المنكرة التى عُرف بها قوم لوط، وقد دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ، ولكنهم لم يستجيبوا له، وإذا به يتوجه إلى الله بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٩]

واستجاب الله دعوة نبيه: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٩-١٧١]

نجاهم الله إلا امرأة لوط كانت تقر القوم على فعلتهم المنكرة وتعينهم عليها..

لقد كان الله رحيما بلوط وأهله- إلا امرأته وقومه – نجاه الله وأهله أجمعين، وجعلهم أئمة يهدون بأمره، وأوحى إليهم فعل الخيرات، وآتاه الله حكما وعلما، ونجاه من القرية التى كانت تعمل الخبائث، وأدخله فى رحمته.. يقول تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥]

يونس: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الصافات:١٣٩]

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن

لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧]

هذا دعاء يونس – عليه السلام – وهو فى بطن الحوت، وقد ثاب إلى ربه يرجو رحمته، فنجاه الله من الغم: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]

أيوب :

ينادى أيوب ربه ويشكو إليه ما أصابه: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣]

ولم يرده الله، فاستجاب له : ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٤]

إسماعيل وإدريس وذو الكفل:

كانوا من الصابرين فأدخلهم الله فى رحمته إنهم من الصالحين: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء:٨٦]

إلياس: دعا قومه فكذبوه، فنجاه الله منهم : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات:١٣٢]

لقد جاء فى كل من مَنّ الله عليهم بالاستجابة قوله سبحانه : ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (سلام عليه....) سلام تحية...

وفى الاستجابة للدعاء ما يسمعه الله أيضا، فما يسمعه يعنى أجابه، من

مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة:١]

وقد سمع بمعنى علم، والسمع يحتاج لأذن، ولكن الله ليس كمثله شيء، وهو يجيب المضطر إذا دعاه.. ويكشف السوء.

ولا تقف الاستجابة عند هذا الحد، فهى لكل ذى لب، وهى مفتوحة لكل من يعرف طريقه إلى الله، فهذا موسى- كليم الله- يدعو ربه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٩]

دعاء واستجابه فورية، وحوار بين موسى وربه يكشف عن حب ونصرة لمن يحب.. وتطمين لقلوب المقربين المؤمنين حقا الذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، فهؤلاء لهم درجات عند ربهم ولا يضيعهم، ويستجيب لهم كما نرى فى مثل قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩] لابد من الاستجابة ليحق الحق ويبطل الباطل..

وهذا يوسف يقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا

تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٤]

ولنعد لسيدنا موسى- عليه السلام – لنراه يدعو ربه أن يغفر له بعد أن وكز الذى من عدوه على الذى من شيعته فقضى عليه، وقال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، ثم دعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦]

وهذا داود ظن إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾﴾ [ص:٢٥]

وتأتى الاستجابة بنصيحة لداود بأن يحكم بين الناس بالحق بعدما بغى خصمان بعضهما على بعض، وطلبوا الهداية إلى سواء الصراط، وقد سمع داود قول الذى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص:٢٤]

ويخاطب الله داود فيقول: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:٢٦]

هذا داود:

بنى من ذرية نوح – آتاه الله تعالى كتابا اسمه (الزبور)، وكان يقرؤه بسبعين صوتا، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه، ويبكى ببكائه كل شيء، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، جاء ذكره – عليه السلام – فى القرآن ست عشرة مرة، وكانت الجبال والطير تسبح معه، وأن الله تعالى قد ألان له الحديد، وعلمه كما علم ابنه سليمان منطق الطير، وآتاهما من لدنه علما..

ولقد أثبت العلم التجريبى أخيرا أن كل شيء فى الوجود (من الخلق غير المكلف مثل الجمادات، والنباتات والحيوانات) له قدر من الذاكرة، والوعى والإدراك، والشعور والانفعال والتعبير..

وآتى سبحانه وتعالى داود وسليمان حكما وعلما. واستجاب لسليمان وأعطاه ملكا لا ينبغى لأحد من قبله ومن بعده.

والابتلاء ألوان:

ابتلاء للصبر، وابتلاء للشكر، وابتلاء للأجر، وابتلاء للتوجيه، وابتلاء للتأديب، وابتلاء للتمحيص، وابتلاء للتقويم.

وفى قصة نوح ألوان من الابتلاء له، ولقومه ولأبنائه القادمين.

ولأننا مازلنا فى معية الذين اختارهم الله ودعوه فاستجاب لهم، وكان معهم. ناجوه وناجاهم. فهذا هود – عليه السلام – يدعو قومه إلى ما دعا به نوح قومه، فقوبل بالجهالة والغفلة، فلم يجد الرسول إلا أن يستنصر

ربه كما استنصره من قبله نوح، وبنفس العبارة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون:٣٩] ووقعت الاستجابة : ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون:٤٠]فأخذتهم الصيحة.

إن الدعاء هو العبادة، وهو مقام العبودية الحقة لله تعالى، وذلك لأن العبد كلما مرت به ضائقة ولجأ إلى ربه فى ضراعة وخشوع جسد حقيقة العبودية لله. ومن هنا كان أهلا لاستجابة الله سبحانه وتعالى لدعائه كما حدث فى استجابة الله جلت قدرته لكل من دعاه من أحبائه ومصطفيه.

إن الدنيا دار ابتلاء واختبار، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل؛ كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

هؤلاء الذين دعوا الله فاستجاب لهم لأنهم كانوا من عباد الله المؤمنين، الصالحين المحسنين، الصادقين، المخلصين. من أجل ذلك استجاب لهم، ومن ثم ترك الباب مفتوحا لعباده ممن هم أهل للاستجابة أن يدعوه، وأن تكون الاستجابة هى الجزاء الأوفى لهم، وصدق الحق تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠] وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦]

هذا وعد الله، وهذا ما وعد به عباده الصالحين..

هبة الحياة:

ومحمد – صلى الله عليه وسلم – هو الرسول الذى أرسل إلى البشر كافة، من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. ومن ثم كان هو خاتم الرسل، وكانت رسالته خاتمة الرسالات، ومن ثم انقطع الوحى بعده..

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٤]

لقد ذكر القرآن لنا رسلا حملوا الرسالات إلى البشرية وإلى الوجود– رسالات التوحيد – وأطلعنا على أسمائهم، ولم يذكر رسلا أخرى جاءت برسالات إلينا، وجعلنا نؤمن بواقع ما جاؤا به، من مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩]

من هو: (الذى مر على قرية)؟ ما هذه القرية التى مر عليها وهى خاوية على عروشها؟ إن القرآن لم يفصح عنها شيئا، ولو شاء الله لأفصح–

وحكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الإبهام، فمن هذا الإبهام يكون المبيان، فأبهم الذى مر، وأبهم كذلك ما مر عليه، وجعلها غير معرفة (قرية)، والإبهام أشد أنواع البيان. ربما يكون هذا الذى مر على قرية "رسولا" جاء ليعرض علينا قضية الموت والحياة، والفناء والبعث، كيف تدب الحياة فى هذا الموات، فيريه الله فى عالم الواقع كيف: أطلعنا على آثار محسوسة: الطعام والشراب لم يتسنه، والرجل قدمات مائة عام.. والحمار الذى تعرت عظامه وتفسخت، ثم كانت الآية هى ضم هذه العظام بعضها إلى بعض وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة، على مرأى من صاحبه الذى لم يمسه البلى، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن، وليدرك الرجل، وندرك نحن كيف يحيى هذه الله بعد موتها..

وصدق القرآن الكريم حيث جاء السياق فى قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهو الذى أماته الله "مائة عام"، وهذا ما يفسر صدق الرجل فى قوله: يوما أو بعض يوم، الطعام والشراب الذى وجده على ما كان عليه. وصدق الله فى قوله مائة عام، الحمار الذى تناثرت عظامه فضمها الله بعضها إلى بعض وأعاد لها الحياة بعد أن كساها لحما.

ما الذى يفسر لنا أن ينال البلى شيئا ويترك شيئا فى مكان واحد وفى ظروف واحدة؟ إن خلق الحياة أول مرة، ورجعها كذلك. لا تفسر هذا الاختلاف فى مصائر أشياء ذات ظروف واحدة.

إن الذى يفسر ذلك هو طلاقة القدرة، وهى ليست مقيدة، إنما هو الاختيار فى كل حال.

وكذلك تمضى هذه التجربة فتضاف إلى رصيد أصحاب الدعوة الجدد، وإلى رصيد التصور الإيمانى الصحيح - وتقرر إلى جانب حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله - حقيقة أخرى هى حقيقة طلاقة القدرة، التى يعنى القرآن عناية فائقة بتقريرها فى ضمائر المؤمنين به، لتتعلق بالله مباشرة، من وراء الأسباب الظاهرة، فالله تعالى لما يريد، وهكذا قال الذى مرت به التجربة: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

الرجل يؤمن بالله سلفا، ويعلم أن القرية التى مر بها وهى خاوية يستطيع الله إحياءها وبث الحياة فيها، ويعلم طلاقة قدرة الله، ولكن الله أراد أن يقدم لنا خارقة عن طريق هذا الرجل (الذى هو رسول لم يذكره لنا) ليثبت لنا قضية الحياة والموت، وأن الله قادر على أن يميت، وقادر على أن يحيى الموتى- وكل شيء عنده بكن فيكون- من أجل ذلك كان هذا الحوار بين الله وبين هذا الذى جعله يمر على قرية، وهى خاوية فيسأل أنى يحيى هذه الله بعد موتها، يسأل ربه وربما يسأل نفسه، ويكون الرد من الله فيميته، ثم يحييه، ويدور بينهما الكلام. كم لبثت؟ - يوما أو بعض يوم؟ هكذا يجيب الرجل من توه، وتخلص إرادة الله من هذه التجربة ومن هذا الحوار بأن الله بيده مقاليد الأمور يصرفها كيف يشاء، وهذا ما يقرره الرجل فى النهاية : "قال أعلم أن الله على كل شيء قدير" ومن قبل كان يدرك هذه القدرة..

ومثل هذا الرجل الذى جعل الله هذه الخارقة على يديه، كتجربة إبراهيم- أقرب الأنبياء إلى أصحاب هذا القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠]

وحين يجئ هذا التساؤل من إبراهيم الأواه الحليم، المؤمن الراضى الخاشع العابد القريب الخليل، فإنه يكشف عن تطلع لرؤية أسرار الخلق، ورغبة فى الكلام مع الله، فتكون هذه التجربة ، التى يعرف نتائجها مسبقا، لكنه يطمع فى أن يكلمه الله، وأن يتكلم معه.. إنها رغبة لا تتعلق بوجود الإيمان وثباته وكما له واستقراره، وليس طلبا للبرهان أو تقوية للإيمان، إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر.. أن يقول إبراهيم لربه، ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان، ولابرهان للإيمان، ولكنه أراد أن يكون بينه وبين الله حوار، ليحصل على مذاق هذا الحوار، فيستروح به، ويتنفس فى جوه، ويعيش معه- وهو أمر آخر غير الإيمان الذى ليس بعده إيمان..

وقد كشف الحوار الذى دار بين إبراهيم وربه حول هذه التجربة، وبعد أن سأل إبراهيم عن كيفية إحياء الموتى، ويرد عليه الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠]

يكشف الحوار عن اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل، واطمئنان التذوق للسر المحجب وهو يتكشف، والتذوق بالحديث بينه وبين الله، والله يعلم إيمان عبده وخليله، ولكنه سؤال المحب للاستئناس والمؤانسة، والكشف والبيان والتعريف بهذا الحب من عبد أواه حليم منيب، لرب ودود رحيم.. لذلك استجاب الله لهذا الشوق والتطلع فى قلب إبراهيم، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة، وأمره أن يختار أربعة من الطير، فيقربهن منه ويذبحهن ويمزق أجسادهن، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة. ثم يدعوهن، فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات.. إنه سر هبة الحياة- الحياة التى جاءت أول مرة بعد أن لم تكن، والتى تنشأ مرات لا حصر لها فى كل حى جديد..

إنها تجربة كسابقتها التى مرت بنا مع الرجل الذى مر على قرية وهى خاوية، تكشف لنا عن طلاقة القدرة فى الموت والحياة، والفناء والبقاء، وأن الله خلق الموت والحياة، وهو بكل شيء عليم.

أمة واحدة:

إن اقتناع المسلمين جميعا بأنهم يكونون جماعة أو" أمة" قد وحد بينهم على الدوام فى الشعور بالتضامن والتكافل، ولكن العالم الإسلامى الرحب تعيش فيه شعوب وفئات اجتماعية مختلفة المشاعر والمصالح، وأغلب الظن أن هذه الشعوب والفئات المتعددة ليست على استعداد للتضحية بمصالحها الحيوية فى سبيل وحدة إسلامية أعظم، وليس هذا من قبيل المصادفة، لأن الدين الإسلامى يتيح للأفراد والجماعات مجالا واسعا وأفقا رحبا للتفسير. ولا توجد كذلك فى الإسلام سلطة عليا لتقرير ما هو التفسير الصحيح.

إن الحضارة والدين، وإن يكونا هما العاملين الوحيدين فى تكوين الهوية الجماعية للبشر، فلا شك فى أنهما يقومان بدور مهم فى تكوين هذه الهوية، ولو سلم الرأى العام فى الغرب بأن الإسلام هو عدوه الطبيعى، لما استنتج المسلمون من ذلك سوى أن عليهم ألا يتوقعوا من الغرب غير العدوان عليهم. ذلك على التحديد هو الذى يمكن أن يدفع المسلمين كافة، بصرف النظر عن الاختلافات القائمة بينهم فى المشاعر والمصالح، إلى اتخاذ موقف عدائى موحد ضد الغرب..

إن من الواضح أن الأديان يختلف بعضها عن بعض من وجوه كثيرة اختلافات مهمة، ولكننا لو أمعنا النظر فيها عن قرب لتأكد لدينا كذلك أنها تتحد فى عدد من السمات المشتركة ذات الأهمية البالغة. وتصدق هذه

الملاحظة على مستوى البشرية بوجه عام، ولكنها تصدق بدرجة أكبر على الأديان الإبراهيمية الثلاثة، وهى اليهودية والمسيحية والإسلام.

إن الدين يستجيب لحاجة عميقة فى الإنسان، ويستطيع أن يمدنا بالمعنى الأخير للحياة.. بمصدر وجودنا وغايته.. وهو يستطيع أيضا أن يضمن لنا قيما عالية ومعايير غير مشروطة.. أى علة مسؤوليتنا والهدف منها. والأديان حريصة على سعادة الإنسان، وذلك بتقديم التوجه الدينى الأساسى- أى السند والعون، والأمل، ومنحنا الكرامة الإنسانية، والحرية الإنسانية، والحقوق الإنسانية أى الأساس الذى يرتكز عليه العمق النهائى.

إننا إذا نظرنا إلى الأديان الإبراهيمية الثلاثة لتأكدنا من وجود أرض مشتركة بينهم تقوم على العلاقة التاريخية التى تربط الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، وتدعمها حقيقة كونها ديانات تنتسب إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، كما تتفق جميعها على الإيمان بعقيدة التوحيد. إن المسيحية تعترف بالكتاب المقدس لليهودية، والإسلام يعترف بالكتب المقدسة لليهودية والمسيحية، وقد قامت على مر التاريخ علاقات وثيقة وعميقة بين المؤمنين بالأديان الثلاثة، أدت إلى مناقشات مستفيضة لأفكارهم وإلى تبادل الخبرات والتجارب بينهم. ولا يعنى هذا عدم وجود اختلافات أساسية كثيرة بين الديانات الإبراهيمية.

والواقع أن الاختلاف والتشابه كثيرا ما يكونان متداخلين، ومسألة العلاقة بين الإنسان والله هى أحد الأمثلة الواضحة على هذا التداخل.

إن أهم استعارة تشير إلى قرب الإنسان من الله تنطوى على فكرة أن الله قد جعل الإنسان خليفته على الأرض، وقد جاء فى آيات كثيرة أن الله قد جعل البشر خلفاء على الأرض.

إن الإسلام جاء بشريعة منزلة، وأعمال الإنسان هى أهم معيار يحتكم إليه فى تقرير حاله، غير أن الحال يختلف عن ذلك، حيث يضع المفكرون الذين يقيمون وزنا كبيرا للأعمال الإيمان فى منزلة أعلى منها.

إن الأمر يحتاج للبحث والدراسة، وليس على المستشرقين الغربيين وحدهم الإسهام فى حوار الأديان بدراستهم لأديان الشرق وحضاراته ولغاته، بل ينبغى على الباحثين الشرقيين أيضا بوصفهم مستغربين أو دارسين للغرب، أن يعكفوا على دراسة المسيحية والحضارة الغربية بحيث يمكنهم من الخارج، أن يتعرفوا على مشكلات الغرب ويشاركوا على هذا الأساس بدورهم فى الحوار، وإن كان هناك عدد غير قليل من الباحثين العرب قد دبجوا بحوثا قيمة وجديرة بكل التقدير عن التاريخ الأوربى والآداب الغربية..

إن الإسلام ديانة ذات شريعة ويقدم للإنسان التعاليم التى توجه حياته بأكملها- ونصوصه المقدسة- وهى القرآن الكريم والسنة المشرفة- قد احتاجت على الدوام إلى التفسير - ومن أجل ذلك طورت الشريعة الإسلامية عددا من القواعد التى تتسم بمرونة شديدة، وذلك مثل الضرورات تبيح المحظورات، والتعاليم الشرعية تتغير بتغير الزمن، مع

التأكيد المستمر بأن الشرع يجب أن يكون فى خدمة المصلحة العامة، إلى جانب صياغة مجموعة كبيرة من مقاصد الشرع: كحماية الحياة والعقل، والذرية، والملكية. وهكذا سمح الإسلام، فى كل العصور، بالتفكير فى مبادئه تفكيرا عقلانيا مع وضع الواقع دائما موضع الاعتبار.

إن الشريعة الإسلامية- شأنها شأن كل الشرائع السماوية- تهدف إلى الارتقاء بالإنسان وإلى عمارة الأرض، وإشاعة السلام والمحبة والتعاون، ونشر القيم العليا والفضائل، فالمقصد الأساسى هو الخير ومصلحة الجماعة والفرد فى ظل منظومة الفضائل والقيم السامية، وعلى المسلم التوجيه بفطرته السليمة لتحقيق هذا الهدف مستخدما عقله وقلبه.

إننا عندما نتحدث ونكتب عن موضوع الخطاب والفكر المعاصر، لابد من أن نؤكد على أن هناك شقا يتعامل مع الثوابت فى الإسلام، وهو ما يطلق عليه علوم العقيدة والتوحيد.. وهذا لا جدل فيه ولا يخضع للتحديث، فهو جوهر الإيمان، وأصلا ليس هناك ما يسمى تحديثا أو تجديدا فى الإسلام، إنما نتناول ما يجب أن يقال أو يكتب أو يسمع بما يساير الفكر المعاصر، والأحداث المتطورة التى تحتاج منا فعلا أن نتحدث ونكتب عما يجب أن يكون عليه الخطاب. أما الشق الآخر الذى يتعامل مع المتغيرات فهو ما يعرف بعلوم الفقه والشريعة.. وهذا مجال رحب للتحديث والتجديد بما يتلاءم مع الزمان والمكان، والإنسان وجنسه، بل حتى يتغير مع الإنسان تمشيا مع ظروفه الحياتية والصحية والبيئية والعقلية.

لقد كرم الله بنى آدم بعيدا عن جنسهم ودينهم، فالجميع لهم قداسة الوجود، وحرية الاعتقاد، فساعة الحساب آتية لا ريب فيها، لذا فإن الآخر ومعه المسلم على أرض واحدة، وفى وطن واحد، وأيضا المجتمعات الدولية المغايرة للمجتمع المسلم - الجميع لهم حق حرية الاعتقاد طبقا لما جاء به الإسلام: (لا إكراه فى الدين).. (لكم دينكم ولى دين)، وتقف حدود الحرية عند حدود حرية الطرف الآخر.. فلا عدوان إلا على من أخرجنا من ديارنا، أو حال بيننا وبين حرياتنا العقائدية.

لذا فإن دستور العلاقة مع الآخر لابد أن يركز على نقاط الائتلاف والبعد عن نقاط الاختلاف. كما أن مصالح الوطن تستوجب تكاتف عناصر الأمة باختلافها، وهذا يتفق مع صحيح الدين. فالأوجب التعايش مع الآخر، واحترام اختياره العقائدى، والتعاون معه للبناء والسلام ما لم يدخل فى دائرة العداء بالعدوان.

لقد اختلف أهل الإسلام مذهبيا منذ المراحل الأولى من التاريخ الإسلامى - فكانت الفتنة الكبرى التى خلفت انقسام الأمة بين شيعة وسنة، مع أن الجميع يؤمنون بالله وبرسوله، وينحصر الخلاف بين الطرفين فى آراء تاريخية لا تؤثر فى صلب العقيدة، وهذه نقطة يوظفها أعداء الإسلام لإشاعة الفرقة والفتنة بفرض إضعاف الجميع، والانقضاض على الإسلام والمسلمين.

إذن لابد أن نتجاوز عن مثل الخلافات المذهبية، وأن نبعد عما يثير

شبهة مغرضة فنحن مطالبون بحماية الإسلام، وبحماية أوطاننا ومقدساتها، ولن نكون إلا بالتآزر والتكاتف والتعاون المثمر..

إننا ونحن نتعرض فى خطابنا عن المرأة فلابد أن نوضح الحقائق ونبينها حتى لا تكون هناك آراء متضاربه وانقسام وفتن، فقد خلق الله الناس متساوين فى الحق الإنسانى، وفى الكرامة لا فرق بين ذكر وأنثى، ولا أبيض وأسود، ولكن بسبب التكوين البيولوجى والخلقى بين الرجل والمرأة، ترتب على ذلك اختلاف فى الواجبات المدنية وتوابعها، مع استمرار التساوى فى القمة، فشهد التاريخ الإنسانى كله (وليس الإسلامى فحسب) انتقاصا فى مشاركة المرأة فى الوصول لأعلى السلم الهرمى للمجتمع لأسباب تاريخية وبيولوجية وفسيولوجية. ذلك أن المجتمعات القديمة كانت تحتاج إلى القدرات العضلية - أكثر من العقلية - وتلك بالطبع تناسب طبيعة الرجل، وهذا أسهم وفرض أن يقود الرجل المسيرة البشرية وعملية إعمار الأرض مع وجود حالات استثنائية، وبذلك ظلت المجتمعات محرومة من نصف طاقتها، وهمشت دور المرأة فى العطاء. ولكن مع تطور الحياة العصرية أنزوت قيمة العضلات فى المجتمع، ورفعت قيمة العقل والإبداع، وهنا بدأت المرأة تسترد مكانتها الاجتماعية الطبيعية تدريجيا، وتقلدت كل المقاليد.

وبالنسبة للمرأة فى الإسلام، فإن لها كل الحقوق الإنسانية بالتساوى مع الرجل، فلم يحرمها شيئا مما أفاء به على الرجل، ولم يبخسها حقها، بل أشاد

بها وجعلها أساس كل تقدم ونهضة إذا أحسنت تربيتها وقامت بواجباتها خير قيام.

وها هى المرأة اليوم تعتلى كل المناصب، وتشغل كل الميادين، وقد أحرزت تقدما فى مسيرتها، وأصبحت النصف الآخر فعلا المكمل لبناء المجتمع، فتراها اليوم وزيرة وقاضية ومحامية ومدرسه وطبيبة ومهندسة، ورئيسة وزراء، وداعية إلى غير ذلك من مختلف الميادين بحيث أصبحت مشاركة فى كل عناصر الحياة ومقوماتها، والدعوة إلى الإصلاح فى جميع المجالات إلى جانب كونها أما ترعى أبناءها، وترسى دعائم البناء وترسخه من أجل الأجيال بالتنشئة الصالحة والرعاية الكافية، وصيانة بيتها وزوجها وما لها، وهى بحق جديرة بذلك.

إن السمو الأخلاقى المرتكز على مبادئ الحق والخير والعدل والحرية والمحبة والتسامح والتعاون والإيثار والشهامة والصدق والأمانة والقناعة والعمل وإتقانه، وتطبيق ذلك سلوكيا وقدوتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – كان وكأنه قرآن يمشى على الأرض. وهكذا الأخير فى مبدأ لا يسانده سلوك عملى.. فلا صلاة لمن لم يأمن جاره شره، ولا صلاة لمن اعتاد الكذب والغش والكراهية والاحتكار، وكذلك ما يقال عن الصلاة يقال عن المناسك والشعائر من صوم وحج.. فصدق المسلم فى عقيدته مرتبط بسلوكه، فالإسلام لا يعرف الانفصام، فازدواجية الشخصية عند المسلم بارتياده المساجد وأدائه الحج والعمرة وقيامه بالصوم مع عدم توافر ما

يقابله سلوكيا مرفوض، ومنهى عنه، فالإسلام عقيدة ومناسك وسلوك، منظومة شاملة كاملة لا يجوز تجزئتها.

يجب أن يعى كل مواطن أن ما لديه هو جزء من كل ، وأنه يحتاج للتفاعل مع بقية المواطنين ليكتمل الكل، ويتصل الأمر هنا بوجود قناعة مشتركة لدى جميع المواطنين بأن كل مواطن يستطيع أن يسهم من الموقع الخاص به فى تقدم ونهضة وطنه سواء عظم هذا الإسهام أو تواضع.

صحيح إن حضارة الأمم تقاس بمقدار ترسيخها لمفاهيم حقوق الإنسان والمواطنة والتسامح الثقافى، ولا تتحقق المواطنة إلا من خلال انصهار الكل فى واحد، حيث المساواة فى الحقوق والواجبات، والمشاركة السياسية، والوجود الفعال، والتأصيل الديمقراطى، وفى جميع مناشط الحياة، فالكل فى حق الحياة سواء..

إن جوهر التسامح يكمن فى حرية الفكر وحرية الاعتقاد، ومن أجل هذه الحرية الفكرية، وتلك الحرية العقائدية، اندلعت الحروب، وأريقت الدماء، وحوكم بعض المفكرين، وأعدم البعض منهم، فقد أعدم سقراط، وحوكم جاليليو، وأحرق برونو فوق كتبه، وأحرقت كتب ابن رشد، وغيرهم كثيرون، والتسامح الفكرى يعنى أن تعدد الآراء أمر مشروع، وأن التباين فى الفكر يضفى على الأفكار والأشياء معنى وثراء، وأن حق التباين جوهرى فى حياة الناس، ففى التباين إقرار بتفرد الإنسان واختلافه، وحرية الاعتقاد تعنى أن "لا إكراه فى الدين" وأن الإيمان ثمرة للإرادة الإنسانية

الحرة بغير قهر، أو إرغام أو تسلط، وفى تعاليم المسيح المثالية، تزخر آيات الأناجيل بالدعوة إلى العدالة والمحبة والتواضع، وإنكار الذات وقبول الآخر، والقدرة على هزيمة الخطيئة، وكلها عناصر للتسامح.

إننا جميعا فى مواجهة تحديات متعددة من أجل مستقبل أفضل يتمتع فيه مسيحيو الأمة ومسلموها بجميع الحقوق والواجبات، ويكون المعيار الأوحد للتفرد والتميز الشخصى هو القدرة والإمكانية وثراء الفكر، وإتقان العمل، والقدرة على المشاركة المجتمعية.

لقد انشغلت بعض الدول بالمواطنة ومستقبل بلادهم، ووجدوا فيها دافعا للتقدم والازدهار، فالبريطانيون مثلا انشغلوا بموضوع المواطنة على مدى عام ٢٠٠٦ وحتى مطلع ٢٠٠٧ فاجتمعت مجموعة من المراكز البحثية والمؤسسات المدنية التى تعمل فى مجال التطور الديمقراطى والمجتمع المدنى فى إطار مشروع وطنى موضوعه "مستقبل المواطنة. فى العشرين عاما المقبلة أى فى ٢٠٢٦ حيث قدموا تقريرهم الختامى للمشروع للجنة قومية معنية بالشئون الدستورية. وتقول القراءة العامة للتقرير إنه حمل الكثير من الأفكار الثمينة، وتناول المواطنة تناولا دقيقا على المستويين المفهومى والعملى، كما عكس التقرير كيف أسفرت نقاشات عام كامل عن بلورة رؤية عميقة لمستقبل المواطنة فى بريطانيا تكون محل إجماع لتهيئة كل ما من شأنه توفير سياق مجتمعى لتعظيم مواطنيه فى أفضل صورها.

ومن هنا ندرك أهمية الحرية للبلاد المتطلعة للتقدم، فإذا كانت بعض

الدول الغربية تحرص على تطبيق هذا المبدأ، فإن من الأسس التى يقوم عليها الإسلام المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، ومن بين هذه الحقوق حرية التعبير عن الرأى والحق فى التنقل وغيرها من الحقوق.

وقد كان يسمح للإنسان بإبداء رأيه فى كثير من الأمور السياسية والفكرية فى بداية عصر النبى صلى الله عليه وسلم، استنادا إلى قول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وقد استشار النبى أصحابه فى اختيار مواقع القتال والمعارك. وكان النبى يسمح لهم، ويحبذ من آرائهم ما فيه المصلحة، وكذلك عند اختياره صلى الله عليه وسلم للنابغين من أصحابه لنشر تعاليم الإسلام.. وسادت الحياة على هذا المنهاج فى كل التصرفات تدريب على الحرية، وإعمال الفكر، مع نبذ فوضى الحرية، والدعوة إلى الحرية الملتزمة بالضوابط الآمنة، ففوضى الحرية تعنى عدم تقيد العقل البشرى بسقف يحول بينه وبين إبداء رأية فى أى موضوع، وقد حث الأديان السماوية على الحرية المسئولة التى تسمح للإنسان إبداء رأيه فى حدود لا يلحق معها أذى أو إهانة للمقدسات أو الرموز الدينية عن طريق الإقناع العقلى المنظم كما كان يحدث بين أئمة الفكر الإسلامى، وعلى هذا يُسمح للمواطنين بالتعبير عن آرائهم مادامت تلتزم بالقوانين.

إن المواطنة فكرة جامعة تضم بين ظهرانيها أبناء الشعب الواحد على تنوع المكونات الدينية والسلالية والعرقية والقبلية والطائفية التى يشملها هذا الشعب، وهى بمثابة القاسم المشترك الذى يربط بين هذه المكونات،

ويحقق ترابطها وائتلافها الوطنى فى إطار الدولة.

فى مكة وقبل الهجرة كان الذين أسلموا يكونون جماعة مؤمنة تتحدى المقومات الأساسية للمجتمع المكى القائم على الشرك والظلم والاستبداد.. وبعد الهجرة أصبحت هذه الجماعة نواة مجتمع جديد، فأقامت للإسلام دولة. هذه الدولة لها مقومات وأجهزة ووزارات، فإن أى دولة لابد أن ترتكز على دستور قوى، تحكم نصوصه ومواده علاقات المواطنين الذين تظلهم الدولة.. سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. هذه الدولة الإسلامية لم تكن دولة "دينية" بالمعنى الذى تعرفه اليوم من هذا المصطلح، إلا أنها لم تفصل الدين عن الدولة، بل ميزت بينهما، وبدأ تكوين عدد من الوزارات كوزارة المالية، أو الجهاز المالى للدولة، وتوحدت المكاييل والموازين، وأنشئت وظائف متعددة فى إطار الجهاز المالى للدولة، كما تكونت وزارة للعدل للفصل فى المنازعات، ونظر المظالم فى القضايا وخصومات الناس بنفسه، وكذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أما وزارة الداخلية فكانت تتولى تنفيذ الأحكام الصادرة ضد المدانين، وهكذا..

لقد بلغت الآفاق الإسلامية – فى حقوق المواطنة – آفاقا لم تعرفها ديانة من الديانات، ولا حضارة من الحضارات، قبل الإسلام ودولته التى قامت بالمدينة المنورة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم – وكما مثل دستور هذه الدولة- الصحيفة والكتاب – أول نص دستورى يقيم كامل حقوق المواطنة وواجباتها بين الرعية المتعددة دينيا- المؤمنين واليهود- فلقد مثل

العهد الدستورى الذى كتبه رسول الله- صلى الله عليه وسلم – وهو رئيس الدولة للنصارى- عهده لنصارى نجران- مثل التجسيد والتقنين لكامل حقوق المواطنة وواجباتها.

لقد قرر هذا العهد كامل العدل مع غير المسلمين من رعية الدولة الإسلامية، وكامل الحرية فقد جعل حرية الاعتقاد عليه الصلاة والسلام فريضة إسلامية مقدسة، وليست مجرد حق من حقوق الإنسان يمنحها حاكم، ويمنعها آخرون، وأصبح لغير المسلمين ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، فهم شركاء فيما لهم وفيما عليهم. وحماية الأنفس والوفاء والأموال والأعراض وأماكن العبادة والحريات.. ومع تقرير هذه الحقوق، قررت الشريعة الإسلامية واجبات المواطنة، فنصت على أن يكون الولاء والانتماء للوطن، وليس للأعداء الذين يتربصون بهذا الوطن ويكيدون لأهله..

هكذا قررت الشريعة الإسلامية- وليست العلمانية – كامل حقوق المواطنة وواجباتها منذ اللحظة الأولى لقيام دولة الإسلام، الأمر الذى جعل الدولة الإسلامية قائمة على التعددية الدينية طوال تاريخ الإسلام.

المواطنة:

المواطنة مشتقة من الوطن. ومادام الوطن هو القضية وهو الأصل، فإن كلمة المواطنة يحتويها إطار أوسع وهو الدولة الوطنية، وهذا يعطى لكلمة المواطنة أبعادا أشمل وأكمل، فالوطن هو الأصل، والدولة الوطنية هى التعبير عنه. ولما كانت المواطنة ترتبط ارتباطا وثيقا بمعنى الوطن، والهوية الوطنية والثقافية الوطنية، فهى ليست مفصولة عن كل ذلك.

إذن كلمة المواطنة مستمدة من كلمة وطن بكل ما تحمله من معنى الارتباط بالأرض، والانتماء للشعب والمشاركة فى سلطة الحكم. وهى بهذا المعنى منظومة من القيم والمشاعر والانتماءات تكرس معنى المساواة وتحترم مفهوم التعددية، وتسقط الفوارق المتصلة بالدين أو الجنس أو الأصل بين البشر بغير استثناء.

إن المواطنة تشمل المسلم والمسيحى وغيرهما من أصحاب الكتاب ، كما تشمل المرأة والرجل فى دلالة عصرية على نضج المجتمعات وهى تشير أيضا إلى الحقوق المتكافئة للأغنياء، والفقراء.

إن المواطنة بهذا المعنى تضم جوانب سياسية واقتصادية وثقافية، ومعناها أوسع وأشمل من أن تختزل فى واحد من أبعادها دون غيره، وهو يحدد مفهوم الانتماء، ويضمن للوطن معنى الولاء..

إن المواطنة تتأكد من خلال إطلاق حركة ديمقراطية مكتملة، ينخرط

فيها جميع المواطنين من خلال تفعيل حركة الأحزاب ودعمها وتقويتها، وبجوارها الدور الوطنى الفاعل للمستقلين ، حتى يمكن إحداث توازن فعلى بين القوى السياسية والاجتماعية، والمواطنة فى هذا الإطار هى تأكيد لمسألة الهوية الوطنية، التى لها وجود طبيعى فى الوعى الوطنى، وفاعليتها ووجودها رهن بالمناخ العام الذى يحيط بها، وبالأبعاد الأوسع للقضايا والأوضاع المرتبطة بها، والمكملة لها، وبكونها تسرى على الكل، أيا كانت اتجاهاتهم وانتماءاتهم داخل الوطن الواحد، فهى مواطنة جميع أبناء الوطن.

لقد تكفل الإسلام لغير المسلمين بكل الحقوق التى تحقق لهم حياة آمنة مطمئنة، وسبق فى ذلك كل المواثيق الدولية والعالمية، وما تنادى به حقوق سياسية ومدنية واجتماعية ودينية ومالية، وقضى على التمييز العنصرى واللونى والجغرافى، وترك تراثا وإرثا من الأخوة الإسلامية لا يوجد له مثيل حتى الآن، وفى ظل ذلك ينمو تعايش رائع بين الأطراف فى المجتمع الواحد، دون أن تذوب الفوارق الدينية والمعتقدات.

ليست المواطنة إذن مفهوما جديدا، ولا مفهوما غامضا، فهى قرين الهوية للوطن، وهى علاقة وجدانية ترتبط بالوطن، وهى مبدأ له تاريخ فى الوعى الوطنى، ومفهوم يجمع فى إطاره كل العناصر التى تشيد على أساسها الدولة الرشيدة، والحكم الصالح، والتى توفر لمواطنيها – من ناحية – العدالة والحرية والمساواة دون تمييز، وتوفر – من ناحية ثانية– علاقة ترابط صحية بين المواطنين والحكم، وهو ما يعطى الحكم شرعيته، عندئذ يترسخ

معنى الدولة الوطنية.

ليست المواطنة كلمة أو مصطلحا، لكنها محتوى يحوى تراكمات الأحداث الوطنية التاريخية، وإنجازاتها وهمومها، ومواطن فخرها واعتزازها وطموحاتها وأمانيها.

إن وثيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كتبها ليهود المدينة، وأرسى بها قواعد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، هى نموذج عال من الاتفاقيات والعقود، ومبادئ سامية فى العلاقة بينهم سبق بها الرسول جميع المنظمات الدولية، وفى ظل هذه الأسس نما تعايش رائع بين الطرفين فى المجتمع الواحد، دون أن تذوب الفوارق الدينية، والمعتقدات، فلم يتنازل المسلمون عن دينهم وثقافتهم وحضارتهم، وكذلك غير المسلمين﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون:٦] .

وهكذا تعنى المواطنة أن الناس جميعا متساوون فى الحقوق والواجبات، وأنه لا تمايز بينهم بسبب الجنس أو الدين أو العقيدة أو العرق، وتعنى أيضا اعتراف كل مواطن بحق غيره من الآخرين فى الحرية والحياة الكريمة، والمشاركة فى بناء وتنظيم المجتمع.

والمواطنة بمعنى آخر تعنى تكريس احترام مفهوم التعددية، وتسقط الفوارق المتصلة بالدين أو الجنس أو الأصل بين البشر.

وقد عرف رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابه المعروف. (مناهج الألباب

المصرية فى مناهج الآداب العصرية) والذى أصدره فى أخريات حياته، ويقول فيه عن الوطنية: "أسعد الناس الذى يميل بطبعه إلى إبعاد الشر عن وطنه، ولو بإضرار نفسه،فصفة الوطنية لا تستدعى فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة على الوطن، بل يجب عليه أيضا أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه.. فالتقدم لا يتم بدون إنجذاب قلوب الأهالى صوب مركز التمدن والتنظيم وتوجه نفوسهم بالطوع والاختيار إلى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم".

وهذه كلمات من كتاب فى التربية الوطنية من باب (الأمة والوطن والوطنية) لفريق من المؤلفين على رأسهم عبد العزيز البشرى "وإن إثما دونه كل إثم أن ينصرف أبناء الوطن عن النهوض بحقوقه قانعين من الوطنية بالنفحات بما سلف من أخباره، والتباهى بما درس من آثاره، فما كانت الوطنية إلا تلك العاطفة التى تزكى فى نفوسنا حب الوطن، وترصد أبلغ جهودنا وأنبل مساعينا لخيره، والعمل لمجده، وإذا كان للوطنية الصادقة مظاهر عدة فإن أجلاها وأوضحها الشعور بالواجب الوطنى، فهو مادة القومية الحق، وهو دليل الوجود السياسى فى هذا الوجود.

لقد ارتضى الأقباط مثلا أن يخضعوا لأحكام الميراث فى الإسلام، لأن المسيحية ليست ديانة تشريع، وكل تشريع لا يناقض مع نص إنجيلى فهو مباح، مع العلم بأن أكثر من ٩٥٪ من التعاليم المسيحية غير متناقضة مع الشريعة الإسلامية، وليس من شك فى أن الدين الإسلامى، يمنح كل

الحقوق والواجبات بالتساوى مع الآخر، والمهم هو التطبيق، وإعمال مبدأ الرجل المناسب فى المكان المناسب، فالمواطنة تعنى حركة الناس من أجل اكتساب الحقوق، وإحداث التغيير، وتحتاج لتوعية كبيرة، وللتشجيع على الحركة التى تعنى المساواة بدون تمييز.

إن مبادئ الأديان توفر لمعتنقيها أعلى مستويات الانسجام الروحى والمادى، وتحقق لهم مصلحة الجماعة والفرد معا فى تناغم لا تحققه أية مبادئ أخرى من صنع البشر، والذين يطالبون بإعلاء مبادئ حقوق الإنسان بفرض أنها أكثر قدسية من المبادئ الدينية السماوية المنزلة عن طريق الوحى، ومن ثم فإن الأديان السماوية هى بالضرورة متناقضة مع الحقوق الإنسانية، وهو مالا تقبله المجتمعات المتدينة، اعتقادا منها وبحق عن أن الأديان السماوية تقدس الإنسان كمخلوق له مكانته العليا التى حفظها الله تعالى، وشرع له ما يحمى به تلك المكانة العالية، وما يرتبط بها من حقوق حفظ النفس والعقل والمال والدين والنسل. وهو الأمر الذى يسبق زمنيا، ويتفوق موضوعيا على ما تتضمنه مبادئ حقوق الإنسان بشرية الصنع التى لا يزيد عمرها على ستة عقود من السنوات.

إننا إذا نظرنا إلى المواطنة باعتبارها الانتماء إلى الوطن والذود عنه، وحماية ثرواته، والتمتع بها وفق أسس الانصاف الاجتماعى، والعدل الإنسانى، فهى بذلك لا تتناقض مع ما يطالب به الدين الإسلامى الذى يفرض على الإنسان الحرص على الانتماء إلى قومه، والتعاون معهم فى

مواجهة من يريد بهم الشر، ويفرض عليه أيضا أن يكون عونا لأبناء قومه هؤلاء فى السراء وفى الضراء وحين البأس.. وأن يتفاعل معهم بالتعاطف والحب والتماسك والتضامن. كما فرض عليه أيضا أن يحسن معاملة غير المسلمين الذين يعيشون معه، وأن يوفر لهم أسس الحياة الكريمة شأن ما يتمتع به المسلم نفسه. وأن يوفر لهم حق عبادة ما يعتقدون فيه طالما أنه منزل من السماء. فالمسلم يؤمن بما أنزله الله تعالى على الأنبياء المكرمين الذين سبقوا محمدًا عليه الصلاة والسلام، فهم أيضا مسلمون وموحدون بالله تعالى.

فلا مواطنة حقيقية بدون دين، ولا تدين حقيقى بدون مواطنة، وادعاء التناقض بينهما نوع من العبث الضار بكل شيء، فهو دعوة يجب التصدى لها، والوقوف ضدها بكل قوة..

إن محاولة التلاعب بمفهوم المواطنة تلاعب بمقدرات الأمة المتوازنة جيلا وراء جيل، لكن من حق الجميع البحث فى إحياء مفهوم المواطنة دون المساس بجوهرها ومكوناتها ومفرداتها، وبهدف تحديث بنية العلاقة بين المواطن والدولة من خلال توفير المناخ والبنية الأساسية والتشريعية والإدارية التى تشجع المواطن على المشاركة وتمكنه من ممارسة حقوقه المشروعة.

ولقد كان أول درس من الدروس المستفادة من هجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من مكة إلى المدينة المنورة هو ترسيخ مبدأ المواطنة الذى

طبقه الرسول فى أول يوم وطئت فيه قدماه أرض المدينة، بل يذهب البعض إلى أن النبى بدأ تنفيذه قبل دخوله يثرب، وذلك حينما بعث الصحابى الجليل مصعب بن عمير فى مهمة بأول سفير للإسلام إلى المدينة، فمبدأ المواطنة فى مجمله أن يعيش المواطنون فى البلد الواحد كل ينعم بدينه، على أن يكون الكل متساوين فى الحقوق والواجبات لهذا الوطن.

ولقد وقع النبى صلى الله عليه وسلم معاهدات مع قاطنى المدينة المنورة من أهل الكتاب وغيرهم بحيث يكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، بحيث يكونوا يدا واحداة لحماية الوطن، حتى يرجح البعض أن هذه المعاهدات كانت أول وثيقة عرفتها البشرية لحقوق الإنسان، وتنادى جميع الديمقراطيات فى العالم الآن بتحقيق ذلك المبدأ.

إن الانتماء للوطن من الدين، فحينما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة ودعها بدموع رجراجة، ونظرات حانية، وقال : والله إنى أعلم أنك أحب البلاد إلى الله، وأحب البلاد إلى قلبى، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت، ففى هذا القول تجسيد للحب، والانتماء للوطن مهما يلقى الإنسان فيه من مصاعب.

إننا نرى اليوم فى تشريعات الدول المتحضرة التى تُعلى مبدأ المواطنة تطبيقا وضمانات للحماية، وجزاءات تقع بحق من يخالف المبدأ. ففى فرنسا على سبيل المثال، وغيرها من البلدان المتقدمة، هناك تجريم (بالحظر والعقاب) لأى فعل ينطوى على التمييز ضد الأشخاص الطبيعيين أو

غيرهم بسبب العديد من مظاهر الاختلاف مثل الأصل أو الجنس أو الرأى السياسى، أو النشاط النقابى، أو انتمائهم العرقى أو الدينى، وكل من يمتنع عن توظيف شخص، أو يخضع توظيفه لشروط معينة.

إن المواطنة ثقافة وقناعة لدى "المواطنين" يفترض أن تتحول إلى سلوك فى حياتهم اليومية، ليس فقط فيما يتعلق بالسياسة، بل فى مختلف مناحى النشاط المجتمعى، ولتحقيق هذا الهدف يتعين إدخال تغييرات فى الثقافة الاجتماعية- وبالتالى السياسية- أى تغييرات على منظومته القيمية والفكرية، ومعايير الحكم على الأمور لديه، فالدعوة إلى ثقافة المواطنة مهمة، لا تقل أهمية عن تبنى مفهوم المواطنة.

المواطنة هى المرجعية فى العلاقة فيما بين المواطنين، أو فى الحكم على أحقيتهم فى الحصول على امتياز ما، وعدم الاحتكام إلى مرجعية أخرى سواها فى هذا المجال، فالمواطن يجب أن تترسخ لديه القناعة المستندة إلى واقع عملى معاش وهى التى تمثل ركيزة التفاضل بين المواطنين، وليس لونا أو جنسا أو دينا أو الخلفية الاجتماعية، أو الحالة الاقتصادية.

إن من أهم سمات الشخصية السوية فى الإسلام تقبل الآخر، وإقامة العلاقات معه على أساس من المودة والرحمة.

فالإسلام منذ العصر النبوى وحتى العهود المتأخرة من تاريخ الخلافة الإسلامية- لم يظهر إلا كل المشاعر الطيبة الحسنة تجاه الآخرين الذين لا يدينون به، روى عن ابن هشام أن النبى – صلى الله عليه وسلم – لم تمض

على وجوده فى المدينة المنورة غير فترة قليلة حتى اجتمع له إسلام أهل المدينة من العرب، ولم تبق دار إلا أسلم أهلها، عدا افراد من قبيلة الأوس، فكتب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود (أى صالحهم)، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، ومن الواضح أن إقرار اليهود على دينهم يعنى أن منهج الإسلام هو كفالة هوية العقيدة.

(آداب البحث والمناظرة) و(علم الخلاف) علمان يتعلم منهما الدارسون كيف يكون الحوار المثمر، وكيف يتجنب أطرافه الانحراف عن مقاصده، وكيف يعتدل مساره حين يتطرق إليه الأعوجاج، كما يتعلمون منهما ما يفرقون بين الحوار المثمر الذى ينبغى الوصول إلى الحق، وبين الجدال، والمخاصمة والمراء التى تطمح جميعها إلى مجرد الغلبة على الخصوم، واللجاجة فى الخصومة. وكثيرا ما ينشب النزاع الحاد حول سبب متوهم لا وجود له، ولو أن الطرفين قد تمهلا وتثبتا من سبب النزاع، لما كان للنزاع نفسه وجود.

فمثلا نرى فرقا تتنازع حول مفهوم المواطنة، ولكل آراؤه نحو هذا المفهوم مع أن علاقة المواطنة تعنى التساوى فى الانتماء للوطن، وفى العلاقة بين المواطن والدولة، وفى التمتع بحقوق وواجبات متساوية، وهذا يمثل بندا من بنود التعاقد الاجتماعى بين المواطنين الأحرار، وبين الدولة. وهنالك بند آخر من بنود التعاقد الاجتماعى بين المواطنين الأحرار وبين

الدولة أيضا وهو أن الإسلام دين الدولة، وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع، ولا تعارض بين البندين فلئن كان مبدأ المواطنة يجسد خطوط العلاقة المباشرة بين جماعة المواطنين الأحرار، وبين الدولة، فإن مبدأ الشريعة يجسد ما يمكن أن يسمى بتعبير جان جاك روسو فى كتابه (فى العقد الاجتماعى) الإرادة العامة أو (روح الجماعة) التى لا تمثل على حد تعبيره أيضا – الإرادات الراهنة فحسب بل تاريخ الجماعة الماضية وأهدافها.

إننا حين نتحدث عن الوطن والمواطنة، لا نغفل قط إعلاء الإسلام لهذا المبدأ، وتأكيده عليه.. فالدفاع عن الوطن أغلى قيمة فى حياة الإنسان، وكذلك الحرص على الإسلام والدعوة إليه من أسمى أمانينا.

ربما يكون مصطلح – المواطنة – غريبا غامضا.. جديدا علينا. أو أنه ربما يبدو مصطلحا بعيدا عن الإسلام. لكن الحقيقة والواقع أن "المواطنة" إسلامية المعنى والمكان والهوية، والدولة الإسلامية وضعت أساس المواطنة منذ اللحظة الأولى للإسلام.. فاليهود والنصارى والمسلمون أمة واحدة، لليهود دينهم، وللنصارى دينهم، وللمسلمين دينهم، كذلك أراد الله، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة يدينون بدين واحد، ويعبدون إلها واحدا، ولم يجعلهم شعوبا وقبائل، إنما كانت الحكمة فى اختلاف الألوان والأجناس والديانات.. إن الأديان كلها من الله وإلى الله، وإنها تدعو إلى هدف واحد، وقصد نبيل.

إن الغرب لم يعرف المواطنة إلا على أنقاض الدين، - كما يقول المفكر

محمد عمارة – لذلك تميزت مواطنته بالعلمانية ، ولم يعرفها إلا بعد الثورة الفرنسية بسبب التمييز على أساس الدين والعرق والجنس واللون.. وأن المواطنة الكاملة هى فى الإسلام، وأن مرجعية القانون- الإسلام- هى الضامنة للحقوق والواجبات، بدلا من جعلها علمانية، يقررها حاكم، ويمنعها آخر.

إن حرصنا على مبدأ المواطنة حرص على المساواة، وحرصنا كذلك على الشريعة الإسلامية، حرص على تأكيد الهوية الإسلامية للوطن، والإسلام يكفل الحقوق الكاملة للمسلمين ولغير المسلمين، بل يجعل من يظلم غير المسلم خصما للرسول – صلى الله عليه وسلم – يوم القيامة-.

إن القول بغموض مصطلح المواطنة يبدو قولا خارج العصر، لأنه يصعب على المرء أن يتصور فى هذا القرن الحادى والعشرين أنه يمكن لأحد أن ينعت مفهوم المواطنة بالغموض. فمثل هذا الاعتقاد قاصر من الناحية النظرية، وخطير من الناحية العملية. فالمواطنة هى التعبير المتحضر والآمن عن انصهار الاختلاف الإنسانى فى الدين أو العرق أو اللغة أو اللون أو الأفكار ليصبح هذا الاختلاف حقا معترفا به من حقوق الإنسان.. فى ذات الوقت الذى تصبح فيه هذه المواطنة هى المعيار القانونى والسياسى الوحيد الذى به تتحدد حقوق والتزامات الإنسان المواطن فى مواجهة السلطة.

المواطنة إذن ليست تعبيرا غامضا لأنها المفهوم الوحيد القادر على تحقيق المزج والتصالح بين كون الإنسان مواطنا، وكون المواطن إنسانا –

هذا من الناحية النظرية.

أما من الناحية العملية فخطورته من تجارب القوة والإنهيار فى حالات بعض الشعوب كأن مناطها وجود أو غياب فكرة المواطنة.

إن مفهوم المواطنة مفهوم دائم التطور، نظرا لارتباطه بعملية التطور الاجتماعى والسياسى فى كل مجتمع..

والمقصود بالمواطنة عدد من الناس يسكنون فى مكان واحد بصفة دائمة، وعليه فجميع الناس من مسلمين ومسيحيين ويهود ما داموا يعيشون فى أرض واحدة فهم مواطنون بصرف النظر عن دياناتهم وعقائدهم، فهم قد نشأوا على أرض واحدة، واستظلوا بسماء واحدة، وتنفسوا من هواء واحد، وأكلوا وشربوا طعاما وشرابا واحدا، ولنا فى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أسوة حسنة فقد عقد معاهدة مع جميع سكان المدينة من اليهود وغيرهم، تتضمن أن هذه المدينة المنورة وطنهم جميعا، لا فرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم، وأن على سكانها جميعا دون تفرقة أن يدافعوا عن مدينتهم إذا ما تعرضت لأذى.

المواطنة تعبير يربط بين عنصرين "المواطن" الإنسان المنتمى للوطن و"الوطن" المكان، وهى التى توجب حقوقا للمواطن ، والوثيقة النبوية التى تعرف باسم "صحيفة المدينة" أو "دستور المدينة" وهى وثيقة نظمت الحياة فى المدينة بين المسلمين وبين اليهود بل وبين عدد قليل من المشركين.

وهذه الوثيقة تعتبر أول نظام يحدد العلاقة بين مواطنى الدولة الواحدة،

وتقوم على أساس الانتماء إلى الدولة، وليس على الانتماء إلى العقيدة الدينية ولا العصبية القبلية، ولا إلى اللون أو الجنس.

لقد كفل الإسلام لغير المسلمين كل الحقوق التى تحقق لهم حياة آمنة مطمئنة، وسبق فى ذلك كل المواثيق الدولية والعالمية، وما تنادى به من حقوق سياسية ومدنية واجتماعية ودينية ومالية، وقضى على التمييز العنصرى واللوتى والجغرافى.

محمد خاتم الرسل

من سيرة محمد

القرآن الكريم دستورنا، ومسيرة حياة رسول الله محمد بن عبد الله ، صلوات الله عليه وسلامه منبعا ومصدرًا رئيسيا بعده، لمعرفة وفهم حقيقة دين الله وخاتم رسالاته البشرية، وفى صحيح الحديث الشريف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتى":. ولاشك أن حياة الرسول الكريم هى أكثر تجليات سنته المشرفة كمالا ووضوحا وصدقا. ولا شك أن هذا الكمال الواضح الصادق هو الذى جعل عالما وباحثا بريطانيا كبيرا، مسيحى الديانة، ومتمسكا بدينه مثل: و.ف. بودلى إلى أن يدرس سيرة الرسول، وأن يكتبها فى كتابه : الرسول، حياة محمد، وقام بترجمته، محمد محمد فرج، وقدمه: عبد الحميد جوده السحار..

وقد تتبع المؤلف حياة الرسول خطوة خطوة ، وحاول جهده أن يكون عادلا – منصفا، أو : موضوعيا من وجهة نظر عالم غربى – فى أحكامه- وهذه بعض مقتطفات من الكتاب فى سيرة وسنة سيد الخلق وخاتم الأنبياء.

لا توجد أسرار تحيط بمولد محمد، إذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل، فما كان هناك من بشائر على أنه المصطفى من الله، فما زارت الملائكة

أمه قبل مولده، ولا بشرتها بقدومه، حملته أمه ووضعته، كما تحمل كل أنثى وتضع. وكان أبوه وأمه غنيين، فقد كانا من قريش التى اشتهر أهلها بالتجارة، ولم يشذ محمد وأهله عنهم، وكان أبوه عبد الله، قد اشتهر بالوسامة، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحرا.

وكان لعبد الله أخوات جميلات، وأحد عشر أخا، قدر لأربعة منهم أن يلعبوا أدوارا على جانب عظيم من الأهمية فى الثورة العالمية، التى اشعل نيرانها ابن آمنة من عبد الله، وهؤلاء الأربعة هم: أبو طالب وأبو لهب رفيقا عبد الله، والعباس وحمزة، وكانا أصغر من السابقين سنا، وكان أبوهم مكيا ذائع الصيت، هو عبد المطلب ابن هاشم.

ونقف بنسب محمد عند هذا، لما نعتقده من أهية ذلك – فهاشم كانت له مكانته الملحوظة فى مكة، وقد أثر ذلك فى حفيده، فقد توافر لهاشم المنصب والمال، فكان تاجرا مبجلا، وجابى ضرائب مكة الرسمى، وكان يميل – ككل عربى – إلى عمله بطبعه، وقد لحظ مركز مكة المنعزل الذى لا يجذب إليه الأفئدة ، وأحس حرارتها اللافحة القاسية، ولولا مكانتها المقدسة لهجرها هاشم، ولتركها الآخرون، ولعفت عليها الرمال من أجيال، ولكن كان على هاشم أن يبقى بها، فعمل جاهدا على مد يد الإصلاح إليها، فراح يضيف إلى موارد البلد الحرام موارد أخرى، غير ما كان يأتيها من الحجيج، فبدأ رحلتى الشتاء والصيف العظيمتين، ففى الشتاء تنطلق قوافل مكة إلى اليمن والجنوب، وفى الصيف تنطلق إلى سورية والشمال، وشجع

القوافل الصغيرة على المرور بمكة، وأمن طرق القوافل بإبرام معاهدات مع الرومان، والأمير العربى السورى، وعقد حلفا تجاريا فى ذات الوقت مع الفرس والأحباش وقد ضمن للحجاج الأمن، فأطمأنوا على ما يحملون معهم من أموال أو متاع، لقد جلب ذلك الرجل المتبصر إلى مكة الخير، فعمها الرخاء، ونال أشرافها جانبا منه، وتكدست الأموال فى خزائن هاشم العظيم.

هكذا على الرغم من إقفار مكة وحرها، وانعزالها عن المدن الأخرى، ما كانت بالراكدة أو الساكنة، وما كانت متأخرة عن زمانها، بل كانت الحياة تسرى فيها، كانت متيقظة تملؤها الحركة والمتناقضات، فالثروة الهائلة تجاور الفقر المدقع والحرمان، لقد نشأت بين تجار الزيوت والأقمشة والروائح والأحجار الكريمة والعبيد أرستقراطية أقرب شبها بأرستقراطية فينسيا المستقبلة. وما كان هؤلاء الارستقراطيون يفكرون إلا فى التجارة، وإنفاق أموالهم فى اللذات، وما كانوا يشقون فى جمع هذه الأموال، وأولى صفات المكيين ميلهم إلى المقامرة، فاشتغلوا بالمضاربات، وبيع البضائع المتوهمة، أو البضائع التى لم تصل إلى مكة بعد، فلطالما باعوا البضائع قبل وصولها من اليمن أو الشام، وباعوا المحاصيل قبل حلول موسم الحصاد بوقت طويل، فأفلست بيوتات، واغتنت بيوتات، بين عشية وضحاها، وشاركت النساء فى الأعمال، وكان لبعضهن أثر فعال فى المضاربات.

وكان عبد المطلب عربيا، عظيم القدر كأبيه وعمه. اشتغل بالنجارة

والحرب، وكان كشف بئر زمزم سبب علو كعبه وارتفاع ذكره، فقد غمرتها الرمال المستمرة الهبوب. وكان عبد الله مكلف بالسقاية والوفادة. فقد كان أمين الكعبة. وكان فى جلب المياه من الآبار المبعثرة حول مكة مشقة وجهد.

وفطن عبد المطلب إلى وجوب تقارب زمزم والكعبة، إذا صحت القصص المروية، فراح يحفر، وعثر على البئر يوما فنبع الماء، وظهرت غزالتا الذهب، ودروع وأسياف، كانت لآخر ملوك الجرهميين الذين حكموا مكة إلى القرن الثالث. وبعد مناقشات حول البئر والكنز، ارتضى القوم أن يضربوا عليها بالقداح عند هبل، وكان من العقيق اليمانى الأحمر، فخرجت البئر لعبد المطلب، والكنز للكعبة، وقد أرضى ذلك عبد المطلب كل الرضا، فقد يسرت له زمزم سقاية الحاج، وذاع اسمه، وارتفع ذكره.

وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه إليه، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله، لكن الموت لم يمهله، فقد خطفه الموت عقب زواجه من آمنة من يثرب، وهو فى رحلة تجارية، ولم يقدر له أن ينعم برؤية أبنه الذى رأى النور فى عام ٥٧٠م بعد وفاته بعدة شهور.

لم يرث محمد شيئا مما كان ينتظره، ولعل ذلك يرجع إلى موت أبيه قبل موت جده، فلم يترك له عبد الله الوسيم إلا دارا صغيرة وخمسة من الإبل، وبعض الماعز، وجارية تدعى بركة، وما كانت هذه التركة كافية ليبدأ الإنسان حياته بها، وإنه لشيء أليم لسليل هاشم.

رحل عبد الله وما كان لمحمد وأمه إلا كرم الأسرة، وفى سابع يوم لمولده، أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ودعا رجالا من قريش فحضروا وأطعموا، وسمى الطفل بعد مولده "قثم" ولكن عبد المطلب سماه محمدا، فلما علم القوم منه أنه أسمى الطفل محمدا، سألوه، لم رغب عن أسماء آبائه؟ قال : أردت أن يكون محمودا فى السماء لله، وفى الأرض لخلقه، وهذه الإجابة الغامضة تشير إلى معنى كلمة محمد..

ولجو مكة الخانق، كان من عادة أشراف العرب من أهلها أن يدفعوا أطفالهم إلى مراضع من أهل البادية، فكان يفد إلى مكة المراضع البدويات القويات فى السنة مرتين، يلتمس الأطفال لإرضاعهن، وكن يعرضن خدماتهن على الأمهات الموسرات، ولم تكن آمنة بالموسرة.

وما كانت البدوية لتجود بلبنها لمستجد، وإن كان ذا نسب عريض، فلم تقبل واحدة من المراضع على محمد، فخيم الحزن على آمنة، ولكنها وجدت أخيرا بدوية من بنى سعد، تدعى حليمة، تقبل رعاية محمد اليتيم، وفى صبيحة أحد الأيام، حمل الغلام الذى سيحكم يوما بلاد العرب على ظهر حمار إلى مراعى بنى سعد، وهكذا عاش محمد فى البادية.

ونما محمد، ولم يكن نضجه مبكرا، ولكن كان عقله وجسمه نشيطين، فمشى قبل من يقاربونه فى العمر، وتكلم سريعا، وكان أنصح تفكيرا من البدوى، وما هذا بغريب، فالبدوى فى أفضل حالاته لا يتسامى بتفكيره إلى الحضرى، وما إن استطالت رجلاه، حتى امتطى حمارا، وراح يتدرب على

استعمال القوس والنشاب، وكان يهيؤها له أبواه فى الرضاعة.

وقد تعلم أن يستيقظ فى الفجر، وأن ينام إذا خيم الظلام، فتعلم احترام الشمس، وشكر المطر، ومقابلة العواصف الرملية، ورياح السموم بوجه مغطى، وتلقن أحكام البدو البدائية، كالعين بالعين، والسن بالسن، وشاهد العقوبات القاسية كالطرد من القبيلة.

وعلى الرغم من اعتراف قبيلة بنى سعد، بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة، عزمت حليمة على أن تعيد ابنها فى الرضاعة إلى أمه، فلما بلغ السادسة عادت به إلى مكة، ودفعت به إلى أمه، التى أحست غبطة لرؤيتها ابنها فى الدار، وقد بدت عليه القوة والصحة، ورأت أن تخرج بأبنها إلى يثرب لترى الغلام أخوال أبيه من بنى النجار.

ولولا أن أسرة محمد مكية لبقيت آمنة بالمدينة، ولتغير بذلك تاريخ العرب، ولكن مكة كانت الموطن، فلابد من العودة إليها.

وحملهم بعيرهم مرة أخرى، وهبت عاصفة، وراحت تزجى ريحها المحرقة، فتأخرت الرحلة، وما كانت صحة آمنة الضعيفة لتتحمل ذلك، وما كانت آمنة قوية صحيحة فى يوم من الأيام واستؤنفت الرحلة، وفى ليلة من الليالى ماتت آمنة، فحملت بركة جثمانها إلى قرية "الأبواء" ودفنتها بها، ثم استأنفت هى ومحمد رحلتها والأسى يملأ جوانحها، وبلغت مكة، ودفعت بالغلام إلى جده، وكان الكبر قد نال منه، ولكنه أحس غبطة لما رأى حفيده، الذى عاش فى كنفه سنتين.

أحس الشيخ دنو أجله، فدعا ابنه أبا طالب، وعهد إليه بكفالة محمد، فلما مات الشيخ غير محمد داره مرة أخرى..

كان خروج القوافل وعودتها من الحوادث المهمة فى تاريخ المكيين، وفى صبيحة يوم من الأيام صحب أبو طالب ابن أخيه، فأشرق وجه محمد سرورا، وكان سروره عظيما لم يحسه قبل اليوم. وعرف محمد بالأمانة والجد، فلما تخطى الخامسة والعشرين حتى كان من أكبر تجار القوافل وأنشطهم فى غرب بلاد العرب، فعهد إليه كثيرون غير عمه بأمر تجارته، وقد اختلف محمد عن زملائه من التجار، فإنه بعد أن ينقضى يومه يقضى وقته فى السوق، أو فى دار صديق، حيث يجتمع المغنون ورواة القصص والشعراء، ولطالما أنصت هناك إلى الفلاسفة ورجال الأديان يتناقشون فى أمور دينهم وعقائدهم، وترادفت رحلاته فألم خلالها بتاريخ تلك البقاع من آسيا وتقاليدها، وتهيأ له ما يتهيأ لأمثاله ممن يقضون أعمارهم فى الرحلات منذ الحكمة النبوية.

وإن الدارس لقصة محمد لتبهره حكمته الساطعة، وليرى محمدا شيئا مميزًا لا يمت لعصره بسبب، وأنه ليعجب أحيانا من اعتدال أحكامه التى تعالج الأمور العامة، كانت أكثرها سابقة لأفكار معاصريه.

وإنه لمن الطبيعى أن تجعل هذه الرحلات محمدا يفكر فيما يرى ويسمع، فكان على نقيض من سبقه من الأنبياء، فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية، بل تكشفت له الدنيا ومشاكلها، فلم يغفل الناحية العلمية الدنيوية، لما جاء

بدينه، فوفق بين دنيا الناس ودينهم، وبذلك تفادى مهاوى من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملى.

وظلت أخلاقه ثابتة لا تتبدل أيا كان العمل الذى يعمله، سواء أكان يرعى غنمه فى سكون البادية، أم يبيع عطوره أو أنماطه فى دمشق، ولم تتبدل أمانته، ولم يتغير صدقه، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام، حتى لقب "بالأمين"، ولم تفتنه الغرائز البشرية وكان حاضر البديهة عذب الحديث، ميالا إلى معاشرة الناس، معتنيا دائما بملابسه وهندامه، فكان يلبس للخيام لبسا، وللطريق لبسا، ويعتنى بلباسه غاية العناية إذا ما كان فى الدار، وكان يهتم بعمامته، وكانت ملابسه نظيفة، وكان يفضل البياض، وإن كان قد لبس الألوان الزاهية فى أيامه الأخيرة، وكان يسوؤه منظر الأسنان القذرة، فأسنانه نظيفة دواما.

وكانت أسنانه الناصعة البياض تتفق ومظهره، فكان ربعة، جميل الجسم، قوى البنيان، عريض الكتفين، يميل إلى الضمور، خفيف اللحم، سريع الخطو، كمن يعرف إلى أين يهدف، وكان رأسه الكبير منتظم الشكل. يقوم على عنق به سطع، وكان شعره أسود يميل إلى التجعد، ويتدلى حتى كتفيه، فكان كمعرفة متموجة، وكانت عيناه السوداوان الكبيرتان تلمعان من خلل أهدابه الثقيلة، وكان لحيته المتجعدة السوداء صغيرة فى شبابه، ثم صارت كثة على مر السنين، وكان شاربه محفوفا لا يخفى فمه اللطيف الجميل، الذى كان يشبه فى حمرته رمانة حديثة القطف، وكان إذا ما سر

يضحك من كل قلبه، لا يعمل على إخفاء سروره، وكان سحره فى بشاشته، وإذا ما توقع إيذاء انقبضت عضلات فمه عداوة، وكانت مصافحته كبسمته صادقة التعبير، فكان يضغط اليد التى تصافحه، وما كان البادئ أبدا يسحب يده، وكان وفيا غاية الوفاء لأصدقائه، فما عرف عنه أنه خان عهده، وكان حبه على الصغار والحيوان صادقا، فإذا سار التف به الصبيان، وأمر أتباعه بالرفق بالحيوان.

وكان متوسط الحال، وقد قال بعضهم فيه يوما: إنه أخفر من عذراء فى خدرها، ولم يثبت فى تاريخه حتى اليوم، أنه أتى أمرا خارقا، وإن الحادث التالى الذى يذكر على سبيل المثال، وعلى سبيل التدليل على فطنته، ليبرهن على أنه كان يتفوق على أقرانه برجاحة عقله، فقد أثرت الأمطار فى الكعبة، فصدعت جدرانها، وأصبح شد بنيانها أمرا ضروريا، وأقبلت قريش على هذا العمل بعد إحجام، ولم يصب رب الكعبة القوم بشر أو أذى، ونقل الحجر الأسود دون اعتراض، فلما آن يوضع الحجر المقدس فى مكانه، واشتد الأمر، واستفحل الخطب، وكادت تندلع نار الحرب، قال أحدهم، اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا، فلما رأوا محمدا أول من دخل هللوا غبطة، ووضعوا الأمر بين يديه، ففكر قليلا، ثم خلع عباءته ونشرها، وأخذ الحجر الأسود ووضعه فيها، ثم قال: ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب. فحملوه جميعا إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء، ثم تناوله ووضعه فى موضعه قبل أن ينشب خلاف آخر.

وكانت حياة محمد فى هذه الحقبة تسير على نحو غير معروف، فلم يفلح أحد فى توضيح حياته أكثر من ذلك، ولكن حدث فى الخامسة والعشرين من عمره حدث لم يبدل من حياة محمد فحسب، بل كان له - عن طريق غير مباشر- رد فعل فى العالم أجمع، فقد كانت تعيش فى ذلك الوقت سيدة متوسطة العمر هى خديجة بنت خويلد، وكانت قد بلغت الأربعين من عمرها على الوجه الصحيح، وكانت قرشية ومن ذوى القربى لمحمد، ولما كانت من جيل سابق لجيله، فلم يسبق لها أن عرفت محمدا، وقد مات عن خديجة زوجان ترك لها كل منهما ثروة، فاشتغلت بالتجارة، واتسعت تجارتها على مر السنين.

كان عقل خديجة راجحا، وكان ممتلئا حيوية كجسمها، فأحست حاجتها إلى رجل أمين نشيط ذى دربة على أعمالها يقوم على رعاية مصالحها، فتجارتها محدودة، إنها فى مسيس الحاجة إلى من ينهض بأعباء قوافلها الرائحة الغادية، وتكلم خزيمة وخديجة- وكان ابن عمها- عن محمد، فلطالما صحبه فى رحلات، وقد كان فى مثل سنه، فتأثر، كما تأثر كل من صحب محمدا بكريم أخلاقه، ووافر نشاطه، وعفته وأمانته، وبعثت خديجة عبدها ميسرة مع محمد أول مرة. ورحل محمد على رأس قوافلها خلال السنتين اللتين أعقبتا ذلك التعيين، إلى معظم الأماكن التى كانت تزورها القوافل فى ذلك الوقت، وكانت دمشق وحلب وبيت المقدس وبيروت وبالميرا من تلك الأماكن.

وكان محمد فى ذلك الوقت، كما كان فى أوج عظمته، متواضعا، فما كان ليعتقد أنه أحسن مركزا أو أسمى مقاما من غيره، فلم يكن من العسير على ميسرة أن يفاتحه فى أمر زواجه من خديجة، فسأله: ما يمنعك أن تزوج على ما أنت عليه من الوسامة والشرف؟ فأجابه محمد فى صراحة، بأنه لم يفكر فى الزواج، فمشاغله كثيرة، وإنه لمغتبط بما هو فيه، فكيف يتيسر لرجل يقضى حياته فى الترحال، أن يقوم على تنشئة بيت وما معه ما يتزوج به، فقال له ميسرة، فإن كفيت ذلك، ودعيت إلى الجمال والمال والكفاية والشرف ألا تجيب. فسرت إجابة ميسرة محمدا، فأين يقابل رحالة سيدة غنية ذات شرف وحسب، وإن قابلها فكيف يطلب الزواج منها؟ وقال ميسرة، إن دعيت إلى المال والجمال والشرف ألا تجيب فراح محمد يفكر فيمن يقصد ميسرة ثم قال: كيف لى بذلك ؟ فقال ميسرة دون تردد: خديجة.. فظهر الدهش فى وجه محمد واستمر ميسرة فى حديثه، وما أفاق من دهشة: "على ذلك" فقد كان اهتمامه بها يفوق اهتمامه بأى إنسان آخر طوال حياته، فقد انفردت برعايته وحبه خلال الإحدى والعشرين سنة التى قضياها معا، ولم تشاطرها قلبه امرأة أخرى، مع أنه كان من المألوف فى بلاده أن تتعدد الزوجات، مهما قيل فى حياة محمد العاطفية، كانت خديجة المرأة الأولى والأخيرة فى حياته.

كان هناك أولاد صغار يعمل على تنشئتهم، ولذلك استمر فى تأمله وتفكيره فى إصلاح مكة الدينى، ولطالما عاودته ذكريات ما سمعه فى أيام رحلاته، وأوصلته تأملاته إلى نتيجة ثابتة: لقد أفسد الناس عقيدة آدم البسيطة النقية، فأرسل الله أنبياء كثيرين، ليهدوا الناس إلى الصراط

المستقيم، ومن هؤلاء الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وزكريا وعيسى المسيح ابن مريم، وقد أعجب محمد بشخصية إبراهيم الذى كان يختلف عن باقى رسل الله، لم يأت بتعاليم خاصة، بل كان حنيفا، لا مسيحيا ولا يهوديا.

واختار محمد غار حراء، وكان يقضى فيه أياما، وأحيانا أياما ولياليها، فى صمت وتأمل وتفكير.

وحقيقة ما كان ينتاب محمدا، حسب ما روى عن أخبار عصره، وما جاء على لسان خديجة، هو أنه قبل أن يبلغ الأربعين، ظهر له الوحى لأول مرة، وكان فى التاسعة والثلاثين، فكان من ذلك الوقت إلى أن انقطع الوحى بموته، إذا جاءه الوحى ثقل تنفسه، واهتز جسمه، وتفصد عرقه، وتبلل به جبهته، حتى فى أقصى حالات البرودة، وكان ينام أحيانا مدة طويلة وعيناه مقفلتان وهو يتأوه.

نزل الوحى عليه فى سنة ٦١٠ م فى شهر رمضان، لما ذهب إلى غار حراء ليتحنث، وقد غربت الشمس عن ليلة القدر، وليلة القدر كما جاء فى القرآن خير من ألف شهر، سلام هى حتى مطلع الفجر، ويقول العرب إن الملائكة تزور الأرض، وإن جبريل جاء بأحكام الله من السماء.

كان محمد ملتفا فى عباءته، وكان مضطجعا على الصخرة يقظان نائما، فسمع فجأة صوتا واضحا لم يسمع مثله من قبل، فانتبه مذعورا، وارتفع الصوت، ففزع محمد، وانتابه الخوف، ثم أغمى عليه، فلما أفاق رأى ملكا فى صورة إنسان منتصبا أمامه، وسرى إليه نفس الصمت مرة أخرى. قال

الملك، اقرأ، فأجاب محمد مأخوذا، ما أقرأ؟ فقال الملك فى إصرار، اقرأ. فقال محمد: ما أقرأ. فقال الملك : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]

فراح محمد يكرر هذه الآيات فى نشوة حتى حفظها، فلما انتهى قال الملك. يا محمد أنت رسول الله حقا، وأنا جبريل، واختفى الملك على الأثر.

ونام محمد وأغرق فى النوم، فغطته خديجة بعباءته، ثم راحت تحدق فيه، فألفته يتوجع بعد برهة، ثم إذا به يهتز، وإذا بالعرق يتفصد من جبهته، فوضعت خديجة فوقه أغطية أخرى، فاستمر يتوجع ويهتز، ثم راح فى سبات عميق، وشخص ببصره أمامه، كأنما يستمع إلى آخر يحدثه، وبعد أن انقضى وقت .. نطق.. كأنما يستعيد درسا ألقى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدَّثر: ١-٧]

وماتت الكلمات على شفتى محمد، واستمر يشخص أمامه ببصره، وكأنما ينتظر استمرار الوحى، ولكن الوحى كان قد ارتفع، فالتفت إلى زوجه وقال : "انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس، وأدعوهم إلى الله وعبادته".

لقد كانت كتابة السيرة النبوية المشرفة وتدوينها من الأسس الأولى

لإقامة العلوم الإسلامية الرئيسية كعلم التفسير وعلم الحديث وعلوم الأصول والفقه وغيرها، وكانت كتابة السيرة بالتالى – واحدة من المهام العلمية، والدينية أيضا- الكبرى التى لا يتصدى لها من العلماء المسلمين إلا الثقات الكبار، وفى العصر الحديث كان كتاب :"حياة محمد" لمحمد حسين هيكل أول سيرة يكتبها مفكر مؤرخ مسلم معاصر على الأسس العلمية الحديثة لكتابه التاريخ والتراجم بشكل خاص.. كما كانت من أهم الأعمال العلمية التى قام بها أى مؤرخ أو عالم مسلم لتوضيح كل القضايا التى كان بعض المؤخين الغربيين من المستشرقين قد للكتابة أثاروها حول حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحول بعض المواقف فى تلك الحياة.

وقد كان محمد حسين هيكل واحدا من أبناء أول جيل عربى اطلع على كتابات المستشرقين.. وهو أيضا أول جيل قرر القيام بمهمة إعادة بناء وعى الإنسان العربى بتاريخ الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أو بتاريخ الأمة فى عصر النبوة، وفى عصر الخلافة الراشدة.. وما يلى بعض مقتطفات من هذا الكتاب المهم فى سيرة رسولنا سيد الخلق وخاتم النبيين.

الرسول بذاته وتصرفاته، حجر الأساس للحضارة الإسلامية.

انفسح المجال أمام محمد ليعلن تعاليمه، وليكون بذاته وتصرفاته المثل الاسمى لهذه التعاليم، وليصبح بذلك حجر الأساس للحضارة الإسلامية.

وحجر الأساس هذا هو الإخاء الإنسانى، إخاء يجعل المرء لا يكمل

إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وحتى يصل به هذا الإخاء إلى غاية البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة.

سأل رجل محمدا، أى الإسلام خير؟ فقال: "نطعم الطعام ونقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف" وفى أول خطبة ألقاها بالمدينة قال: "من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها". وفى خطبته الثانية قال: "اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، واتقوه حق تقاته، وأصدقوا الله صالح ما تقولوا، وتحابوه بروح الله بينكم: إن الله يغضب أن ينتكث عهده".

ولم تكن أقواله وحدها دعامة الدعوة إلى هذا الإخاء الذى جعل منه حجر الزاوية فى حضارة الإسلام، بل كانت أعماله وكان مثله هو هذا الإخاء فى أسمى صور كماله.. كان رسول الله، لكنه كان يأبى أن يظهر فى أى من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية، كان يقول لأصحابه : "لا تطردنى إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله" وخرج على جماعة من أصحابه متوكئا على عصا فقاموا له، فقال: "لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا". وكان إذا بلغ فى مسيرة أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى فى أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته

وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته، وكان أطيب الناس نفسا، وأكثرهم تبسما ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب.

وكان فى بيته فى مهنة أهله يطهر ثوبه ويرقعه، ويحلب شاته، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم، ويقضى حاجة الضعيف، والبائس والمسكين، وكان إذا رأى أحدا فى حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة.

وكان لذلك لايدخر شيئا لغده، حتى لقد توفى ودرعه مرهونة عند يهودى فى قوت عياله.

وكان جم التواضع، شديد الوفاء، حتى لقد وفد للنجاشى وفد فقام بخدمتهم، فقال له أصحابه: يكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإنى أحب أن أكافئهم، وبلغ من وفائه أنه ما ذكرت خديجة إلا ذكرها أطيب الذكر، حتى كانت عائشة تقول، ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة لما كنت أسمعه يذكرها. ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وأن حسن العهد من الإيمان. وبلغ من طيبة نفسه، ورقة قلبه أنه كان يدع بنى بناته يداعبونه أثناء صلاته، بل لقد صلى بإمامة ابنة بنته زينب يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها.

عدل ورحمة:

ولم يقف بالبر والرحمة اللذين جعلهما دعاة الإخاء الذى قامت الحضارة الجديدة على أساسه عند الإنسان، بل عداهما إلى الحيوان كذلك وهى لم تكن رحمة ضعف ولا استكانة، ولم تشبها شائبة من ولا استعلاء، إنما كانت إخاء فى الله بين محمد والذين اتصلوا به جميعا، ومن ثم يفترق أساس حضارة الإسلام عن كثير من سائر الحضارات. الإسلام يضع العدل إلى جانب الإخاء، ويرى أن الإخاء لا يكون إخاء إلا به، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:١٩٤]

وكان محمد المثل الأعلى فى القوة على الحياة، قوة جعلته لا يأبى أن يعطى غيره كل ما عنده، حتى قال أحدهم، إن محمدًا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة، ولكى لا يكون لشيء مما فى الحياة سلطان عليه، وليكون له هو كل السلطان عليها، كان شديد الزهد فى مادتها، على شدة رغبته فى الإحاطة بها، وفى معرفة أسرارها، وقوته إلى غاية الحقيقة من أمرها. بلغ من زهده فيها أن كان فى فراشه الذي ينام عليه أو ما حشوه ليف، وأنه لم يشبع قط، ولم يطعم خبز الشعير يومين متتالين، وكان السويق طعام أكلته الكبرى، وكان التمر طعام سائر يومه، وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله، ولقد عانى الجوع غير مرة، حتى كان يشد على بطنه حجرا يكظم به على صيحات معدته، ذلك كان المعروف عنه فى طعامه، وإن لم يمنعه ذلك من أن ينال

فى بعض الأحايين من أطايب الرزق، وأن يعرف عن حبه زند الخروف والقرع والعسل والحلوى، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام.

أعطته امرأة يوما ثوبا كان فى حاجة إليه، فطلب إليه أحدهم ما يصلح كفنا لميت فأعطاه الثوب.

وكان معروفا ثيابه القميص والكساء، وكانا من صوف أو قطن أو تيل. على أنه فى بعض الأحيان لم يكن يأبى أن يلبس من أنسجة اليمن لباسا فخما يناسب المقام إذا اقتضاه المقام ذلك، وكان يحتذى بسيطا، ولم يلبس خفا إلا حين أهدى إليه النجاشى خفين وسراويل. لم يكن هذا الزهد، ولا هذه الرغبة من الدنيا تقشفا للتقشف، ولا كانا من فرائض الدين، فقد جاء فى القرآن ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧] وجاء ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧]

وفى الأثر : "احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" لكن محمدًا أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى فى القوة على الحياة قوة لا يتطرق إليها ضعف، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان أو أيا مما يجعل لغير الله عليه سيادة. والإخاء الذى يستند إلى هذه القوة ويكون له من المظهر ما ضرب محمد له المثل الأعلى فيما رأيت، إخاء محض بالغ غاية الإخلاص والسمو، إخاء لا تشوبه شائبة، لأن العدل يتضافر فيه مع الرحمة، هذا الأساس الذى وضعه محمد للحضارة

الجديدة التى يقيمها يتلخص بصورة واضحة فيما روى عن على بن أبى طالب، أنه سأل رسول الله عن سنته فقال: "المعرفة رأس مالى، والعقل أصل دينى، والحب أساسى، والشوق مركبى، وذكر الله أنيسى، والثقة كنزى، والحزن رفيقى.

والعلم سلاحى، والصبر ردائى، والرضا غنيمتى، والفقر فخرى، والزهد حرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبى، والجهاد خلقى، وقرة عينى فى الصلاة".

الرسول الإنسان: حقوق النساء والزوجة وحقوق الرجال والزوج.

طبيعى وقد جعل النبى لأزواجه هذه المكانة، بعد أن كن كغيرهن من نساء العرب لا رأى لهن، أن يتغالين فى الاستمتاع بحرية لم يكن لمثيلاتهن بها عهد، وأن تبلغ إحداهن من مراجعة النبى أن يظل يومه غضبان، وكم أعرض عنهن، وكم هجر بعضهن حتى يدفعهن رفقه بينهن إلى مزيد من غلوهن، وأن تخرج بإحداهن الغيرة إلى غير لائق بالسداد. فلما ولدت مارية إبراهيم خرجت الغيرة بأزواج النبى عما أدبهن به، حتى كان هذا الحديث بينه وبين عائشة إذ تنكر عليه كل شبه بين إبراهيم وبينه، ولتكاد تتهم مارية بما يعرف النبى براءتها منه.

وحدث أن كانت حفصة يوما ما قد ذهبت إلى أبيها فتحدثت عنده، وجاءت مارية إلى النبى وهو فى دار حفصة، وأقامت بها زمنا معه، وعادت حفصة فوجدتها فى بيتها، فجعلت تنتظر خروجها وهى أشد ما تكون

غيره، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدة. فلما خرجت مارية ودخلت حفصة على النبى، قالت له : "لقد رأيت من كان عندك، والله لقد سببتنى، وما كنت لتصفها لولا هوانى عليك".

وأدرك محمد أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إذاعة ما رأت والتحدث به إلى عائشة أو إلى غيرها من أزواجه، فأراد إرضاءها بأن حلف لها أن مارية عليه حرام إذا هى لم تذكر مما رأت شيئا، ووعدته حفصة أن تفعل لكن الغيرة أكلت صدرها فلم تطق كتمان ما به، فأسرته إلى عائشة، وأومأت هذه إلى النبى بما رأى منه أن حفصة لم تصن سره.

ولعل الأمر لم يقف عند حفصة وعائشة من أزواج النبى، ولعلهن جميعا وقد رأين ما رفع النبى محمد مكانة مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبى على أثر قصة مارية هذه، وإن تكن لذاتها قصة لا شيء فيها أكثر مما يقع بين رجل وزوجه، أو بين رجل وما ملكت يمينه، مما هو حل له ومما لا موضع فيه لهذه الضجة التى أثارتها ابنتا أبى بكر وعمر محاولتين أن تقتصا لذاتهما من ميل النبى لمارية، وقد رأينا أن شيئا من الجفوة وقع بين النبى وأزواجه فى أوقات مختلفة بسبب النفقة أو بسبب عسل زينب، أو لغير ذلك من الأسباب التى تدل على أن أزواج النبى كن يجدن عليه أن يكون لعائشة أحب أو أن يكون لمارية أهوى.

وبلغ من أمرهن أن أوفدن إليه يوما زينب بنت جحش وهو عندعائشة تصارحه بأنه لا يعدل بين نسائه، وأنه لحبه لعائشة يظلمهن. ألم يجعل لكل

امرأة يوما وليلة، ثم رأت سودة انصراف النبى عنها وعدم بشاشته لها، فوهبت يومها وليلتها لعائشة إرضاء للرسول. ولم تقف زينب من سفارتها عند الكلام فى ميل النبى عن العدل بين نسائه، بل نالت من عائشة وهى جالسة بها جعل عائشة تتحفز للرد عليها لولا إشارات من النبى كانت تهدئ من حدتها. غير أن زينب اندفعت ولج بها الاندفاع وبالغت فى النيل من عائشة، حتى لم يبق للنبى بد من أن يدع لحميراته أن تدافع عن نفسها. وتكلمت عائشة بها أفحم زينب، وسر النبى ودعاه إلى الإعجاب بابنة أبى بكر.

وبلغت منازعات أمهات المؤمنين فى بعض الأحايين بسبب إيثاره بعضهن بالمحبة على بعض حتى هم النبى معه أن يطلق بعضهن، لولا أنهن جعلنه فى حل أن يؤثر من يشاء منهن على من يشاء، فلما ولدت مارية إبراهيم لجت بينهن الغيرة أعظم لجاج، وكانت بعائشة ألج. ومدلهن فى لجاج الغيره بهن هذا الرفق الذى كان محمد يعاملهن به، وهذه المكانة التى رفعهن إليها، ومحمد ليس خليا فيشغل وقته بهذا اللجاج. ويدع نفسه لعبث نسائه، فلابد من درس فيه حزم وفيه صرامة يرد الأمور بين أزواجه إلى نصابها، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه من الدعوة إلى رسالته، وليكن هذا الدرس هجرهن والتهديد بفراقهن، فإن ثبن إلى رشادهن فذاك، والإمتعهن وسرحهن سراحا جميلا.

وانقطع النبى عن نسائه شهرا كاملا لا يكلم أحدا فى شأنهن، ولا يجرؤ

أحد أن يفاتحه فى حديثهن، وفى خلال هذا الشهر اتجه بتفكيره إلى ما يجب عليه وعلى المسلمين للدعوة إلى الإسلام، ولمد سلطانه إلى ما وراء شبه الجزيرة، على أن أبا بكر وعمرو أصهار النبى جميعا كانوا فى قلق أشد القلق على ما قدر مصيرا لأمهات المؤمنين، وما يتعرض له من غضب رسول الله، وما يجر إليه غضب الرسول من غضب الله وغضب ملائكته، بل لقد قيل: إن النى طلق حفصة بنت عمر، بعد الذى كان من إفشائها ما وعدت أن تكتمه، وقد سرى الهمس بين المسلمين أن النبى مطلق أزواجه، وأزواجه خلال ذلك مضطربات نادمات، أن دفعتهن الغيرة إلى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهن، هو منهن الأخ والأب والابن وكل ما فى الحياة، وما وراء الحياة.

وجعل محمد يقضى أكثر وقته فى خزانة له ذات مشربة، يجلس غلامه رباح على أسكفتها ما أقام هو بالخزانة، ويرقى هو إليها على جذع من نخل هو الخشونة كل الخشونة، وإنه لفى خزانته فى يوم أو فى الشهر الذى نذر فيه هجر نسائه على التمام، وقد أقام المسلمون بالمسجد مطرقين ينكتون الحصى ويقولون، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، ويأسون لذلك أسى يبدو على وجوههم واضحا عميقا، إذ قام عمر من بينهم فقصد إلى مقام النبى بخزانته، ونادى غلامه رباحا كى يستأذن له على رسول الله، ونظر إلى رباح يروم الجواب، فإذا رباح لا يقول شيئا علامة أن النبى لم يأذن، فكرر عمر النداء، ولم يجب رباح مرة أخرى.

فرفع عمر صوته قائلا: "يا رباح استأذن لى عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنى أظنه ظن أنى جئت من أجل حفصة. والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربن عنقها"، وأذن النبى، فدخل عمر فجلس، ثم أجال بصره فيما حوله وبكى، قال محمد: ما يبكيك يابن الخطاب؟ وكان الذى أبكاه هذا الحصير الذى رأى النبى مضطجعا عليه، وقد أثر فى جنبه، والخزانة لاشيء فيها إلا قبضة من شعير ومثلها من قرظ وأفيق معلق، فلما ذكر عمر ما يبكيه علمه محمد من وجوب الإعراض عن الدنيا ما رد إليه طمأنينته، ثم قال عمر: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، ثم انعكف يحدث النبى حتى تحسر الغضب عن وجهه، وحتى ضحك، فلما رأى عمر ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه، فلما ذكر النبى أنه لم يطلقهن استأذنه فى أن يفضى بالأمر إلى أولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون ونزل إلى المسجد، فنادى بأعلى صوته، لم يطلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نساءه، وفى هذه القصة نزلت الآيات الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا

خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾
[التحريم:١-٥]

وبذلك انتهى الحادث، وثاب إلى نساء النبى رشادهن، ورجع هو إليهن تائبات عابدات مؤمنات، وعادت إلى حياته البيتية السكينة التى يحتاج إليها كل إنسان لأداء ما فرض عليه أداؤه.

مقدمات الفتوح: تأديب المعتدين وحماية الجزيرة العربية.

وكما كان عهد الحديبية مقدمة عمرة القضاء ففتح مكة، كانت غزوة مؤتة مقدمة تبوك وما كان بعد وفاة النبى من فتح الشام، وسواء أكان السبب الذى أدى إلى غزوة مؤتة هو قتل رسول النبى إلى عامل بصرى، أم قتل رجاله الخمسة عشر فى واقعة ذات الطلح، فإنه عليه السلام دعا إليه فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سنة ٦٢٩م) ثلاثة آلاف من خيرة رجاله، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال : "إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس".

وخرج هذا الجيش، وخرج معه خالد بن الوليد متطوعا ليدل بحسن بلائه فى الحرب على حسن إسلامه، وودع الناس أمراء الجيش، وسار محمد صلى الله عليه وسلم معهم حتى ظاهر المدينة، يوصيهم ألا يقتلوا النساء، ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان، ولا يهدموا المنازل، ولا يقطعوا الأشجار، ودعا عليه السلام، ودعا المسلمون لهذا الجيش قائلين: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم سالمين". وكان أمراء الجيش كلهم يفكرون فى

أخذ القوم من أهل الشام على غرة منهم، على عادة النبى فى سباق غزواته. فيسرع إليهم النصر، ويعودون بالغنيمة، وسار القوم حتى بلغوا معان من أرض الشام وهم لا يعلمون ما هو ملاقيهم، لكن أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم، فقام شرحبيل عامل هرقل على الشام فجمع جموع القبائل ممن حوله، وأوفد من جعل هرقل يمده بجيوش من الإغريق ومن العرب، وتذهب بعض الروايات إلى أن هرقل نفسه تقدم بجيوشه حتى نزل مآب من أرض البلقاء على رأس مائة ألف من الروم. كان انضم إليه مائة ألف أخرى من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى، ويقال إن ثيودور أخا هرقل هو الذى كان على رأس هذه الجيوش لا هرقل نفسه.

وبلغ المسلمين وهم بمعان أمر هذه الجموع، فأقاموا بها ليلتين يفكرون ماذا يصنعون أمام هذا العدد الذى لا قبل لهم به، قال قائل منهم: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنخبره بعدد عدونا، فإما يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له.

وكاد هذا الرأى يسود لولا أن تقدم عبد الله بن رواحة، وكان إلى جانب شهامته وفروسيته شاعرا، فقال: يا قوم، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة. وامتدت عدوى النخوة من الشاعر الشجاع إلى الجيش كله، فقال الناس: فوالله صدق ابن رواحة، ومضوا حتى

إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها مشارف. فلما دنا العدو انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة أن رأوها خيرا من مشارف لتحصنهم بها، وفى مؤتة بدأت المعركة حامية الوطيس بين مائة أو مائتى ألف من جيوش هرقل، وثلاثة آلاف من المسلمين.

بالجلال والإيمان وروعة قوته، حمل زيد بن حارثة راية النبى واندفع بها فى صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفر. لكن الموت فى هذا المقام هو الاستشهاد فى سبيل الله، وليس إلا الاستشهاد دون النصر والظفر مكانا.

وحارب زيد حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو، فتناول الراية من يده جعفر بن أبى طالب، وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره، وهو شاب تعدل وسامته شجاعته، وقاتل جعفر بالراية، حتى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فعقرها. واندفع بنفسه وسط القوم منطلقا انطلاقة السهم يهوى سيفه برؤوسهم حيثما وقع، وكان اللواء بيمين جعفر فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، يقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعته نصفين.

فلما قتل جعفر أخذ ابن رواحة الراية، ثم تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل.

هؤلاء زيد وجعفر وابن رواحة استشهدوا ثلاثتهم فى سبيل الله فى موقعة واحدة. لكن النبى لما علم بخبرهم كان على زيد وجعفر أكبر أسى، وقال: لقد رفعوا إلى الجنة.

قتل ابن رواحة بعد تردد، ثم إقدام فأخذ الراية ثابت بن أرقم أحد بنى العجلان، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

فأخذ خالد الراية مع ما رأى من تفرق صفوف المسلمين، وتضعضع قوتهم المعنوية، وكان خالد قائدا ماهرا، ومحركا للجيوش قل نظيره. لذلك أصدر أوامره فداروا بالمسلمين حتى ضم صفوفهم، ووقف فى محاربة العدو عند مناوشات امتدت به حتى أرخى الليل سدوله، ووضع الجيشان السلاح إلى الصباح، أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خطته، فوزع عددا غير قليل من رجاله فى خط طويل من مؤخرة جيشه أحدثوا، إذا أصبح الناس، من الجلبة ما أدخل فى روع عدوه أن مددًا جاءه من عند النبى، وإذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم الأفاعيل فى اليوم الأول، وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وإن لم يستطيعوا أن يثبتوا، فما عسى أن يصنع هذا المد الذى جاء لا يدرى أحد عنه، لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد، وسروا بعدم مهاجمته إياهم، وكانوا أكثر سرورا بانسحابه ومن معه راجعين إلى المدينة، بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون وإن كان حقا كذلك أن عدوهم لم ينتصر عليهم فيها.

لذلك ما كاد خالد والجيش معه يدنون من المدينة حتى تلقاهم محمد صلى الله عليه وسلم، والمسلمون معه، وطلب محمد فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه، أما الناس فجعلوا يحثون على الجيش التراب، ويقولون : يا فرار، فررتم فى سبيل الله، فيقول رسول الله: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله، ومع هذه التأسية من محمد للعائدين من مؤتة، فقد ظل المسلمون لا يغفرون لهم انسحابهم وعودهم، حتى كان سلمة بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل من رآه: يا فرار فررتم فى سبيل الله. ولولا ما كان بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤتة، ومن فعال خالد بنوع خاص، لظلت مؤتة معتبرة بعض ما لطخ به إخوانهم فى الدين جبينهم من عار الفرار.

لعل كتاب عبقرية محمد – صلوات الله وسلامه عليه – للمفكر المؤرخ والناقد المصرى الكبير عباس محمود العقاد، لعله يكون أكثر الكتب العربية الحديثة أهمية فى استكشافها وكشفها للأسس الحضارية وللقيم الكبرى التى أودعها الله فى كل من رسالة الإسلام، وشخص رسول الإسلام، من فصاحة اللسان إلى القدرة على تأليف القلوب، وجمع الثقة إلى قوة الإيمان والغيرة على نجاح الرسالة والدعوة..

إلى إرساء قيم الإخاء والمساواة، وأهمية العدل وحرية الضمير وأولوية السلام والنظام الاجتماعى القائم على قانون يتساوى أمامه الجميع. والاعتماد على الحوار فى حسم الخلافات، وعدم اللجوء إلى العنف إلا فى حالة الدفاع عن النفس.

لقد جاء كتاب العقاد إذن لاستكشاف أهم المعانى الكامنة فى السيرة النبوية المشرفة، وليس لمجرد إعادة سرد السيرة نفسها.

عبقرية الداعى... الدعوة..

لم ينتشر الإسلام بالسيف، ولكن انتشر رغم السيوف التى واجهته. اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة.. واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة.

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد، ولا تتفق معها الوسائل التى تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه. كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ثم لا يظهر الرسول. وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح، وفى البيئة الصالحة، ثم لا تتهيأ له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة، ولكن الذى اتفق فى رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكانت المعجزة التى تفوق المعجزات.. لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها، وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولا سائغا بغير عنت ولا استكراه..

فكان محمد مستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ.. كانت له فصاحة اللسان واللغة.. وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة.. وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها.

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول.. ولكنها هى التى عليها المدار فى تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال.

الفصاحة:

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام، ولهيئة النطق بالكلام، ولموضوع الكلام فيكون الكلام فصيحا، وهيئة النطق به غير فصيحة، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب.

أما فصاحة محمد.. فقد تكاملت له فى كلامه، وفى هيئة نطقه بكلامه، وفى موضوع كلامه.. فكان أعرب العرب، كما قال عليه السلام: "أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر" فله من اللسان العربى أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة.. وهذه هى فصاحة الكلام.

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم، أو يكون صوته غير محبوب، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس.. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوذه النطق الجميل.

أما محمد فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه، وخير من وصفه بذلك عائشه رضى الله عنها، حيث قالت: "ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه".

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها فى أحسن مواقعها.. فهو صاحب كلام سليم فى منطق

سليم.

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد، ويكون سليما فى كلامه سليما فى نطقه.. ثم لا يقول شيئا يستحق أن يستمع إليه السامع فى موضوعه.

فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول فى فصاحته السائغة من شتى نواحيها، فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أوتى حقا، جوامع الكلام "ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام.

فما من عجب إذن أن يكون محمد صاحب دعوة..

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التى بلغت، وإنما العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة، أو يتغافلون عنها لهوى فى الأفئدة، فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصروا أمس على الكفر به، وحجبوا بأيديهم نوره عامدين.

نجاح الدعوة:

ما من حركة كبرى فى التاريخ تتضح للفهم أن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهوما بأسبابه الواضحة المستقيمة التى لا عوج فى تأويلها، وما من شئ غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة، ثم يخيل إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولا غير مطلوب فى هذه الدنيا، وأن نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود، أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين أى إرهاب وأى سيف.

إن الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف الذين دخلوا فى الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين، ولا يعرضون أحدا لسيوفهم، وكانوا يلقون عنتا، ولا يصيبون أحدا بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين، ونقمة الناقمين، ولا يخرجون أحدا من داره.

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبى الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين، ووعيد الأقوياء المتحكمين، ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى، ويبطلوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوه ليبدأوا واحدا بعدوان أو يستطلبوا على الناس بالسلطان.

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع.

أما الإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين... فلو كان هو باعثا للإيمان، لكان أحرى الناس أن يستجيب إلى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين، وفجرتهم ،أصحاب الترف والثروة فيهم، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس إلى استدامة الحياة واستبقاء النعمة، فإن حياة النعيم بعد الموت محببة إلى المنعمين تحبيبها إلى المحرومين، بل لعلها أشهى إلى الأولين، وأدنى.. ولعلهم أحرص عليها وأحنى، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمراء أصعب من حرمان من لم يذق، ولم يتغير عليه حال.

لم يكن أبو لهب أزهد فى اللذة من عمر.. ولم يكن السابقون إلى محمد أرغب فى النعيم من المتخلفين عنه.. ولكننا ننظر إلى السابقين وننظر إلى المتخلفين، فنرى فارقا واحدا بينهم أظهر من كل فارق ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين وبين من يعقلون ويصغون إلى القول الحق، ومن يستكبرون ولا يصغون إلى القول.

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا من تخلفوا.. وليس هو الفارق بين طالب لذة وزاهد فيها، أو بين مخدوع فى النعيم وغير مخدوع.

ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر – رضى الله عنه فى إسلامه، فقصته فى ذلك نموذج لتلبية الدعوة المحمدية،

ينفى كل كلام يقال عن الوعيد والإغراء وأثرهما فى إقناع الأقوياء، أو الضعفاء..

ولم يكن فى إسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرا وأضعف منه بأسا جبن ولا طمع، لأنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال إن الذين سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة، وجبن عن مواجهة القوة.. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور، فمن كان أقرب إلى هذه الطلبة من غنى أو فقير، ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم، ومن كان به زيغ عنها فقد أبى.. وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف، وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف، ويضع الطغاة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش فى الإصرار والإنكار.

إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا، ومهدت لها الحوادث، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل، أو إلى علة عوجاء يلتوى بها ذوو الأهواء، فهى أوضح شيء فهما لمن أحب أن يفهم، وهى أقوم شيء سبيلا لمن استقام.

[البقرة:٢٤٨]

ويبدو أن هذه الخارقة قد وقعت، فانتهى القوم منها إلى اليقين..

ثم أعد طالوت جيشه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة:٢٤٩]

هنا تتجلى حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل.. إنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة، أمام جيش أمة غالبة، فلابد إذن من قوة، ولا تكون إلا فى الإرادة والصمود للرغبات والشهوات، والصبر على الحرمان والمتاعب، فكانت هذه التجربة : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفى، ولابد من التجربة العملية، ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار.. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ ﴾ وهم يكلون النصر لله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)﴾ [البقرة:٢٥٠]

وداود كان فتى صغيرا من بنى إسرائيل، وجالوت كان ملكا قويا وقائدا محنكا.. ولكن الله شاء، فالأمور لا تجرى بظواهرها، إنما تجرى بحقائقها، وحقائقها يعلمها هو: ومقاديرها فى يده وحده.. وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار على يد هذا الفتى الصغير، وقدر أن يكون داود هو الذى يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده هو العهد الذهبى لبنى إسرائيل فى تاريخهم الطويل: ﴿ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة:٢٥١]

وكان داود ملكا نبيا، وعلمه الله من علمه الكثير، فكان الصلاح فى الأرض، والتمكين للخير بالكفاح مع الشر..

وهكذا ومن خلال هذا العرض نستنتج أن هناك رسلا وأنبياء أرسلهم الله برسالاته، وذكر لنا منهم البعض، وأبهم عنا البعض الآخر، وفى ذلك بيان ما بعده بيان.

لقد شاهدنا موكب الرسل، أو أمة الرسل، وتتابعهم وتعدد رسالاتهم من لدن نوح- عليه السلام – وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة، ذات المدلول الواحد، والاتجاه الواحد، وقد قيلت بشتى اللغات التى أرسل بها الرسل إلى أقوامهم. فإذا الكلمة التى قالها نوح – عليه السلام – هى ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فتجيب البشرية جوابا واحدا تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء، وفى الأعقاب بعد الأسلاف.. وكل حجتهم التى يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه.

وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين، ولا مذاهب حكماء، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التى تصد الدعوة الإسلامية، فيمتنع القتال.

ومن التجارب التى دل عليها التاريخ الحديث، كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود الصالحين ودعاة الانقلاب.. ومن تلك التجارب تجربة فرنسا فى القرن الماضى، وتجربة روسيا فى القرن الذى بعده، وتجربة مصطفى كمال فى تركيا، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله فى سائر البلاد..

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة.. ولابد من التمييز بين العملين، لأنهما جد مختلفين. والحقيقة الثالثة، أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها.

فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة:١٩٣]

والدولة التى يحمل الناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها. بماذا نفض الخلاف بينهما إن لم نفضه بالقوة (قوة السلطان)؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا حيث جاء فيه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحُجُرات:٩]

وفى كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح.. ثم يأتى الصلح والتوفيق أو يأتى التفاهم بالرضى والاختيار..

والحقيقة الرابعة، أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لابد من ملاحظتها عند البحث فى هذا الموضوع.

فاليهودية أو الإسرائيلية كانت كما يدل عليها اسمها أشبه بالعصبية المحصورة فى أبناء إسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس.. فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أصحاب النسب

الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم، فضلا عن امتشاق الحسام – لتعميم الدين اليهودى وإدخال الأمم الأجنبية فيه، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام فى هذا الاعتبار.

أما المسيحية فهى قد عنيت "أولا" بالآداب والأخلاق، ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة.

وقد ظهرت "ثانيا فى بلاد للمعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان، فهى قد عدلت عن فرض المعاملات والدساتير لهذه الضرورة، لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين.

وقد ظهرت "ثالثا" فى وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول، وليس للوطن الذى ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة فى ميدان القتال.

أما الإسلام فقد ظهر فى وطن لا سيطرة للأجنبي عليه، وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وتقويم المعاملات، وتقرير الأمن والنظام، وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية.

فإذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية فذلك اختلاف موضعى طبيعى لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه، وآية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الإسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش، وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبين.

وأربت حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الإسلام مجتمعات.

والحقيقة الأخيرة: أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع.

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام. واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه.

فإذا قيل إن المدعوين إلى الإسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين، فلما ينفى هذا القول أنهم اقتنعوا به متأخرين.. أن الأسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار، إلى جانب قدرته على إكراه من يركب رأسه ويقف فى طريق الإصلاح.

ومن نظر إلى الإقناع العقلى، تساوى لديه من يستميلك إلى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام، أو بتربية الأطفال عليها وهم لا يعقلون، ومن يستميلك إليها بالخوف من الحاكم.. على فرض أن خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الإسلام.

فالشاهد الذى تطعمه وتكسوه ليقول قولك فى إحدى القضايا، كالشاهد الذى ينظر إلى السوط فى يديك فيقول ذلك القول.. كلاهما لا

يأخذ بإقناع الدليل، ولا بنفاذ الحجة، ولا يدفع عن عقيدة دفع العارف البصير.

وصفوة ما تقدم أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع، وسوغته جميع الحقوق، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك.

إلا أن يحال بينها وبين انتضائه، أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها.. وأن الإسلام عقيدة ونظام، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام فى أخذ الناس بالطاعة، ومنعهم أن يخرجوا عليه.

ليس من شك فى أن حياة الرسول الكريم هى أكثر تجليات سنته المشرفة كمالا ووضوحا وصدقا. ولقد كانت "سيرة النبى صلوات الله وسلام عليه التى احتوت سنته المشرفة – من الأقوال والأفعال– من أهم مصادر الإلهام لكل العلماء والمفكرين والأدباء المسلمين والعرب، وللبعض من غير المسلمين أيضا.. كتب وأخذ عنه – صلوات الله عليه وسلام– المؤرخون والفقهاء واللغويون والحكماء، كما ألهمت سيرته قرائح الشعراء والأدباء والمتصوفة".

وفى هذا السبيل يسير أكبر أدباء اللغة العربية فى أوائل القرن العشرين توفيق الحكيم، الذى استطاع أن يصوغ السيرة فى شكل مسرحى درامى يعتمد أساسا على الحوار، ولعله من الواجب أن نتذكر أن كثيرا من سطور الحوار فى كتاب توفيق الحكيم أخذها الأديب الكبير من أهم وأقدم كتب

السيرة المشرفة التى تركها لنا كبار المؤرخين المسلمين الأوائل إضافة إليى كبار علماء الحديث الشريف.

مختارات من "محمد" لتوفيق الحكيم.

الهجرة الأولى.... الحبشة.

فى الحبشة – بين يدى النجاشى.

النجاشى على عرشه بين بطارقته.."

البطارقة: لقد جاء من "مكة" رسولان..

النجاشى: أدخلوهما..

"يدخلون عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص...".

عبد الله: "همسا لعمرو" هل قدمت إلى كل بطريق منهم هديته؟..

عمرو: "همسا" نعم... وسيعملون بما نريد...

البطارقة: أيها الملك.. لقد جاءاك بهدايا كثيرة...

النجاشى: تقدما يا رسولا الخير.

"عمرو يتقدم بين يدى النجاشى..."

عمرو أيها الملك.. إنا قد جئنا نسألك أمرا.. لقد أوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم

من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لنردهم عليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه..

عبد الله: "همسا لعمرو" أخوف ما أخاف أن يسمع "النجاشى" كلامهم، فيفسد الأمر... "عمرو يغمز بعينه للبطارقة.......

البطارقة: صدقا أيها الملك.. قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم...

النجاشى: "غاضبا" لا ، ها الله.... إذن لا أسلمهم إليهما وهم قوم جاورونى ونزلوا بلادى، واختارونى على من سواى، لن أسلمهم حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم..

"يسرع بعض أعوانه صادعين بأمره، ويدخل الأساقفة، ويدخل المهاجرون من أصحاب محمد..

النجاشى: "يلتفت إلى المهاجرين" تقدموا يا أصحاب محمد...

المهاجرون : أيها الملك..

النجاشى: ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا فى دينى؟ ولا فى دين أحد من هذه الملل؟..

جعفر: "يتقدم بين يدى النجاشى، أيها الملك.. كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا

رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله، لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا: فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا من عبادة الله إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا.. خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك..

النجاشى: هل معك مما جاء به نبيكم عن الله من شيء؟..

جعفر: نعم..

النجاشى: أقرأه على..

جعفر: "يتلو" ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا
(١٦) فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)
قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ
غُلَٰمًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا

﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا
ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا
فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا
تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ
سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا
﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ
وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا
﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:١٦-
٣٣]

النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة.

الأساقفة: والله إن هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا "يسوع المسيح"...

عبد الله: "همسا لعمرو" سمعت؟

النجاشي: "لعمرو وعبد الله" انطلقا.. فلا والله لا أسلمهم إليكما..

البيعة الأولى: لأهل المدينة.

"عند العقبة فى موسم الحج محمد يلقى رهطا من العرب

محمد: من أنتم؟

القوم: نفر من الخزرج..

محمد : "أمن موالى اليهود "يهود"؟

القوم: نعم.

محمد : أفلا تجلسون ، أكلمكم؟

القوم : بلى.

"يجلسون إليه"..

محمد : أنا رسول الله، بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئا، وأنزل على الكتاب، فهل تبايعوننى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان؟.. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا، فأخذتم بحده فى الدنيا كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة، - فأمركم إلى الله عز وجل : إن شاء عذب ، وإن شاء غفر...

"ينهض أحد القوم وهو أسعد بن زرارة".

أسعد: يا قوم... تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به "يهود" فلا تسبقنكم إليه"

القوم: صدقت..

أسعد: أيها النبى.. إنا نقبل منك ما عرضت علينا من هذا الدين..

القوم: نعم.. نقبل منك ونصدقك..

محمد : الله أكبر..

حفر الخندق: الرسول يعمل بيديه..

"الخندق وقد تم حفره إلا صخرة فيه يعالجون كسرها".

أبو بكر: تلك ناحية "بنى قريظة" وهم حلفاؤنا من "يهود" ولا يأتينا منهم شر..

سلمان "وقد جهد تعبا أن يكسر الصخرة" يا رسول الله.. لقد غلظت علينا هذه الصخرة .

محمد: "يقبل عليهم" آتونى إناء من ماء.

سلمان: "يسرع، ويحضر إناء" هاهوذا..

محمد: "يتفل فى الماء وينضح به الصخرة" هات المعول يا "سلمان".

سلمان: خذ يا رسول الله..

محمد : "يرفع المعول فوق الصخرة" بسم الله...

"ثم يضرب الصخرة ثلاث ضربات، فيلمع برق تحت المعول، وتنهار الصخرة...".

المسلمون: الله أكبر..

عمر: قد انهارت الصخرة وعادت كالكثيب..

"تمر بقرب النبى فتاة فى ثوبها حفنة من تمر، فتردد ما يقول الناس..."

الفتاة: اللهم لك الحمد..

محمد: تعالى يا بنية ، ما هذا الذى معك؟...

الفتاة: يا رسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى "بشير" وخالى "عبد الله" يتغديانه...

محمد : "يمد كفيه" هاتيه...

الفتاة: تضع التمر فى كف النبى....

الفتاة: إنه لا يملأ كفيك..

محمد: ابسطوا ثوبا..

"يأتى بلال بثوب ويبسطه على الأرض فيدحو النبى بالتمر عليه..."

بلال: قد تبدد التمر فوق الثوب...

محمد : "لبلال" اصرخ فى أهل "الخندق" أن هلموا إلى الغداء ..

فأكل القوم جميعا ولم ينقص الطعام شيئا..

وفاة الرسول:

"فى مسكن عائشة – النبى على فراش الموت، ونساؤه خلف ستار يحجبهن عن ذويه وأصحابه من الرجال..".

عمر: "يدخل ويهمس لعلى والعباس بن عبد المطلب" الناس يسألون: كيف أصبح رسول الله ؟

على : "همسا" أصبح بحمد الله بارئا..

العباس: "ينظر إلى وجه النبى ويهمس" أحلف بالله لقد عرفت الموت فى وجه رسول الله، كما كنت أعرفه فى وجوه بنى "عبد المطلب".

أبو بكر: "يلمس النبى" يا رسول الله ، إنك لتوعك وعكا شديدا.

محمد: "فى صوت ضعيف متعب: أجل.. إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم...

أبو بكر : إن لك لأجرين...

محمد: نعم.. والذى نفسى بيده، ما على الأرض مسلم يصيبه أذى عن مرض فما سواه، إلا حط الله به عنه خطاياه، كما تحط الشجرة ورقها..

"يسمع صوت لغط وبكاء فى المسجد...".

أبو بكر : "يهمس لعلى" ما هذا الصوت فى المسجد؟...

على: "همسا" أخشى أن يكون "العباس" قد خرج يخبر الناس..

محمد : "يشير إلى الستار الذى بين المسكن والمسجد" من هؤلاء؟..

على: هذه الأنصار فى المسجد، نساؤها ورجالها ، يبكون عليك...

محمد: وما يبكيهم؟....

على: "فى تردد وصوت خافت" يخافون أن تموت..

محمد: أهريقوا على سبع قرب من آبار شتى.. ثم إيتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده..

عمر: "لمن حوله همسا" إن رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله...

أبو بكر: بل قربوا يكتب لكم رسول الله...

على: كلا.. الرأى ما قال عمر..

يشتد اللغط بين الرجال..

محمد : "يضيق بهم" قوموا عنى... قوموا عنى...

أبو بكر: لقد أثقلنا على النبى فى وجعه .. هلموا بنا ..

"يذهب الرجال – وتخرج عائشة والنساء من خلف الستر...".

عائشة : يا رسول الله، إنك لتجزع وتضجر، لو فعلته امرأة منا عجبت منها...

محمد : إن المؤمن يشدد عليه، ليكون كفارة لخطاياه.

"فاطمة تبكى..."

محمد : لا تبكى يا بنية... قولى إنا لله وإنا إليه راجعون ، فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوضة.

فاطمة : ومنك يا رسول الله؟...

محمد : ومنى..

عائشة : "لفاطمة " إنه يوعك من الحمى..

محمد : ينهض قليلا يا عائشة ؟ .. ما فعلت تلك الذهب ؟؟؟....

عائشة : أى ذهب..

محمد : الدنانير الستة التى عندى..

عائشة : هى عندى..

محمد: ما ظن "محمد" بربه أن لو لقى الله وهذه عنده... أنفقيها كلها صدقة... إن النبى لا يورث.

عائشة : سأنفقها..

محمد: اللهم توفنى فقيرا، ولا توفنى غنيا واحشرنى فى زمرة المساكين.."يرقد" الآن استرحت.

عائشة : "تضع رأس النبى فى حجرها" يا رسول الله... اسأل الله لك الشفاء والعافية..

محمد: "يشخص ببصره إلى السماء كالمخاطب لنفسه، بل الرفيق الأعلى..

عائشة: "تسقط من عينها قطرة دمع بلا شهيق" خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق..

محمد: "فى صوت خفيف" قدحا من ماء..

عائشة : "للنساء" أسرعن إلى بقدح من ماء..

يحضرن قدح الماء..

محمد: يبلل يده ويمسح وجهه، اللهم أعنى على سكرات الموت..

فاطمة: واكرب أبتاه..

محمد: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، أدن منى... أدن يا جبريل.

أدن منى يا جبريل.. أدن منى يا جبريل..

جبريل: يا أحمد .. إن الله أرسلنى إليك إكرامالك ، وتفضيلا لك، وخاصة لك، يسألك عما هو أعلم به منك، ويقول لك كيف تجدك؟

محمد : "شاخص العينين يتكلم من قلبه، دون أن يبدو لمن حوله شيء" أجدنى يا جبريل مغموما، وأجدنى يا "جبريل مكروبا.

جبريل: "يشير إلى ملك خلفه" يا "أحمد" هذا ملك الموت، يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمى كان قبلك، ولا يستأذن على آدمى بعدك.

محمد : إيذن له

ملك الموت: يا رسول الله يا "أحمد".. إن الله أرسلنى إليك وأمرنى أن أطيعك فى كل ما تأمرنى، إن أمرتنى أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتنى أن أتركها تركتها.

محمد: وتفعل يا ملك الموت؟

ملك الموت: بذلك أمرت أن أطيعك فى كل ما أمرتنى.

جبريل يا "أحمد" ... إن الله قد اشتاق إليك..

محمد: امض يا ملك الموت لما أمرت به.

جبريل: السلام عليك يا رسول الله.. اليوم آخر عهدى بهبوط الأرض.

"يرتفع المكان ويتركان محمدا جثة هامدة".

عائشة : "ترى النبى قد ثقل عن حجرها فتضعه على الفراش وتغطى وجهه ببردة وتصيح": أدركونى.. أدركونى..

النساء: "فى جذع وروع" ماذا؟..

عائشة: تضرب وجهها" واثكلاه.. مات رسول الله.. مات رسول الله..

فاطمة : أبتاه..

النساء: واثكلاه..

فاطمة: ترى الجثة فتصيح" أبتاه.. يا أبتاه.. أجاب ربا دعاه.. جنة الفردوس مأواه.. أبتاه.. إلى "جبريل" ننعاه.. يا أبتاه.. من ربه ما أدناه..

عائشة: "فى بكاء وشهيق" رسول الله قد مات.. واحر قلباه.. وامصيبتاه.. الآن قد انقطع عنا خبر السماء.

بريرة: "تدخل مسرعة" إن "عمر" و"العباس" ورجالا معهما يستأذنون فى الدخول على النبى.

عائشة: للنساء احتجبن خلف الستر.

"يحتجب النساء فى الحال وهن يبكين".

عمر: "يدخل ويسرع إلى محمد ويرفع الغطاء عن وجهه" واغشياه" .. ما أشد غشى رسول الله. "أحد الرجال وهو المغيرة ينظر إلى وجه النبى..".

المغيرة: يا "عمر" مات والله رسول الله.

عمر: "فى غضب" كذبت .. ما مات رسول الله، ولكنك رجل تحوشك فتنة، ولن يموت رسول الله حتى يُفنى المنافقين.

الناس "فى الخارج" أمات النبى؟ أمات النبى؟...

عمر: يصيح فى الخارج" أيها الناس.. لا أسمعن أحدا يقول إن محمدا قدمات، ولكنه أرسل إليه كما أرسل موسى بن عمران فلبث عن قومه

أربعين ليلة، والله إنى لأرجو أن نقطع أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

الناس: "فى الخارج" لا تدفنوه.. إنه لم يمت..

رجل: "فى الخارج" إن رسول الله قد رفع كما رفع عيسى ابن مريم، وليرجعن.

العباس: "فى الخارج" هل عند أحد منكم عهد عند رسول الله فى وفاته فيحدثناه؟

الناس: "فى الخارج" لا.

العباس: "من الخارج" هل عندك يا عمر من ذلك؟

عمر: "من الخارج" لا.

العباس: "من الخارج" اشهدوا أن أحدا لا يشهد على نبى الله بعهد عهده إليه بعد وفاته إلا كذاب، والله الذى لا إله إلا هو، لقد ذاق رسول الله الموت، وإنه ليأسن كما يأسن البشر، فادفنوا صاحبكم، أيميت الله أحدكم إماته ويميته إماتتين؟ هو أكرم على الله من ذلك، إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجا واضحا، أحل الحلال وحرم الحرام، ونكح وطلق، وحارب وسالم، وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم.

النساء: "خلف الستر" أمات رسول الله أم لم يمت؟

فاطمة: "تدنو من الجثة، وتتأمل وجه النبى طويلا، وتجهش بالبكاء" قد توفى رسول الله.

"أبو بكر يدخل مسرعا ويتجه إلى الجثة، ويرفع الغطاء عن النبى المسجى ويقبله ويبكى".

أبو بكر: بأبى أنت وأمى، طبت حيا وميتا.. أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا.

"يرد البرد على وجه النبى ويخرج...".

عمر: "فى الخارج" أيها الناس.. والله ما مات رسول الله. إنما عرج بروحه كما عرج بروح موسى"..

أبو بكر "فى الخارج" على رسلك يا عمر.. أنصت.

عمر: "مستطردا" والله لا يموت رسول الله حتى تقطع أيدى أقوام وألسنتهم.

أبو بكر : "فى الخارج صائحا" أيها الناس.. "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين" أما بعد فمن كان منكم يعبد "محمدا" فإن "محمدا" قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت.

الناس: "فى الخارج" يبكون . مات رسول الله.

"النبى مسجى على سريره، يدخل الناس عليه زمراً زمرا، يصلون عليه ويخرجون بغير أن يؤمهم إمام"

"أبو بكر وعمرو على فى الصف الأول أمام جثة النبى مطرقين".

على: "همسا" للجثة والعبرات فى عينيه: أنت إمامنا حيا وميتا".

أبو بكر وعمر: "للجثمان" السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله، حتى أعز الله دينه، وتمت كلماته.. فآمن به وحده لا شريك له، فاجعلنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذى أنزل إليه، وثبتنا بعده، واجمع بيننا وبينه، فإنه كان بالمؤمنين رؤوفا رحيما.. لا نبتغى بالإيمان بدلا، ولا نشترى به ثمنا أبدا..

الناس: "من صوت واحد آمين ... آمين..

الخاتمة:

إن الإسلام يتسع لمناقشة كل الأفكار والتأملات التى قد تمر بخواطرنا فى أوقات الصفاء والتجلى، ففى الدين ساحات رحبة للأخذ والعطاء من كل ما ينتاب الإنسان من فكر، أو يصطدم بعقبة قد يصعب عليه تفسيرها أو تحليلها، ولكنه يجد حلها فى النهاية عندما يمعن النظر ، ويدقق فى آى الله، وتنكشف الحقيقة لكل من كان له قلب تنبض بالحق، وعقل يتغذى على المنطق السديد.

ولو تأملنا لوجدنا فى تأملنا وتدبرنا أن الإسلام له قواعد ثابتة لا تتبدل ولا تتغير لأنها قانون الله وكلمته وتتركز فى شهادة التوحيد التى جاء بها الرسل جميعهم، ونادوا بها فى أقوامهم "لا إله إلا الله" عقيدة ثابنة لا تتغير، من تمسك بها نجا، ومن حاد عنها هوى وتردى. استجابة وطاعة وعبادة توجها إليه سبحانه وليس لأحد سواه.. إنها علاقة خاصة بين الله وعباده المؤمنين.

من أجل ذلك كان هذا البحث الذى تمخض عن فكر وتأمل حول الآيات القرآنية التى اشتملت على مناجاة بين الله وبين عباده المحسنين، المؤمنين، المختارين، اختارهم بنفسه، واصطفاهم لنفسه، وصنعهم على عينه.. فآنس لهم، وفضلهم بالكلام معهم إما وحيا أو من وراء حجاب، أو برسول يرسله من الملائكة أو غيرهم كما يشاء.. ومن ثم كان الحوار، وكان الكلام.

وكان الاستعراض البيانى بين ذات الجلالة، وعباد الله المؤمنين.

فأما الوحى فقد اختص به الله سيدنا محمدا – صلى الله عليه وسلم – لينذر الناس، ويوجههم إلى طاعة الله، وعبادته، وتوحيده وعدم الشرك به، وليكون هاديا لهم إلى صراط مستقيم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويرشدهم سواء السبيل.

كما أوحى سبحانه إلى غير محمد من الرسل، وأوحى إلى الملائكة، وأوحى إلى النحل وإلى السماء وإلى الأرض، وأوحى إلى عبده ما أوحى- كل ذلك من أجل إسعاد البشرية ورفاهيتها وحريتها باختيار الطريق الصحيح المؤدى إلى الجنة وإلى رضوان الله تعالى.

وعن هذا الوحى كان الكلام يتم ، وتتحقق من ورائه الأهداف التى يرجوها الله لعباده، على هذه الأرض، وفى هذا الكون، حتى يلقونه وهو راض عنهم.

تكلم الله مع عباده المختارين- وحيا- فالذات الإلهية تسمو وتتجلى فوق البشر، ولا يستطيع لبشر أن يرى الله، أو أن يتكلم معه وهو أمامه- وإن كان الوحى يغنى عن هذا كله – بل ويحقق الغرض المطلوب، وهو إحداث المكالمة بين عبد وربه.. ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى:٥١]

وكلم الله موسى عليه السلام – من وراء حجاب، وكان هذا أسمى درجات اللقاء بين عبد وربه، وأسمى درجات التلقى لعبد من ربه، وقد عرف أن موسى كليم الله، بل وحبيبه ومصطفاه، وهو الذى اختاره الله

لنفسه، درجة من العلو والمنزلة لم ينلها أحد من العباد، وهذا مما شجع موسى أن يطلب من الله أن يمن عليه برؤيته، فهو يريد أن يراه، يريد أن يرى من أحبه وقربه إليه واختاره، ولكنه لا يقوى على مثل هذا التجلى، وعلى مثل هذه الرؤية، لأنه بشر، ولا يمكن لبشر أن يتحمل هذا النور الإلهى، ولكن الله يريد بموسى الاشفاق، وقدم له أسباب عدم قدرته على الرؤية، فتجلى إلى الجبل فجعله دكا، وهنا علم موسى أنه لن يستطيع أن يرى الله، وخر موسى صعقا..

غير أن ما يجعلنا نخوض فى حديث طويل مع موسى، هو ما وجدناه عنه فى كثير من سور القرآن الكريم، فقد تعرضت له الآيات فى غير سورة بالذكر، والعرض لما كان بينه وبين قومه، ومن ثم ما كان بينه وبين الله..

وإذا تركنا موسى – عليه السلام – والكلام بينه وبين الله الذى ميزه به، نجد غيره ممن فضلهم الله، وقدمهم فى عرض مع من تكلم معهم، فهذا إبراهيم – عليه السلام – الذى أرسله الله إلى قومه لهدايتهم، وتبصيرهم بالحق، فكذبوه فكانوا هم الأخسرين.. وتكلم إبراهيم مع ربه فى غير موقف من المواقف التى شهدها فى مسيرته، سواء مع قومه أو أهله وعشيرته، وكان الكلام بينه وبين الله لتهدئته وتطمينه، وأنه على الحق، ولسوف تكون خاتمته النجاة مما عزم عليه قومه، وما دبروه له، والله من ورائهم محيط.

إبراهيم– أبو الأنبياء– يكلمه الله، ومن قبله كلم الملائكة، وأرسلهم برسالاته، وكانوا هم أول من كان من الخلق، وهم أحباؤه، أطاعوه، ولم

يعصوه فيها أمر، فكانوا من المختارين.

وهذا آدم – عليه السلام – الذى اختاره الله ليكون خليفة فى الأرض، رغم اعتراض الملائكة على هذا لأنهم قد علموا فى معاشرتهم للجن أنهم يفسدون ، ويقتلون، فظنوا على آدم أن يكون كما كانت الجن، ولكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، فسجدوا عندما أمروا بالسجود لآدم – غير أن أبليس أبى، فحقت عليه لعنة الله..

كلم الله آدم، وهو يعرض قضية الخلق وقضية البشرية الأولى، ووجهه إلى الوجهة الصحيحة فى الحياة الدنيا، وتمت كلمة الله، وأصبحنا جميعا على سطح هذ الأرض..

لقد أطلت فى عرض المشاهد مع نوح وهو يكلم الله وكان فى التصوير مشابهة فى الحلقات التى عرضتها، ولم يكن فى إعادة المشاهد، وتكرار الصور والمواقف ما ينفر منها، ذلك أنى تعمدت أن ألتقط من السور القرآنية– على اختلافها – مع ما حمل هذه المشاهد إلينا بلقطاتها المتكررة. وإن كنا عرضنا لها فى شيء من التجديد والتغيير، وألبسناها ثوبا غير الذى تناولنا به ما شابه الموقف، ودل على الحدث.

وإذن فنحن لم نلجأ إلى التكرار أو الإعادة، بقدر حرصنا على أن نستوفى المشهد من جميع زواياه وفى سور القرآن الكريم التى تناولته.. كما أرجو أن يكون فى هذا التكرار، وهذه الإعادة ما يثبت المشهد فى ذهن المتلقى، وما يدعوه إلى استعادة ما سبق من صور ومشاهد.

تكلم الله مع نوح، وتكلم الله مع موسى، وقد تناولتهما بشىء من التفصيل، ذلك لأنهما يشيران إلى قضية الحوار التى أثرتها، ويوضحان الصوت مجسما فى حديثهما مع الله، وفى مناجاتهما مع الذات العلية.

ولا ننسى زكريا ومريم اللذان أختصهما الله بعنايته ورعايته، وكافأهما مكافأة خاصة، وكان لزكريا مع ربه كلام ينبىء عن حب واصطفاء، وأجابه إلى ما طلب، وقدم له كل ما أراد.

وكذلك مريم البتول التى اصطفاها الله، وطهرها، واصطفاها على العالمين لم تحرم من المناجاة لربها، ومع ربها، وترضى بهديته إليها، وتتقبلها بقبول حسن، وتعود راضية مطمئنة لأمر الله، مرضية بما وهبها الله..

ومن ثم كان - عيسى - عليه السلام الذى وصفه الله بصفات عدة، جعلته من المقربين، ومن الذين فضلهم الله، ودار بنيه وبين الله - كلام - فى مواقف يعرض لها القرآن الكريم، وتعطينا دلالة على حب الله لهذا العبد الصالح.

ويعرض البحث لموكب الرسل الذين اختارهم الله وفضلهم لرسالاته ولكلامه، فقاموا بالدعوة خير قيام، ولاقوا العنت والنصب والمعاناة فى مسيرتهم، وفى نشر دعوتهم، وفى الحق الذى كانوا ينشدونه.. وابتلى منهم الكثيرين، ولكنهم صبروا على ما أوذوا، ولم ييأسوا أو يأخذهم الضيق، بل ساروا على الدرب، وحققوا ما كلفهم به الله، ونالوا فضله ورضاه، وتمت كلمة ربك لننصرنهم أجمعين..

ومن أخص ما فى هذا البحث – بعد قضية الحوارات الإلهية– وبعد هؤلاء الذين كلمهم الله، تأتى الاستجابة الفورية لكل من توجه إلى الله بالدعاء، ولكل من كان له طلب عند الله، فلم يتوجه أحد من هؤلاء الصالحين. عباد الله المؤمنين، المحسنين، إلى السماء، إلا فتحت له السماء أبوابها، واستجاب له الله استجابة فورية، فمن أصابه مرض، أو ضيق، أو عنت، أو كان فى غم ودعا الله، حتى وجد الله أمامه وقد حقق له ما يريد..

فهل نطمع أن يستجيب الله لنا.. أن يستجيب لكل من كان له قلب وقرأ هذا البحث وفكر فيه؟

هل نطمع فى أن نكون من المقربين، المفضلين...؟

هل نطمع فى أن نكون من المحسنين، من عباد الله المؤمنين؟

هل نطمع فى أن نكون من المصطفين الأخيار..؟

هل نطمع فى أن نكون من المختارين...؟

هل نطمع فى أن يزيد...؟

هل نطمع فى أن يستجيب..؟

لم لا ...؟

سلام على السابقين، سلام يعود على عباد الله الطائعين..

د. خالد الزواوى

فبراير ٢٠١٠

المراجع

- القرآن الكريم
- فى ظلال القرآن: سيد قطب ط٣ – دار إحياء التراث العربى- بيروت، لبنان ١٩٦١.
- تفسير الجلالين: للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلى، والعلامة جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر السيوطى- دار الغد الجديد ط١ - القاهرة ٢٠٠٧.
- قاموس الأديان الثلاثة: تحقيق نور الدين خليل – مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع الإسكندرية ٢٠٠٧.
- العهد الجديد: دار الكتاب المقدس- شركة الطباعة المصرية ط١ سنة ٢٠٠٦.
- معجم ديوان الأدب: تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر ط١ - الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ٢٠٠٣.
- معجم أعلام القرآن الكريم: د. محمد المونجى- الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان ٢٠٠٤.
- معجم السراج الوجيز: وجدى رزق غالى – مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – لبنان ٢٠٠٣.
- الأسلوبية ، دراسة فى تحليل الخطاب، فرحات بدوى – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط١ – بيروت. لبنان ٢٠٠٣.
- الحيوان للجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون- مكتبة الأسرة- ٢٠٠٤.
- حياة محمد، د. محمد حسين هيكل- الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥.

- معجم التعابير الإصطلاحية، د. محمد البطل- الشركة المصرية العالمية – لونجمان ٢٠٠٠.
- البيان والتبين للجاحظ تحقيق د. عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب- الذخائر ٢٠٠٣.
- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجانى، محمود محمد شاكر- مكتبة الأسرة٢٠٠٠.
- مشاهد أبكتنى، د. خالد الزواوى- دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الإسكندرية ٢٠٠٢.
- سماحة الأديان، د. خالد الزواوى. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية ٢٠٠٤.
- إكساب وتنمية اللغة: د. خالد الزواوى- مؤسسة حورس الدولية – الإسكندرية ٢٠٠٥.
- قصص الحيوان فى القرآن : د. خالد الزواوى- مؤسسة حورس الدولية – الإسكندرية ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨.
- الإسلام فى القرآن الحادى والعشرين: د. خالد الزواوى- مؤسسة طيبة- القاهرة ط١ ٢٠٠٩.
- أدب الحوار فى الإسلام، د. عبد الكريم عدنان.
- من أسرار القرآن : د. زغلول النجار. جريدة الأهرام المصرية- يناير ٢٠١٠.
- الطريق إلى الإسلام: محمد أسد، نقله إلى العربية عفيف البعلبكى ط٨، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ١٩٩٤.

- معجم ألفاظ القرآن الكريم : إعداد مجمع اللغة العربية.
- الحوار فى القرآن الكريم: د. محمد أبو ليلة- دار الهلال – القاهرة ٢٠٠٩.
- الألوسى: روح المعارف فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، تحقيق سيد عمران القاهرة – دار الحديث ٢٠٠٥.
- قصص الأنبياء: تحقيق صدقى جميل العطاء – دار الفكر – بيروت – لبنان ٢٠٠١.
- الرازى (فخر الدين الرازى) الأربعين فى أصول الدين – دار الجيل- بيروت لبنان ٢٠٠٤.
- حسن قاضى طاطبائى (تعليقاته على منطق الطير لفريد الدين العطاء) طبعة التراث القاهرة ٢٠٠١.
- القرآن والأناجيل، د. محمد أبو ليلة- دار الفلاح ط٢- القاهرة ٢٠٠٧ بالإنجليزية
- قراءة جديدة من سورة يوسف: د. محمد أبو ليلة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٨
- الجذور التاريخية والجسور الحضارية: د. محمد أبو ليلة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠١.

كتب للمؤلف:

- النقد والبلاغة.
- التربية الإسلامية.
- الصورة الفنية عند النابغة.
- تطور الصورة فى الشعر الجاهلى.
- التعليم المعاصر.
- مشاهد أبكتنى.
- اللغة العربية.
- الجودة الشاملة فى التعليم.
- البطالة فى الوطن العربى.
- الماء – الذهب الأزرق.
- سماحة الأديان والسلام العالمى.
- اكساب وتنمية اللغة.
- الشباب والفراغ.. ومستقبل البحث العلمى.
- قصص الحيوان فى القرآن.
- الإسلام فى القرن الحادى والعشرين.
- من روائع فاروق شوشة.
- من أسرار القرآن لزغلول النجار.
- كتب تحت الطبع
- جائزة قائد
- فى الشعر الجاهلى.

المؤلف:

د. خالد محمد الزواوى

دكتوراه فى الأدب العربى من جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى

عضو هيئة تدريس اللغة العربية بدولة الكويت سابقا.

عضو اتحاد الكتاب.

حصل على جائزة عيد العلم.

وجائزة محمد شوقى الفنجرى فى خدمة الدعوة.

وجائزة الاستحقاق من دار نعمان الثقافية بلبنان.

وجائزة الشئون الاجتماعية فى الأدب.

وجائزة نادى الأهرام للكتاب.

هاتف : ٠١٢٢٧٣٨٠٤٤

بولكلى – أمام ١٩ شارع أبو هيف – الإسكندرية

المحتويات